

International Islamic University Islamabad

الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد

Faculty of Arabic

كلية اللغة العربية

Department of Literature

قسم الأدبيات



فن السيرة الذاتية في مصر في القرن الخامس عشر الهجري

(دراسة موضوعية فنية من خلال نماذج مختارة)

بحث متمم لبليل درجة الدكتوراه في الأدب العربي

الإعداد

ياسين أكبر جوهر

الإشراف

الأستاذ الدكتور مؤيد فاضل

الأستاذ محمد أحمد ناشي



رقم التسجيل: 142-FA/PhD/2012

العام: 2020م / 1442هـ

عربی
K

Accession No. TH35691

PhD

۹۲۷ و ۹۲۸

پ : ف

- أدب عربي - بحوث
- أدب عربي - تراجم
- أدب عربي - فن
- أدب عربي - سيرة ذاتية
- أدب عربي - شعر
- أدب عربي - قرون
- أدب عربي - خامس عشر
- أدب عربي - هجري
- أدب عربي - نماذج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

□

الإهداء

❖ إلى: والديّ الكريمين اللذين لم يألوا جهدا في سبيل تعليمنا وتربيتنا رحمهما الله وطيب ثراهما.

❖ إلى: رفيقة الدرب ومشجعي الأول زوجتي الغالية التي طالما وقفت معي وساندتني حتى أواصل الطريق وأنجز المهمة.

❖ إلى فلذات كبدي محمد زيان، وأحمد ياسين، وفاطمة ياسين.

أهدي إليهم جميعا هذا العمل.

كلمة شكر

بداية أشكر الله العظيم الذي أنعم علينا بنعمه الكثيرة، ووفقني لإتمام هذا البحث.

وانطلاقاً من قول الحبيب المصطفى ﷺ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»⁽¹⁾. وقوله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيدوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بالله فأجيروه، ومن آتى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»⁽²⁾. وعملاً بهذا المبدأ الأخلاقي الخالص أتوجه بالشكر الجزيل إلى:

- أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور مؤيد فاضل علي مساعدته لي، فرغم انشغالاته، والتزاماته الكثيرة فقد قبل الإشراف على هذا العمل، مع تقديمه لملاحظات قيمة أنارت لي طريق البحث والتقصي، فله كل عبارات الشكر والتقدير، عرفانا مني بالجميل.
- إلى الأستاذ الفاضل نجه أحمد ناشي، وهو المشرف المساعد على هذا البحث، الذي أفادني بإرشاداته القيمة، وتوجيهاته العلمية الدقيقة، وآرائه السديدة، ولم يضمن عليّ بوقته الغالي، بل قرأ معي البحث كله، وبذل من الجهد ما يصعب علي وصفه، فجزاه الله على مساعيه الكريمة عني خير الجزاء، وبارك في علمه وعمره، ونفع به الإسلام وطلاب العلم.

(¹) أخرجه الإمام الترمذي في: السس، تحقق وتعلق: أحمد نجه شاكر، ونجه فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، 1395هـ - 1975م، 339/4.

(²) أخرجه الإمام النسائي، في السنن الصغرى للنسائي (المتوفى: 303هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب. وفي الطبعة الثانية: 1406 - 1986، ترقيم الكتاب موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة التخريج ومذيل بأحكام الألباني، وهو متن مرتبط منشرح السيوطي والسدي، كتاب الركاة، من سأل بالله عز وجل، 82،2567/5.

• كما أتقدم بأسمى آيات الشكر والتقدير إلى الأستاذ فرمان الله خان، الذي كان يرحب بي كلما ذهبت إليه للاستفسار والسؤال أو المناقشة في موضوع ما، ولم يضمن عليّ بآرائه السديدة وأفكاره النبيلة التي كانت نبراساً منيراً أسير على ضوئها أنا وزملائي من الطلاب.

• أقدم شكري وتقديري لجميع أساتذة كلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية، على ما بذلوه ويبدلونه من جهود مباركة لرفع شأن اللغة العربية وآدابها في باكستان.

• كما أتقدم بخالص الشكر والعرفان إلى جميع الزملاء أصدقاء درب العلم الذين ساهموا في إتمام هذا العمل، ووقفوا معي ورفعوا من معنوياتي أثناء كتابة البحث، ولاسيما الأستاذ الدكتور عبد المجيب بسام، فجزاهم الله عني خير الجزاء، وأجرهم على الله، والله لا يُضيع أجر المحسنين.

• وأشكر أسرتي الصغيرة - زوجي وأولادي - الذين صبروا وتحملوا كثرة انشغالي عنهم، سائلاً الله الكريم أن يجعلهم هداة مهتدين محفوظين بحفظه ورعايته.

• ثم أشكر كل من ساعد بأي وجه كان ممن أذكرهم ومن لا أذكرهم، ولكنهم مع ذلك معروفون عند الله، ولطول مرحلة البحث والكتابة في هذه الرسالة فقد أنساهم فأعتذر لهم، وأدعو الله أن يُجزل لهم المثوبة ويوفقهم لمرضاته.

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان والصلاة والسلام على سيد المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد!

إن السيرة الذاتية هي التي يتحدث فيها الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيسجل حوادثه وأخباره، ويسرد أعماله وآثاره، ويذكر أيام طفولته وشبابه وكهولته، وما جرى له فيها من أحداث الفرح والترح، وهي مظنة الإغراق والمغالاة غالباً، وشرك للحديث عن النفس والزهو بها وإعلاء قيمتها، ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثر انطباقاً على حياته، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض، ولكنها مجال تحقيق وتثبيت، وبهذا يصح في المترجم الذاتي مضرب المثل: "قطعت جهيزة قول كل خطيب"⁽³⁾.

والسيرة الذاتية نوع من تلك الأجناس الأدبية التي ظهرت في الأدب العربي الحديث كفن أدبي مستقل يتحدث فيها الكاتب بقلمه عن أحواله الذاتية، فيكتب حوادثه وأخباره، ويتحدث عن أعماله وإنجازاته، ويسرد مراحل حياته المختلفة، وما وقع له فيها من الأفراح والأتراح، تَعْظُمُ وتَضَعُفُ تبعاً لأهميتها، وقد يُسَجَّلُ فيها الوقائع والأحداث يوماً فيوماً أو بصورة متقطعة بعد أن تُجَمَّع عناصرها من مصادر متعددة، وقد ورد في "معجم المصطلحات الأدبية" أن السيرة الذاتية "سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية"⁽⁴⁾.

تطور فن السيرة الذاتية في العصر الحديث:

وفي العصر الحديث نجد نماذج مختلفة من سير الآخرين، والسير الذاتية. "وقد دخل فن السيرة بنوعيه في العصر الحديث نطاق الأدب، ولم يعد أخباراً محكية، ولا أحداثاً تاريخية،

(3) مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، المبدائي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م، رقم المثل: 2830، 91/2.

(4) معجم المصطلحات الأدبية: إبراهيم فتحى، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، تونس، 1986م، ص 202.

ولكنه قام على عنصر الحقيقة والواقع، في بناء فني متماسك، وبلغه أدبية، تجعل السيرة فنًا أدبيًا لا عملاً تاريخيًا، وإن داخلها شيء من الخيال وصناعة الفن⁽⁵⁾.

ومن أهم كتب السيرة للآخرين في الأدب الحديث عبقریات العقاد الإسلامية، وبعض هذه الكتب؛ ابن الرومي، وجميل بثينة، وعمر بن أبي ربيعة، وكذلك بعض ما كتب طه حسين، مثل: على هامش السيرة؛ والشيخان، أما كتب النوع الثاني وهي كتب السيرة الذاتية فمنها: كتاب الساق على الساق في ما هو الفاريق لأحمد فارس الشدياق، وهي أول سيرة أدبية في العصر الحديث؛ وأيامي لأحمد السباعي، وحياتي لأحمد أمين، والأيام لطف حسين؛ والحمد لله هذه حياتي للشيخ الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، وغبار السنين للدكتور عمر فروخ.

ومن كتب السيرة في القرن الخامس عشر الهجري، على الجسر بين الحياة والموت للدكتورة عائشة عبدالرحمن، وماذا علمتني الحياة، ورحيق العمر للدكتور جلال أمين، ومعني للدكتور شوقي ضيف، وحياتي في حكاياتي للدكتور حسن الشافعي، وسأتناول هؤلاء الكتاب الأربعة - للدراسة - في هذا البحث، إن شاء الله.

أهمية الموضوع:

تقديم تصور عن السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث وكيف تطورت وساهمت في تاريخ الأحداث وتجسيدها بصورة واضحة جلية لا غموض فيها، وتوضيح مفهوم السيرة في الأدب العربي الحديث، والمميزات التي ميزتها عن غيرها من فنون الأدب من اعتدال وبعده عن التكلف، ودقة متناهية في تصوير الزمان والمكان والحدث.

(5) السيرة في الأدب العربي والغربي الحمزة منصور، [مقال نشر في] "مبتديات ستار تايمز"، (اطلعت عليه بتاريخ: 12 يونيو 2016، <https://www.startimes.com/?t=31526447>).

والسيرة الذاتية تتناول جانباً من الأدب العربي عامراً بالحياة، نابضاً بالقوة، وإن هذا اللون من الدراسة وصل أدبنا بتاريخ الحضارة العربية وتيار الفكر العربي والنفسية العربية، لأنه صورة للتجربة الصادقة الحية التي أخذنا نتلمس مظاهرها المختلفة في أدبنا الحديث.

أسباب اختيار الموضوع:

1. أثناء دراستي للمواد الأدبية والنقدية التي درسناها في مراحل دراسية مختلفة في الكلية، كان ينصب اهتمامي على تاريخ الأدب وأحداثه وشخصياته المختلفة أكثر من اهتمامي بالنصوص ذاتها. وكنت أحب أن أتعرف على حياة الشعراء والأدباء والنقاد وغيرهم، وكنت أحفظ أخبار حياتهم والأحداث التي تقلبوا فيها أكثر من أساليبهم البديعة وعواطفهم الجياشة وخيالهم البعيد، وكنت أتوق لقراءة كتب في التاريخ والسيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام- والسير الذاتية لبعض الشخصيات المعروفة في سماء اللغة والأدب مثل: لمحات من حياتي للدكتور نجيب الكيلاني، والأيام لطلح حسين، وكنت أجد الراحة في قراءة مثل هذه الكتب ... ورأيت أن أسجل موضوعاً لبحث الماجستير له علاقة بالسيرة والتاريخ غير أنني لم أوفق في ذلك.

2. ومن أسباب الاختيار ... هو أن الباحثين والدارسين عنوا برصد الفنون الأدبية وانصرفوا جهودهم إلى فنون الشعر والمسرحية والقصة والقصة القصيرة وغيرها، وأن السيرة الذاتية ما زالت تحتاج من الدارسين والباحثين هذه العناية والاهتمام، كما أن فن السيرة الذاتية لم يزل بحاجة إلى دراسات تتناول هذا الفن بالدراسة والبحث.

3. ومن الأسباب أيضاً؛ أن لأرض الكنانة حظاً وافراً في الأدب العربي ونهضته ليس في العصر الحديث فحسب بل في كل العصور المنصرمة، فمنذ الفتح الإسلامي لها تقوم بدور

ريادي في ميدان العلوم الإسلامية المختلفة والفنون الأدبية، وكانت موطن العلماء ومنشأ الشعراء والأدباء الذين ساهموا في إضافة ثروة عظيمة إلى المكتبة العربية وأتخفوها بكنوز غالية، ومن بين هذه الكنوز الغالية فن السيرة الذاتية فقد أولاه الأدباء والكتاب المصريون اهتمامهم وكتبوا مؤلفات قيمة يسردون فيها قصة حياتهم الحافلة بمعاني الإخلاص والاجتهاد في طلب العلم والسلام التي ارتقوها نحو الكمال. فلذا اخترت السير الذاتية من هذا البلد المبارك، وخصصته للدراسة.

والذي جعلني اختار هؤلاء الأعلام الأربعة دون غيرهم، أني لاحظت تنوعاً فكرياً وثقافياً لديهم، مثلاً: الدكتور حسن الشافعي من أشهر المتكلمين في عصرنا الحاضر، والدكتور جلال أمين تخصصه الاقتصاد وله باع طويل في الأدب العربي ومع أنه ينتمي إلى أسرة أدبية مرموقة، وأما الدكتور شوقي ضيف فهو من نقاد عصرنا الحديث، يحمل ثقافة عربية عريقة وكذلك له إلمام في أحدث النوازل الأدبية، وللدكتورة عائشة عبد الرحمن اهتمام في الدراسات الإسلامية وخاصة تفسير النص القرآني من حيث البلاغة ولها من صغرها الاعتناء على الأدب العربي كما أشرت إلى ذلك في ترجمة حياتها. كما أني لم أغفل الجنس النسائي بحيث اخترت كاتبة لها صيت واسع في محيط أدبنا العربي المعاصر.

سؤال البحث: ما خصائص فن السيرة الذاتية؛ الموضوعية والفنية في العصر الحديث في مصر خلال الثلث الأول من القرن الخامس عشر الهجري؟ وسأحاول الإجابة عن هذا السؤال من خلال دراستها عند أبرز كتاب السيرة الذاتية.

هدف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى فن السيرة الذاتية في العصر الحديث كما تهدف الدراسة إلى معرفة أسباب تطور هذا الفن، وتوضيح الخصائص الفنية المميزة للسيرة الذاتية، والوقوف على الإضافة الفنية التي أضافها هذا الفن للأدب العربي.

إطار البحث: يتناول هذا البحث السير الذاتية التي مر ذكرها في هذه الصفحات، ويعرضها بالترتيب كما هو مذكور في الخطة، وكل هذه السير كتبت في القرن الخامس عشر الهجري بمصر، وكذلك حددت لموضوع بحثي هذا الزمن.

الدراسات السابقة:

الدراسات التي تناولت فن السيرة الذاتية كالاتي:

1. فن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992 - 2002م، للباحثة: ندى

محمود مصطفى، رسالة الماجستير، نوقشت عام 2006م، في كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح الوطنية فلسطين.

2. فن السيرة الذاتية عند الدكتور يوسف القرضاوي، للباحثة في مرحلة الماجستير: فريال

عنبرين، نوقشت الرسالة في كلية اللغة العربية، سنة 2011م، بالجامعة الإسلامية العالمية، إسلام آباد.

3. فن السيرة الذاتية لسجناء ستة، (دراسة مقارنة) للباحثة في مرحلة الماجستير: رابعة

ظهير، وقد أخذت فيها ثلاث شخصيات من شبه القارة الهندية وهم: سيد علي الجيلاني، وشورش كاشميري، والدكتور نذير أحمد. وثلاث من العرب؛ الشيخ سيد قطب، والدكتور نجيب الكيلاني، وزينب الغزالي. نوقشت الرسالة في كلية اللغة العربية، سنة 2010م، بجامعة هذه...

4. السيرة الذاتية في الأدب العماني الحديث، للباحث: نصيب بن المر الصبحي،

ونوقشت الرسالة (للماجستير) بعد عام 2012م، بجامعة السلطان قابوس عمان.

5. السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني، إحسان عباس، وجبرا إبراهيم جبرا، وفدوى

طوقان نموذجاً، للباحثة: تحاني ماجد، وهي رسالة الماجستير نوقشت عام 2013م، في

كلية الآداب قسم اللغة العربية، بالجامعة الإسلامية غزة، فلسطين.

وهذه الدراسات لم تتعرض للموضوع بطريقة مباشرة، وإنما تناولت السيرة الذاتية في

شخصيات معينة دون الآخرين أو ركزت على مجال معين دون آخر، وما أنا بصددده في هذه

الدراسة يتناول بالدرجة الأولى كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي في مصر، في القرن الخامس

عشر الهجري، دراسة موضوعية فنية.

خطة البحث

فن السيرة الذاتية في مصر في القرن الخامس عشر الهجري

(دراسة موضوعية فنية من خلال نماذج مختارة)

المقدمة: سأتناول فيها الموضوعات التالية:

1. التعريف بالموضوع
2. أهمية الموضوع
3. أسباب اختياري له
4. أهداف البحث
5. سؤال البحث
6. إطار البحث
7. دراسات سابقة
8. خطة البحث

التمهيد: نشأة فن السيرة الذاتية في مصر وتطوره في العصر الحديث

الباب الأول: التعريف بالسيرة الذاتية المختارة وبكتابها

الفصل الأول: التعريف بالسيرة الذاتية المختارة

- المبحث الأول: على الجسر بين الحياة والموت للدكتورة عائشة عبدالرحمن
- المبحث الثاني: ماذا علمتني الحياة، ورحيق العمر للدكتور جلال أمين
- المبحث الثالث: معي (بجزئيته) للدكتور شوقي ضيف
- المبحث الرابع: حياتي في حكاياتي للدكتور حسن عبد اللطيف الشافعي

الفصل الثاني: حياة الكتاب من خلال سيرهم

- المبحث الأول: الدكتور عائشة عبد الرحمن
- المبحث الثاني: الدكتور جلال أمين
- المبحث الثالث: الدكتور شوقي ضيف
- المبحث الرابع: الدكتور حسن الشافعي

الباب الثاني: دراسة موضوعية للحيرة الذاتية المختارة :

الفصل الأول: الصراع والألم

الفصل الثاني: الصدق والصراحة

الفصل الثالث: الحقيقة والخيال

الباب الثالث: دراسة فنية للحيرة الذاتية المختارة :

الفصل الأول: اللغة بين السرد والحوار والوصف

الفصل الثاني: أسلوب السخرية

الفصل الثالث: دلالات الزمان والمكان

الخاتمة :

وسأذكر فيها ملخص البحث والنتائج والتوصيات التي سأتوصل إليها خلال كتابة البحث.

الفهارس :

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأحاديث النبوية
3. فهرس الأعلام والمشاهير
4. فهرس المصادر والمراجع
5. فهرس الموضوعات

التمهيد

نشأة فن السيرة الذاتية في مصر وتطوره في العصر الحديث

التمهيد

نخلة من الميرة الذاتية في عصر وتطوره في العصر الحديث

مدخل

لقد مرّ النثر العربي خلال تطوره بمراحل مختلفة؛ والأدب العربي بصورة عامة، كان مهبطاً لأجناس أدبية ظهرت قديماً في شكل من الأشكال ثم وُجد لها في العصر الحديث "عناصر فنية" أسهمت في تطورها على نحو خاص، ويعتقد بعض النقاد العرب أن بعض الأجناس الأدبية النثرية، مثل الرواية والمسرحية، والقصة القصيرة؛ إنما أخذت من الغرب⁽¹⁾. ولكن الحقيقة تقول غير ذلك، فإن من يُمعن النظر في تراثنا وأدبنا العربي القديم سيجد نماذج وأصول كثيرة من هذه الفنون الحديثة، وإن كان القدماء لم يستخدموا لها هذه المصطلحات التي عُرفت حديثاً. ولا ننكر تأثر أدبائنا العرب المحدثين في بعض عناصرها بالغرب⁽²⁾.

وتُعد السيرة الذاتية من تلك الأجناس الأدبية التي ظهرت في الأدب العربي الحديث فناً أدبياً مستقلاً يتحدث الكاتب فيها بقلمه عن مواقفه الذاتية وما مرّ به في حياته من أحوال وأهوال، فيسرد أخباره وحوادثه، ويحكي عن أعماله وآثاره، ويلقي الضوء على حوادث ووقائع حدثت له في مراحل مختلفة من حياته، وما جرى له في هذه المراحل من أحداث الفرح والفرح،

(1) منهم؛ عبد الرحمن بدوي الذي قال: "إن الكتاب في العربية الذين كتبوا في هذا الباب قليلون، وأغلبهم ليسوا عرباً خلصاً بل ينتسبون إلى الجنس الأري من فرس وموال على اختلاف أجناسهم"، (انظر كتابه: الموت والعبقريّة، مكتبة النهضة، القاهرة، 1945م، ص50).

(2) السيرة الذاتية وملاحظاتها في الأدب العربي المعاصر: سيد إبراهيم أرمس، [مقال نشر في مجلة] "فصلية دراسات الأدب المعاصر" العدد 11، المجلد 3، الخريف 1432هـ، جامعة آزاد الإسلامية، جيرومت بطهران - إيران، ص9، (بتصرف يسير).

تَعْظُمُ حيناً وتَضَعُفُ أخرى، وهي عند البعض؛ "شرك للحديث عن النفس والزهو بها وإعلاء قيمتها، ولكنها إذا اعتدلت كانت أصدق ما يكتب عن رجل وأكثر انطباقاً على حياته، لأنها ليست مجال تخمين أو افتراض، ولكنها مجال تحقيق وتثبيت، وبهذا يصح في المترجم الذاتي مضرب المثل: "قطعت جهيزة قول كل خطيب"⁽¹⁾، وقد يُسجَل فيها الوقائع والأحداث يوماً فيوماً أو بصورة متقطعة بعد أن تُجمَع عناصرها من مصادر متعددة، وقد ورد في معجم المصطلحات الأدبية: أن السيرة الذاتية "سرد متواصل يكتبه شخص ما عن حياته الماضية"⁽²⁾. ومن البدهي أن ظهور أي فن من الفنون تسبقه بعض المقدمات والعوامل، تكون ممهدة لظهوره أو باعثاً في نشأته أو في تقدمه نحو النهضة والازدهار أو فيهما معاً، وفن السيرة الذاتية من تلك الفنون التي سبق ظهورها العديد من المقدمات، وساهمت في نشأتها العديد من العوامل؛ ويمكن اعتبار الظواهر الأدبية العالمية، والتي من أهمها؛ ظاهرة التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة إحدى أهم تلك العوامل التي ساهمت في ظهور هذا الفن وتطوره.

ملامح فن السيرة الذاتية عبر العصور:

إن الاختلاف حول الزمن الذي نشأ فيه فن السيرة الذاتية كبير جداً، لدرجة أن بعض الباحثين يعدّونه من أعتق الفنون الأدبية نشأة، والفريق الآخر يرى أنه من أحدث الأجناس الأدبية، وهذا الاختلاف يرجع في الدرجة الأولى إلى الاختلاف حول مفهوم السيرة الذاتية عند كل من الفريقين، فالذين يرون أنه من أقدم الفنون الأدبية نشأة، يعدّون كل عمل نثري يتحدث فيه كاتبه عن ذاته "سيرة ذاتية". أما الذين يجعلونها من الفنون الأدبية الحديثة، فهم

(¹) التراجم والسير لمحمد عبد الغني حسن، ط1، دار المعارف، القاهرة، (ب. ت)، بتصرف يسير، ص23.

(²) معجم المصطلحات الأدبية: إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية، تونس، 1986م، ص 202.

الذين رأوا أن للسيرة الذاتية بناء خاصا، وهذا البناء الخاص لم تبدأ ملاحظه بالظهور إلا في نهاية القرن الثامن عشر.

وقد أرجع الباحثون الذين رأوا أن السيرة الذاتية من أقدم الفنون الأدبية، نشأتها إلى الحضارات القديمة التي وصلتنا آثارها. فيرى "ول ديورانت": أن السومريين ثم البابليين اعتنوا بالحديث عن أنفسهم، لكن في سياق التاريخ وليس في سياق قصصي مثل المصريين. ويرى الدكتور شوقي ضيف⁽¹⁾ أن "لعل أقدم صورة للترجمة الشخصية تلك الكلمات التي كان ينقشها القدماء على شواهد قبورهم، فيعرفون بأنفسهم، وقد يذكرون بعض أعمالهم"⁽²⁾، ثم يشير إلى اشتهاار الفراعنة بهذه النقوش، يقول: "واشتهر المصريون في عصور الفراعنة بكثرة ما نقشوا على قبورهم وأهراماتهم وفي معابدهم وهياكلهم من تواريخهم وأفعالهم. وكانت تسرى هذه الروح في الأمم القديمة من حولهم"⁽³⁾.

وإذا كان الدكتور شوقي ضيف يرى أن بذور السير الذاتية نمت في مصر ثم امتدت إلى الحضارات المجاورة، فإن ماهر حسن فهمي يرى: أن جذورها كانت متشعبة في الحضارات المصرية والبابلية والهيلينية على حد سواء، يقول: "تاريخ السيرة الذاتية هو إلى حد

(1) اسمه الكامل: أحمد شوقي عبد السلام ضيف المعروف بـ "شوقي ضيف".

(2) الترجمة الشخصية للدكتور شوقي ضيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، (ب. ت)، بتصرف يسير، ص8.

(3) قصة الحضارة: ول وإيريل ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود، ط1، دار الجيل، بيروت، (ب. ت)، الجزء الثاني من المجلد

الأول: ص111، والترجمة الشخصية للدكتور شوقي ضيف، بتصرف يسير، ص7.

كبير صورة من العقلية الإنسانية في مغامراتها من أجل البحث عن الحقيقة، ومن أجل ذلك كانت جذورها الأولى متشعبة في الحضارات القديمة، كالمصرية والبابلية والهيلينية وغيرها⁽¹⁾.

أما الذين قالوا إن السيرة الذاتية حديثة النشأة فمن أشهرهم جورج ماي⁽²⁾، الذي يؤرخ لنشأة السيرة الذاتية باعترافات جان جاك روسو (ت: 1778م) "ومن ثم أصبح مؤلف روسو رمزا لنشأة جنس أدبي جديد"⁽³⁾. وهو لا ينكر وجود اعترافات سابقة لاعترافات روسو، التي كتبها في نهاية القرن الثامن عشر، لكنه يرى أن اعترافات روسو هي النموذج الذي أصبح يحتذى في مجال السيرة الذاتية. ومن أشهر الاعترافات؛ اعترافات القديس "أوغسطين" (354-430م)، التي يرى وليم سبينج مان: أنها شكلت الإرهاصات الأولى لنشأة ثلاثة من أشكال السيرة الذاتية، وهي الأشكال التاريخية، والفلسفية، والشعرية. ويرى عبد العزيز شرف: أن "اعترافات القديس أوغسطين تستحق لقب أقدم سيرة ذاتية باقية"⁽⁴⁾.

(1) السيرة تاريخ وفن: لمار حسن فهمي، ط1، مكتبة النهضة، القاهرة، 1970م، ص225.

(2) السيرة الذاتية: لجورج ماي، المترجم: محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1999م، ص20، و34، ولم أعتز على ترجمة جورج ماي، كما لم يصف المترجمان شيئاً من هذا القبيل.

(3) سيرة العائب، سيرة الآتي - السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطف حسين لشكري المبخوت، ط1، دار الجنوب - تونس، 1992م، ص10، والسيرة وأنواعها في الأدب العربي لرقية أحمد وهند حسين، بحث لنيل شهادة البكالوريوس، قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القادسية بالعراق، نوقشت سنة 2018م، ص13.

(4) أدب السيرة الذاتية: عبد العزيز شرف. الشركة للمصرية، مصر، 1992م، ص39، وفن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992-2002م: ندى محمود مصطفى الشيب، [نوقشت الرسالة ب] كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية - نابلس، فلسطين، 2006م، ص16.

السيرة الذاتية في الأدب العربي

فن السيرة الذاتية جنس أدبي عريق في حضارتنا العربية الإسلامية وإن لم يتبلور بما يتيح له الانفراد بمصطلح نقدي خاص به، فقد صيغ على نماذج تكاد تصل به درجة الاكتمال في المضمون والغرض والأسلوب⁽¹⁾. وبذلك فالأدب العربي القديم عرف سيراً ذاتية ولكن ليس بمفهومها الاصطلاحي المعاصر ولا بمستواها الفني الحديث وإنما كانت قريبة من مبادئ ثقافية عامة ترتبط برؤية العربي قديماً لذاته وللكون والإله⁽²⁾.

وقد وقف يحيى إبراهيم عبد الدائم في دراسته للسيرة الذاتية في التراث العربي على جملة من العناصر الفنية تحققت في السيرة الذاتية العتيقة منها: الصدق والتجرد، والصراحة، وتصوير الصراع، وجلو الخط البياني لحياة الكاتب منذ مرحلة الطفولة إلى مراحل رفيعة من حوادث حياته، فضلاً عن استرجاع ماضي الحياة الشخصية بما فيها من حسنات وسيئات، استعادة موثوقة على أساس من وحدة البناء وحسن التقديم وجمال السرد وحرارة الحوار⁽³⁾.

ويمكننا أن نعدّ الأخبار الشخصية المنقولة شفها من بعض الصحابة رضوان الله عليهم؛ هي أول سير ذاتية في تاريخ الأدب العربي، ومنها؛ سيرة الصحابي الجليل سلمان

(1) انظر: النقد والحداثة، للدكتور عبد السلام المسدي، ط2، دار العهد الجديد، تونس، 1989م، ص115، والسيرة الذاتية: مفهومها وتطورها للأستاذ أحمد طه أحمد، مجلة: آداب الرافدين - العدد: 59، [تصدر من] جامعة الموصل - العراق، سنة 1432هـ/2011م، ص144.

(2) انظر: سيرة العائث، سيرة الآتي - السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطف حسين: للأستاذ شكري المبخوت، ص26.

(3) انظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: الدكتور يحيى إبراهيم عبد الدائم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1975م، ص42.

الفارسي عليه السلام⁽¹⁾، التي سرد فيها بالتفصيل سعيه الحثيث في البحث عن الحق وما لاقى في سبيل ذلك من أهوال حتى شرفه الله بالإسلام، ومنها حديث الإفك الذي ترويه أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها⁽¹⁾،

(1) وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: حَدَّثَنِي سَلْمَانَ الْفَارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثُهُ مِنْ فِيهِ، قَالَ: كُنْتُ رَحْلاً فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا: حَيٍّ، وَكَانَ أَبِي دِفْقَانُ قَرْيَتِي، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَرْجُو حُجَّتَهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، أَلَامَ النَّارِ، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَذْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ، حَتَّى كُنْتُ قَطْنَ النَّارِ الَّذِي يُوقَدُهَا، لَا يَتْرُكُهَا تَحْبُو سَاعَةً، وَكَانَتْ لِأَبِي صَبِيغَةٌ عَظِيمَةٌ، فَشَعِلَ فِي بَيْتَانِ لَهُ يَوْمًا، فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شَعِلْتُ فِي بَيْتَيْنِ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ صَبِيغَتِي، فَادْهَبْ فَاطْلُعْهَا، وَأَمْرِي فِيهَا بِبَعْضٍ مَا يُرِيدُ فَخَرَجْتُ أُرِيدُ صَبِيغَتَهُ، فَتَرَزْتُ بِكَيْسَةٍ مِنْ كَنَابِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ - وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ - فَلَمَّا مَرَزْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ، دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ، أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغَبُهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، فَقُلْتُ: هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ قَوْلًا مَا تَرَكْنَاهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ صَبِيغَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَتَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّينِ؟ فَقَالُوا: بِالشَّامِ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى أَبِي - وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلْبِي، وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ - فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، أَتَيْنَ كُنْتُ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهْدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهْدْتُ؟، فَقُلْتُ: يَا أَبَتِ، مَرَزْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَيْسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، قَوْلًا مَا زِلْتُ عَنْدهُمْ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَقَالَ: أَيُّ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، فَقُلْتُ: كَلَّا وَاللَّهِ، إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ دِينِنَا، فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رَحْلي قَيْدًا ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، وَبَعَثْتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ بُحَّارِ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ بُحَّارِ النَّصَارَى أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا خَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرِّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ فَأَذِّنُونِي بِهِمْ، فَلَمَّا أَرَادُوا الرِّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رَحْلي، ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟ فَقَالُوا: الْأَسْقَفُ فِي الْكَيْسَةِ، فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَخْبَيْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْذُكَ فِي كَيْسَتِكَ، وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ، وَأُصَلِّيَ مَعَكَ، قَالَ: فَادْخُلْ، فَدَخَلْتُ مَعَهُ، فَكَانَ رَجُلٌ سَوِيٌّ، يَأْمُرُهُم بِالصَّدَقَةِ وَيُرْعِبُهُمْ فِيهَا، فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ، أَكْثَرَهُ لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلَالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ فَأَبْغَضْتُهُ بَغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ، فَاجْتَمَعْتُ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَذْبُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلًا سَوِيًّا، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرْعِبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا، أَكْثَرَهَا لِنَفْسِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا، فَقَالُوا: وَمَا عَلَيْكَ بِذَلِكَ؟، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَنَا أَذْلكُمْ عَلَى كَرَمِهِ، فَارْتَضَهُمْ مَوْضِعًا، فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَلْؤَةً ذَهَبًا وَوَرِقًا، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَذْبُوهُ أَبَدًا، فَصَلُّوهُ، ثُمَّ رَجَعُوا بِالْحِجَارَةِ ثُمَّ جَاءُوا بِرَجُلٍ آخَرَ، فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا يُصَلِّيَ الْخُمْسَ أَرَى أَنَّهُ =

- أَفْضَلُ مِنْهُ، وَلَا أَرَاهُ فِي الدُّنْيَا، وَلَا أَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا أَذَاتُ لَيْلًا وَمَهَارًا مِنْهُ، قَالَ: فَأَخْبَيْتُهُ حُبًّا لَمْ أَجِدْ مِنْ قَبْلِهِ، وَأَقْنَسْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ خَصَرْتُهُ الْوَفَاءَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَخْبَيْتُكَ حُبًّا لَمْ أَجِدْ مِنْ قَبْلِكَ، وَقَدْ خَصَرْتُكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنِيِّ، وَاللَّهِ مَا أَغْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ، وَبَدَلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا فُلَانًا بِالْمَوْصِلِ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقُّ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ، فَقَالَ لِي: أَقُمْ عِنْدِي، فَأَقْنَسْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ، عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّ يَلْبِسُ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا خَصَرْتُهُ الْوَفَاءَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ، وَقَدْ خَصَرْتُكَ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنِيِّ، وَاللَّهِ مَا أَغْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إِلَّا فُلَانًا بِنَصِيبَيْنِ، فَالْحَقُّ بِهِ، فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نَصِيبَيْنِ، فَجِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبْرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، فَقَالَ لِي: أَقُمْ عِنْدِي، فَأَقْنَسْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِي، فَأَقْنَسْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثُ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنَّ فُلَانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنِيِّ، وَاللَّهِ مَا أَغْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إِلَّا رَجُلًا بِعُمُورِيَّةٍ، فَإِنَّهُ يَمِثِلُ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَخْبَيْتَ قَاتِلَهُ، فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِبَ، لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عُمُورِيَّةٍ، وَأَخْبَرْتُهُ خَبْرِي، فَقَالَ لِي: أَقُمْ عِنْدِي، فَأَقْنَسْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَذِي أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، وَاتَّخَسَّنْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَعِصَمَةٌ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلَانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟، فَقَالَ: أَيُّ بُنِيِّ، وَاللَّهِ مَا أَغْلَمُهُ أَصْنَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَمْرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَطْلُكَ زَمَانٌ نَبِيٌّ هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ، مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضِ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلَامَاتٌ لَا تَحْقَى: يَأْكُلُ الْهَدْيَةَ، وَلَا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَبَيْنَ كَيْفَتِهِ خَاتَمُ السُّبُورَةِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ فَافْعَلْ، قَالَ: فَلَمَّا مَاتَ وَغُيِبَ، مَكُنْتُ بِعُمُورِيَّةٍ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أُمُكَّتْ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ بُحَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأَعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغَنَمَتِي هَذِهِ؟، فَقَالُوا: نَعَمْ، فَأَعْطَيْتُهُمْوَهَا وَخَلَوْنِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى، ظَلَمُونِي، فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُودَ عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدُ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَمِئِنَّمَا أَنَا عِنْدَهُ، قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عِمٍّ لَهُ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاسْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُهَا، فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقْنَسْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ، فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لَا أَسْمَعُ لَهُ بِدُخْرِ، مَعَ مَا أَتَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقَى، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذَقٍ لِسَيِّدِي أَغْمَلُ فِيهِ بَغْضَ الْعَمَلِ، وَسَيِّدِي خَالِسٌ، إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عِمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا فُلَانُ، قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَبِيلَةٍ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الْآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِبُيَا عَلَى رَجُلٍ قَدِيمٍ عَلَيْهِمْ مِنْ مَكَّةَ الْيَوْمَ، يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُهُ أَخَذَنِي الْغَرَوَاءُ، حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْفُطُ عَلَى سَيِّدِي، فَتَزَلْتُ عَنِ النَّخْلَةِ، فَجَعَلْتُ أَقُولُ لِابْنِ عِمٍّ: مَاذَا تَقُولُ؟ -

= ماذا تقول؟، فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملي، فقلت: لا شيء، إنما أردت أن أشتيت عشا قال، فاستأذنت مولاي فقلت لها: هي لي يوما، فقالت: نعم، فانطلقت فاختطبت خطبا فبعته، فاشترت طعاما، فلما أمسيت أخذته ثم أتيت به النبي ﷺ وهو يقبأ، فدخلت عليه فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فرائيتكم أحق به من غيركم، ففرزته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: "كلوا، وأمسك هو يده فلم يأكل"، فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئا، "وتقول رسول الله ﷺ إلى المدينة"، ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، "فأكل رسول الله ﷺ منها، وأمر أصحابه فأكلوا معه"، فقلت في نفسي: هاتين اثنتين، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو يتبع العزف وقد تبع جنارة من أصحابه، عليه ثلثان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الحاتم الذي وصف لي صاحبي "فلما رأي رسول الله ﷺ استدرته، عرف أنني أشتيت في شيء وصفت لي، فألقى رداءه عن ظهره"، فطرت إلى الحاتم فعرفته، فانكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: "تحول"، فتحولت، فقصصت عليه خبري كما حدثت لك يا ابن عباس، "فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه"، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بذر وأخذ، ثم قال لي رسول الله ﷺ: "كاتب يا سلمان"، فكاتبته صاحبي على ثلاث مائة نخلة أخبها له بالفقير وأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: "أعينوا أحاكم"، فأغاروني بالخل، الرجل بثلثين ودية والرجل بعشرين، والرجل بخمسين عشرة، والرجل بعشر - يعني: الرجل بقدر ما عنده - حتى اختمعت لي ثلاث مائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: "أذهب يا سلمان فقفر لها، فإذا فرغت فأني أكون أنا أضعها بيدي"، فقمرت لها، وأعاني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئت فأخبرته، "فخرج رسول الله ﷺ معي إليها، فجعلنا نقرّب له الودي، ويضعه رسول الله ﷺ بيده"، فوالذي نفس سلمان بيده، ما مانت منها ودية واحدة، فأدّيت النخل، ونهي علي المال، "فأني رسول الله ﷺ يمل بنبضة الدجاجة من ذهب من بغض المغازي، فقال: ما فعل القارسي المكاثب؟، فدعيت له، فقال: يا سلمان، لحد هذه فأد بها ما عليك"، فقلت: وأين تقع هذه من الذي علي يا رسول الله؟، فقال: "أخذها، فإن الله - عز وجل - سيؤذي بها عنك"، قال: فأخذتها، فوالذي نفس سلمان بيده، لقد وزنت لهم منها أربعين أوقية حتى أوفيتهم منها حقهم كله وعيقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد. (الجامع الصحيح للسنن والمسند: لصهيب عبد الحار، الكتاب غير مطبوع، وهو انضم إلى المكتبة الشاملة سنة 2014م، وعدد أجزائها: 38 [يظر في 184/16])

(¹) عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله منه، قال الزهري: وكلهم حدثني طائفة من حديثها، وبعضهم أوعى من بعض، وأثبت له اقتصاصا، وقد وعيت عن كل واحد منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة، وبعض حديثهم يصدق بعضها زعموا أن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين =

- أزواجه، فأبتهن خرج سهمها، خرج بها معه، فأفرع بيضا في غزاة غزاهها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودج، وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك [ص: 174]، وقفل ودبونا من المدينة آذن ليلة بالرحيل، فقممت حين آذنوا بالرحيل، فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل، فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع أظفار قد انقطع، فرجعت، فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه، فأقبل الدين يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك حفافا لم ينقلن ولم يعشن اللحم، وإنما يأكلن العلقمة من الطعام، فلم يستنكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج، فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، فجنبت مزلم ليس فيه أحد، فأمت منزلي الذي كنت به، فظلمت أنهم سيققدوني، فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة غلطني عياني، فسمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترحاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها، فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك، وكان الذي تولى الإفاك عبد الله بن أبي سلول، فقدمنا المدينة، فاشتكت بها شهرا والناس يغيضون من قول أصحاب الإفاك، ويريني في وحيي، أي لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض، إنما يدخل فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم»، لا أشعر بشيء من ذلك حتى نهت، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع متبرزنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم غشي، فعترت في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسعين رجلا شهد دراء، فقالت: يا هنتاه، ألم تسمعي ما قالوا؟ فأخبرتني بقول أهل الإفاك، فازددت مرضا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله ﷺ، فسلم فقال: «كيف تيكم»، فقلت: ائذن لي إلى أبوي، قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فأتيت أبوي فقلت لأمي: ما يتحدث به الناس؟ فقالت: يا بنة هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضينة عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، ولقد يتحدث [ص: 175] الناس بهذا، قالت: فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكمحل بنوم، ثم أصبحت، فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي، يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة، فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود لهم، فقال أسامة: أهلك يا رسول الله، ولا تعلم والله إلا خيرا، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله، لم يصيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «يا بريرة هل رأيت فيها شيئا يريبك؟»، فقالت بريرة: لا والذي بعثك =

- بالحق، إن رأيت منها أمراً أعمصه عليها قط، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تام عن العجين، فتأتي الداجس فتأكله، فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، فقال رسول الله ﷺ: «من يعذريني من رجل بلغني أداه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي»، فقام سعد بن معاذ، فقال: يا رسول الله، أنا والله أعذر لك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا، ففعلنا فيه أمرك، فقام سعد بن عباد - وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية - فقال: كذبت لعمر الله، لا تقتله، ولا تقدر على ذلك، فقام أسيد بن حضير فقال: كذبت لعمر الله، والله لنقتله، فإنك صافق تحادل عن المنافقين، فتار الحيان الأوس، والخزرج حتى هموا، ورسول الله ﷺ على المنبر، فحفظهم حتى سكتوا، وسكت وكيبت يومى لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، فأصبح عدي أبوي، وقد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فائق كبدي، قالت: فيما هما حالسان عدي، وأنا أنكي، إذ استأذنت امرأة من الأنصار، فأذنت لها، فجلست تسكي معي، فيما نحن كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ، فجلس ولم يجلس عدي من يوم قيل في ما قيل قبلها، وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد ثم قال: «يا عائشة، فإنه يلعي عليك كذا وكذا، فإن كنت بريئة، فسبيئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستعري الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب تاب الله عليه»، فلما قصى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمي حتى ما أحس منه قطرة، وقلت لأبي: أجب عي رسول الله ﷺ، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أحيي عي رسول الله ﷺ [ص: 176] فيما قال، قالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: وأنا جارية حديثة السن، لا أقرأ كثيراً من القرآن، فقلت: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس، ووقر في أنفسكم وصدقتم به، وليس قلت لكم إني بريئة، والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك، وليس اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنني بريئة لتصدقني، والله ما أحد لي ولكم مثلاً، إلا أنا يوسف إذ قال: ﴿فَصَنِّرْ حَبِيلَ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]، ثم تحولت على فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله، ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحياً، ولأننا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري، ولكي كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في اليوم رؤيا يبرئني الله، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه الوحي، فأحذه ما كان يأحذه من البرحاء، حتى إنه ليتحدّر منه مثل الحمام من العرق في يوم شات، فلما سري عن رسول الله ﷺ وهو يصحك، فكان أول كلمة تكلم بها، أن قال لي: «يا عائشة احدي الله، فقد رأك الله»، فقالت لي أُمي: قومي إلى رسول الله ﷺ، فقلت: لا والله، لا أقوم إليه، ولا أحد إلا الله، فأمر الله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَاذِبِينَ عَذَابُهُمْ بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ﴾ الآيات، فلما أنزل الله هذا في رائي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان يفتق على مسطح بن أثانة لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيهِمْ أُولُو الْفَصْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا﴾ إلى قوله ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173] فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يعفر الله لي، فرجع إلى مسطح الذي كان يجري =

وحديث توبة كعب بن مالك رضي الله عنه، (1)

= عليه، وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «يا زينب، ما علمت ما رأيت»، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت عليها إلا خيرا، قالت: وهي التي كانت تساميني، فعصمها الله بالورع قال: وحدثنا فليح، عن هشام بن عروة، عن عروة، عن عائشة، وعبد الله بن الزبير مثله، قال: وحدثنا فليح، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن، ويحيى بن سعيد، عن القاسم بن محمد بن أبي بكر مثله. (أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ، كتاب الشهادات، 3/ 173، رقم الحديث، 2661).

(1) عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، أن عبد الله بن كعب بن مالك، وكان، قائد كعب من بني حنظلة عمي قال: سمعت كعب بن مالك، يحدث حين تخلف عن قصة تبوك، قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدنا تخلف عنها، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد غير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة، حين توثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر، أذكر في الناس منها، كان من خبري: أني لم أكس قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه، في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قلبه راحلتان قط، حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة [ص: 4] إلا وري بعيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا، ومفارا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم لينأهبوا أهبة عزوهم، فأحيرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، يريد الديوان، قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت النمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادي بي حتى اتت بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده يوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطففت فيهم، أحزني أني لا أرى إلا رجلا معموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال: وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه، ونظره في عطفه، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا، فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلا حضرتني هي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدا، واستعنت على ذلك بكل دي رأي من أهلي، فلما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أطل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أخرج منه أبدا بشيء فيه كذب، فأجعت صدقه، وأصبح =

= رسول الله ﷺ قادما، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلمون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، فجننته فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب، ثم قال: «تعال» فحنت أمشي حتى جلست بين يديه [ص:5]، فقال لي: «ما حلفك، ألم تكن قد ابعت ظهرك». فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا، ولكي والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق، تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله، ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى، ولا أيسر مني حين تخلفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك». فقمنا، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أدنيت دنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتحلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحدا؟ قالوا: نعم، رجلان، قالوا مثل ما قلت، فقبل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرا، فيهما أسوة، فمضيت حين ذكروها لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تكرت في نفسي الأرض فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يكيان، وأما أنا، فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفيعي برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال على ذلك من حفة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عينا، وتوليت حتى تسورت الجدار، قال: فبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا ببطي من أباط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك [ص:6] ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مصيبة، فالحق بنا نواسك، فقلت لما قرأتهما: وهذا أيضا من البلاء، فتميمت بها الثور فسجرت به، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول الله ﷺ رسول الله ﷺ يأتي، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها؟ أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعترلها ولا تفرها، وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقني بأهلك، فتكوني عندهم، حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله: إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربك». قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يكي منذ كان من أمره، ما كان إلى يومه هذا، =

- فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستاذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدري ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟ فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت علي نفسي، وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ، أوق على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررت ساجدا، وعرفت أن قد جاء فرج، وأذن رسول الله ﷺ تنوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قبل صاحبي مبشرون، وركض إلي رجل فرسا، وسمى ساع من أسلم، فأوقى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرن، نزعت له ثوبي، فكسوته إياهما، يبشراه والله ما أملك غيرها يومئذ، واستعرت ثوبين فلستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فلتقاني الناس فوجا فوجا، يهوني بالتوبة، يقولون: لتهلك توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حول الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهباني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال: رسول الله ﷺ، وهو يريق وجهه من السرور: «أبشر بخير [ص: 7] يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: «لا، بل من عند الله». وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه، فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أغلغ من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخير، فقلت: يا رسول الله، إن الله إنما نحاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا، ما بقيت. فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أنلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، أحسن مما أبلاني، ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذبا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لَقَدْ نَادَى اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: 117] إلى قوله ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] فوالله ما أعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبت، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا - حين أنزل الوحي - شر ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: 95] إلى قوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96]، قال كعب: وكنا نخلقنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قصى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا﴾ [التوبة: 118]. وليس الذي ذكر الله مما حلفنا عن العرو، إنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا، عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه. (أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: كتاب المعاري، 3/6، 4418)

عن تخلفه في غزوة تبوك، وقد روت كتب السنة وتراجم الصحابة هذه الأحاديث عن أبطالها بضمير المتكلم⁽¹⁾.

وفي القرن الثالث الهجري ظهرت سير ذاتية في قالب قصصي مكتوب، كسيرة حنين بن إسحاق (ت: 260هـ)، الذي يعد أول من طرق باب السيرة الذاتية في الأدب العربي، إذ تأثر برسالة جالينوس اليوناني (131 - 201م) التي صور فيها ما لقيه من محن وشدائد من بعض نظرائه وأبناء حرقته وحتى أقاربه بسبب ما ناله من حظوة عند الخليفة العباسي المتوكل (ت: 247هـ). وفي أواخر القرن الثالث الهجري ظهرت سيرة أحمد بن طولون التي كتبها أحمد بن أبي يعقوب بن يوسف الداية (ت: 334هـ)، وفي نهاية هذه السيرة سجل الكاتب سيرته الذاتية⁽²⁾، وسجل الصوفي المشهور الحارث بن أسد المحاسبي (ت: 247هـ) سيرته الذاتية في مقدمة كتابه: "الوصايا" وهي تحتوي على لمحات كثيرة من سيرته الذاتية الروحية، كما كتب الإمام أبو بكر الرازي سيرته الذاتية (ت: 313هـ)، وكذلك الحكيم الترمذي محمد بن علي بن الحسن (ت: 320هـ) الذي سجل سيرته الذاتية بعنوان: "بدء شأن"⁽³⁾.

(¹) انظر: وقد رواها جميعا ابن أبي أصيبعة في كتابه: "عيون الأساء في طبقات الأطباء"، المطبعة الوهابية، القاهرة، 1299هـ، 190/1، و309، و3/2، و91 و99، و201، وانظر: السيرة الذاتية في التراث العربي، أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: لأسامة محمد البحيري، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1439هـ، ص9، والسيرة الذاتية في الأدب الإسلامي الحديث لمريم حماد عليان الحسنيات، رسالة ماجستير، في كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بالجامعة الإسلامية بغزة، نوقشت سنة 2013م، ص25، (بتصرف يسير)

(²) انظر: العلماء الذين ترجموا لأنفسهم [جزء مخصص لـ] "السيرة الذاتية": لبكر بن عبد الله أبو زيد، ط1، دار مطابع الهلال، الرياض، 1405هـ، ص28.

(³) ختم الأولياء لأبي عبد الله محمد بن علي المعروف بـ"الحكيم الترمذي"، تحقيق: عثمان يحيى، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965م، ص9 وما بعدها، وكذلك: ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي، تحرير: دؤيت راينولدز، ترجمة: سعيد الغانمي، ط1، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2009م، ص169. وكذلك بتحقيق: محمد خالد مسعود، نقلا عن: -

تطور فن السيرة الذاتية عبر القرون: شهد القرن الخامس الهجري تطوراً ملحوظاً في فن السيرة الذاتية حيث ظهرت أنواع من السير الذاتية عني أصحابها بتسجيل الوقائع والأحداث المختلفة التي مرّوا بها في حياتهم وقد مال البعض إلى الإيجاز فظهرت سيرهم الذاتية في صورة رسالة صغيرة مستقلة⁽¹⁾، أو ضمنها مقدمة أحد كتبه ومؤلفاته⁽²⁾، أو إلحقها بنهاية الكتاب⁽³⁾. في حين آثر الآخرون الإطناب وأفردوا كتباً مستقلة لسيرهم الذاتية⁽⁴⁾.

-
- = مصادر السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم: لصالح معيض العامدي، مجلة علامات، النادي الأدبي بجدة، مارس-1993م، ص45، والسيرة الذاتية في التراث العربي، أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: لأسامة نَجْد الحيري: ص11. والوصايا للصوفي المشهور الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبدالقادر عطا، مطبعة صبيح، القاهرة، 1965م، ص24.
- (¹) منها: سيرة ابن سينا (ت: 428هـ)، وابن الهيثم (ت: 440هـ)، وعلي بن رضوان (ت: 460هـ)، وعبد اللطيف البغدادي (ت: 629هـ)، انظر: السيرة الذاتية في التراث العربي، أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: لأسامة نَجْد الحيري، ص9، والسيرة الذاتية في الأدب الإسلامي الحديث لمريم حماد عليان الحسنات، ص25، (بتصرف يسير)، والقصص الإسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين: للمحقق أحمد حافظ حكيم، المطابع الأهلية، الرياض، 1976م، 183/1-190.
- (²) مثل مقدمة كتاب "إفحام اليهود" للسؤال بن يحيى المغربي (ت: 570هـ)، تحقيق: عبد الوهاب طويلة، ط1، الدار الشامية، بيروت، 1410هـ، ص11، والسيرة الذاتية في التراث العربي - أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: ص11.
- (³) مثل ترجمة ياقوت الحموي (ت: 626هـ) في كتابه: "معجم الأدباء"، وترجمة أبي شامة المقدسي (ت: 665هـ) في كتابه: "الروضتين في أخبار الدولتين"، وترجمة لسان الدين بن الخطيب (ت: 776هـ) في كتابه: "الإحاطة في أخبار غرناطة"، وترجمة ابن حجر العسقلاني (ت: 852هـ) في كتابه: "رفع الإصر عن قضاة مصر"، وترجمة الإمام السخاوي (ت: 902هـ) في كتابه: "الضوء اللامع في أعلام القرن التاسع"، وترجمة الإمام السيوطي (ت: 911هـ) في كتابه: "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، وبشرت مستقلة بعنوان: "التحدث بنعمة الله". (انظر: السيرة الذاتية في التراث العربي، أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: لأسامة نَجْد الحيري: ص9-10).
- (⁴) مثل كتاب "المنقذ من الضلال" لأبي حامد الغزالي (ت: 505هـ)، و"النكت العصرية في أحوال الوزارة المصرية" لعمارة بن علي الحكيم اليمني (ت: 569هـ)، وهو سيرة ذاتية له، وكتاب "الاعتبار" سيرة ذاتية لأسامة بن منقذ (ت: 584هـ)، وابن الجوزي (ت: 597هـ) ترجم لنفسه في كتابه "لغة الكبد"، وابن سعيد المغربي (ت: 685هـ) ترجم لنفسه في كتابه: "المغرب في حلى المغرب"، وأبو حيان الأندلسي (ت: 748هـ)، ترجم لنفسه في كتابه: "التُّصَار في التُّسْلَاة عَنْ -

لا يُتوقع من الأدب العربي القديم أن يعرض لنا سيرة ذاتية تحمل ملامح السيرة الذاتية الحديثة وسماتها، لأن لكل عصر أدبي ملامحه وسماته الخاصة، كما أن الأجناس الأدبية في تطور مستمر. لذلك فنحن نعدّ الكتابات الذاتية في التراث العربي أصولاً أو جذوراً للسيرة الذاتية، لا سيرة ذاتية. ومن الجدير بالذكر أننا عندما نتحدث عن السيرة الذاتية بمفهومها الحديث، فإننا لن نجد نموذجاً تاماً لها في أي أدب عالمي قديم، للأسباب التي منعت وجود مثل هذا النموذج في الأدب العربي القديم.

ومنذ منتصف القرن الخامس الهجري ظهرت كتب مستقلة وكاملة في فن السيرة الذاتية مثل: "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي⁽¹⁾، ومذكرات الأمير عبد الله بن بُلُقَيْن⁽²⁾ آخر ملوك بني زيري بغرناطة، بعنوان: "التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري

=نُصار"، وغيرهم كثير كالثعالبي وابن الجزري والشوكاني والآلوسي. (يظر: السيرة الذاتية في الأدب الإسلامي الحديث ص25، وفدوى طوقان- نقد الذات قراءة السيرة: ريم العيسوي، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1998م، ص61).

(¹) ولد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي بقرطبة عام 384م، أحد أئمة الإسلام، كانت الفرقة "الحزمية" منتسبة إليه في الأندلس، وكانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة وتدير المملكة، وانصرف إلى العلم والتأليف، فكان من صدور الباحثين فقيها حافظاً يستنتج الأحكام من الكتاب والسنة، بعيداً عن المصاحبة، وانتقد كثيراً من العلماء والفقهاء، فتمالأوا على بغضه، وأجمعوا على تصليله وحذروا سلاطينهم من فتنه، ونهوا عوامهم عن الدخول معه، فأقصته الملوك وطاردته فرحل إلى بادية ثبلّة، فتوفي بها سنة 456هـ. وترك بعض المؤلفات، منها: جبهة الأنساب، وجوامع السيرة، والمفاضلة بين الصحابة. (انظر: الأعلام لحبر الدين الزركلي، ط3، دار العلم للملايين - بيروت 1984م، 254/4-255).

(²) ولد الأمير عبد الله بن بلقين/ ملكين بن ناديس الصنهاجي سنة 447هـ بغرناطة، تولى تربيته من بعض علماء وشيوخ مدينته بغرناطة، وكان قد حار حظاً واهراً في البلاغة والمعرفة، وقد قرض شعراً، كما عرف بحسن الخط. تولى الحكم سنة 465هـ، ويعتبر الأمير عبد الله الحاكم الثالث والأخير لإمارة غرناطة، وكان الأمير منذ ولايته صبيّاً، لم يقارب سس الحكم، وانفرد بتدبير ملكه الوزير يمامة الصنهاجي مدة تسع سنين، وكان يمامة حارماً، شديد السطوة، جوداً شجاعاً، فاضلاً، أدار =

في غرناطة"، و"المنقذ من الضلال" سيرة أبي حامد الغزالي (ت: 505هـ)⁽¹⁾. وتتابع الأمر في القرون التالية فظهرت في مستهل القرن التاسع سيرة العلامة المغربي عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808هـ) التي كتبها تحت عنوان: "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"، وهي كما يظهر من العنوان، مزيج من أدب السيرة الذاتية وأدب الرحلة⁽²⁾. وسيرة الصوفي عبد الوهاب بن علي الشعراني (ت: 973هـ) في كتابه: "لطائف المنن والأخلاق"، هذا بالإضافة إلى سير كل من الإمام فخر الدين الرازي، ولسان الدين بن الخطيب، والإمام السخاوي، والإمام السيوطي، وغيرها من السير الذاتية الكثيرة⁽³⁾.

فن السيرة الذاتية في العصر الحديث: إن أول من أرسى قواعد فن السيرة الذاتية في العصر الحديث هو الأديب الفرنسي الشهير جان جاك روسو معلنا ريادته له عام 1769م حين صدور سيرته الذاتية بعنوان: "اعترافات جان جاك روسو". ثم تبعه زمرة من الأدباء والشعراء في أوروبا فاهتموا بإخراج سيرهم الذاتية وضمنوها الأحداث والوقائع التي مروا بها في حياتهم الشخصية⁽⁴⁾.

= أمور غرناطة ولم يزل يدبر أمر عبد الله إلى أن بلغ الحلم. وقضى في الحكم حوالي عشر سنوات، إلى أن خلعه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام 483هـ، ونقل عبد الله إلى المراكش، وسه يوم حلع خمس وثلاثون وسبعة أشهر، فاستقر بها هو وأخوه تميم، وحل اعتقاهما، فتوفي بها سنة 488هـ. (انظر: كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني رزي في عرناطة لأبى عبد الله بن بلقين، حرره: الدكتور علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2006م، ص247-249).

⁽¹⁾ انظر: المنقذ من الضلال للإمام الغزالي، تحقيق سعد الفقي، ط1، دار المنهاج، جدة، 2013م.

⁽²⁾ انظر: ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي: دؤيت راينولدز، ص354.

⁽³⁾ انظر: معجم المصطلحات الأدبية، ص202، وترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي: دؤيت راينولدز، ص366.

⁽⁴⁾ انظر: نحات في أدب السيرة الذاتية، الحد والمفهوم: للدكتور أحمد علي آل مريع: [مقال نشر في] جريدة الرياض، العدد: 14519، الثلاثاء 17 ربيع الأول 1429هـ - 25 مارس 2008م.

لقد مرّت بنا نماذج من السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم التي كانت تدور في إطار معين لا يتجاوز سرد الأحداث والوقائع التي تقلب فيها صاحب السيرة، إذ كان الأمر يقتصر على سرد بعض أهم الأحداث والوقائع، أما السيرة الذاتية بمفهومها الحديث وملاحمها وسماتها وأدواتها الحديثة فقد أخذناها من الغرب.

وقد تمثلت أول سيرة ذاتية في الأدب العربي الحديث بمفهومها الحديث في كتاب "الساق على الساق في ما هو الفارياق" لأحمد فارس الشدياق (ت: 1887م) الذي صدر في باريس عام 1855م، وقد حمّله كثيرا من سيرته بالإضافة إلى ملاحظات لغوية اهتم بإيرادها أحمد فارس.

وسرعان ما اتجه لفيف من أدبائنا العرب إلى هذا الفن الأدبي الحديث يضيرون فيه بسهمهم فكتب الأديب المصري عبد الرحمن شكري (ت: 1958م) كتابه "الاعترافات" على غرار اعترافات جان جاك روسو ونشره عام 1916م في مطبعة بالإسكندرية. ولكن يبقى لعميد الأدب العربي الدكتور طه حسين⁽¹⁾ ريادة من صنف آخر فهو يعتبر الأب الروحي لهذا الفن في الأدب الحديث وذلك حينما صدر الجزء الأول من كتابه "الأيام"

(1) هو "عمد الأدب العربي"، ولد عام 1889م، في محافظة المنيا، فقد بصره وعمره ثلاث سنوات، وحفظ القرآن الكريم بكتاب قرينه وهو ابن سبع سنين، انتقل عام 1902م ليكمل تعليمه في مجال الدراسة الدينية بالأزهر، ثم التحق بالجامعة المصرية، ودرس فيها الحضارة الإسلامية والفلسفة والأدب، وعمل على إعداد رسالته في الدكتوراه، ليكون أول طالب يحصل على هذه الدرجة من الجامعة، ثم سافر إلى فرنسا ودرس في جامعة السوربون بباريس وحصل منها على درجة الدكتوراه الثانية. وعمل أستاذا للأدب العربي في الجامعة المصرية، ثم عين عميدا لكلية الآداب فيها، ثم رئيسا لجامعة الإسكندرية، كما عمل في وزارة المعارف المصرية، ومن مؤلفاته: الأيام، وفي الشعر الجاهلي، وتحديد ذكرى أبي العلاء المعري، وتوفي 1973م. (انظر: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، لكامل سلمان الجموي، ط1، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 2002م، 250/3).

عام 1926م وبعده الجزء الثاني الذي صدر عام 1939م، ونشر الجزء الثالث في عام 1972م تقريبا، وهي أشهر سيرة ذاتية في الأدب العربي المعاصر.

ولعل هذا النجاح الذي حققه كتاب "الأيام" دفع كثيرا من الأدباء لتسجيل أحداث حياتهم ونقل تجربتهم إلى الأجيال المقبلة، ولعلي أكون مصيبا في أن كتابة السيرة الذاتية تأتي من باب التحدث بنعم الله، ونقل تجارب مهمة عاصرها صاحب السيرة إضافة إلى تسجيل آرائه ونظراته إلى الحياة التي عاشها في مجتمعه ... ولشدة ذبوع هذا الفن وانتشاره في العامة والخاصة والأثر الذي يتركه في نفوس القراء فقد انجذب واستهوى هذا الفن من غير الأدباء كثيرا من الوزراء والولاة والعسكريين والساسة والأطباء والتجار والفنانين والمربين.

وامتد هذا الفن فكتب الأديب الشهير إبراهيم عبد القادر المازني سيرته الذاتية بعنوان: "إبراهيم الكاتب" عام 1931م، وتلاه الأديب المصري المعروف أحمد أمين فكتب سيرته الذاتية بعنوان: "حياتي" ونشرها عام 1950م، وجاء بعده الأستاذ سهيل إدريس ونشر روايته "الحي اللاتيني" عام 1953م⁽¹⁾، التي يحكي فيها قصة حياته ... وسرعان ما انتشر هذا الفن في البلاد العربية المختلفة، فوجدنا الأديب والناقد المهجري ميخائيل نعيمة يحكي سيرته الذاتية في ثلاثة أجزاء حملت عنوان "سبعون"، أصدر الجزء الأول عام 1959م⁽²⁾، والثاني والثالث في عام 1960م، ويتناول في كل جزء منها مرحلة من مراحل حياته، وتبعه الأستاذ لطفي السيد فكتب "قصة حياتي" عام 1962م، وكتب الأستاذ عباس محمود العقاد عن

(1) انظر: إبراهيم الكاتب لإبراهيم عبد القادر المازني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، وحياتي لأحمد أمين، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (ب.ت)، والحي اللاتيني لسهيل إدريس، ط: 1، دار الآداب، بيروت، 1953م.

(2) صدرت المراحل الثلاثة من دار نوفل للنشر، بيروت. (انظر: ميخائيل نعيمة كما عرفته: للباحثة الدكتورة ماريا نيكولايفا، (Mara Nikolajeva)، [نشر المقال في] المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت - لبنان، 2013م).

مواقف مختلفة من حياته في مقالات متفرقة ونشرها في كل من مجلة "الهلال" و"الفصول"، وقد جمعت هذه المقالات في كتاب بعنوان: "أنا" الذي نُشر عام 1964م بعد وفاته بشهور⁽¹⁾. كما كتب الأستاذ توفيق الحكيم "سجن العمر" عام 1967م، أما الدكتور زكي نجيب محمود فقد كتب عن حياته ونشرها في ثلاثة مؤلفات، وهي؛ "قصة نفس" نُشر عام 1965م، و"قصة عقل" ظهر عام 1983م، و"حصاد السنين" صدر عام 1991م⁽²⁾، ثم ألقت الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن سيرتها الذاتية بعنوان: على الجسر بين الحياة والموت، ونشرتها عام 1977م ... وكتب الأستاذ الدكتور شوقي ضيف سيرته الذاتية في جزئين؛ نشر الجزء الأول بعنوان: معي، عام 1985م، ونشر الجزء الثاني المعنون بـ"معي، ذكريات ومشاهدات"، عام 2003م. وكان قد ألف كتابا في فن السيرة الذاتية بعنوان: "الترجمة الشخصية" عام 1956م، وكذلك كتبت الشاعرة الفلسطينية الشهيرة فدوى طوقان سيرتها التي كانت تحمل عنوان: "رحلة جبلية ... رحلة صعبة" ونشرت عام 1985م، وكذلك تناول الأديب الفلسطيني الشهير جبرا إبراهيم جبرا سيرته الذاتية ونشرها بعنوان: "البئر الأولى" عام 1993م⁽³⁾ ... كما روت الشاعرة العراقية نازك الملائكة سيرتها الذاتية التي ظهرت بعنوان

(¹) انظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث للدكتور يحيى إبراهيم عبد الدائم، ص215، وقد جمعها الكاتب الصحفي طاهر الطناحي بعد موافقة العقاد نفسه، (انظر: الأدب وفنونه: دراسة ونقد للدكتور عر الدين إسماعيل، ط9، [مريدة ومسقة]، دار الفكر العربي، القاهرة، 2013م، ص158).

(²) صدرت الأسفار الثلاثة من دار الشروق، بالقاهرة، ولها طبعات جديدة أخرى أيضا في الأعوام التالية.

(³) انظر: البئر الأولى لجبرا إبراهيم جبرا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993، وقراءات لصقر أبو فخر [مقال نشر في] مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد7، العدد25، شتاء 1996م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية (والمقال على الموقع www.palestine-studies.org) ولمحات في أدب السيرة الذاتية، الحد والمفهوم، أحمد علي آل مريع: [مقال نشر في] جريدة الرياض، العدد: 14519، الثلاثاء 17 ربيع الأول 1429هـ - 25 مارس 2008م.

"صفحات من حياة نازك الملائكة" عام 1994م، ويُخرج الروائي الشهير والأديب المعروف إحسان عبد القدوس سيرته الذاتية بعنوان: "غربة الراعي" سنة 1996م، وكتب المفكر المغربي محمد عابد الجابري سيرته بعنوان: "حفريات في الذاكرة" ونشرها في عام 1997م.

الباب الأول

التعريف بالسير الذاتية المختارة وبكتابها

الفصل الأول

التعريف بالسير الذاتية المختارة

[يحتوي على أربعة مباحث]

- المبحث الأول: على الجسر بين الحياة والموت للدكتورة عائشة عبدالرحمن
- المبحث الثاني: ماذا علمتني الحياة، ورحيق العمر للدكتور جلال أمين
- المبحث الثالث: معي (بجزئيته) للدكتور شوقي ضيف
- المبحث الرابع: حياتي في حكاياتي للدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي

الفصل الأول

التعريف بالسير الذاتية المختارة

مدخل:

خصصتُ هذا الفصل للتعريف بالسير الذاتية المختارة التي هي محل الدراسة في هذه الرسالة العلمية، وهو مقسم على أربعة مباحث، تناولت في المبحث الأول كتاب: "على الجسر بين الحياة والموت" للدكتورة عائشة عبد الرحمن، وفي المبحث الثاني تحدثت عن كتابين للدكتور جلال أمين: "ماذا علمتني الحياة" و"رحيق العمر"، أما المبحث الثالث فقد خصصته للحديث عن كتاب "معي" بجزئيه للدكتور شوقي ضيف، أما المبحث الرابع فقد عرفت فيه إلى كتاب؛ "حياتي في حكاياتي". ولخصت مباحث هذه الكتب في صفحات قد تطول أو تقصر حسب طول الكتاب وعرضه وقصره.

المبحث الأول

تعريف بسيرة الدكتورة عائشة عبدالرحمن

على الجسر بين الحياة والموت

نتعرف في هذا المبحث على كتاب "على الجسر بين الحياة والموت" وهو عبارة عن سيرة ذاتية سجلتها الدكتورة عائشة عبدالرحمن⁽¹⁾ الشهيرة بـ "بنت الشاطئ"⁽²⁾. نتحدث فيه الكاتبة عن المرور بالجسر الذي خطته بنت الشاطئ بين الحياة والموت، وهو جسر لا يمكن عبوره دون أن نستحضر شخصية الأستاذ أمين الحولي⁽³⁾ أستاذها وزوجها في الوقت نفسه، ويستشعر القارئ لهذه السيرة الذاتية مدى الحزن الذي يطبق على الكاتبة لأنها تتناول تلك

(1) خصصت مبحثاً لترجمتها المفصلة؛ انظر من ص 90.

(2) وهو اسم مستعار اشتهرت الأدبية بكتابة مقالاتها به، نسبة إلى حياتها الأولى في قرية «شبراخيم» بمحافظة المنوفية على شاطئ النيل. (على الجسر بين الحياة والموت، للدكتورة عائشة عبدالرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م، ص 102).

(3) ولد الأستاذ أمين الحولي أول مايو سنة 1895م في قرية شوشاي في ريف المنوفية بمصر، دخل مدرسة لافيسوني، ثم المحروسة في القاهرة، وحفظ القرآن الكريم وهو في العاشرة من عمره، وتخرج في مدرسة القضاء الشرعي، وعين بها أستاذاً، ثم إماماً في السفارة المصرية بروما ثم في برلين، وفي عام 1927م عاد مرة أخرى إلى وظيفته في القضاء الشرعي، فأصبح رئيساً ثم وكيلاً لقسم اللغة العربية، بكلية الآداب، وله باع طويل في أعمال مختلفة، وأسس جماعة الأسماء عام 1944م، وأصدر مجلة الآداب 1956م، وكان عضواً بمجمع الخالدين "بجمع اللغة العربية"، ونُفي مع سعد زغلول إلى جزيرة سيناء (بقرب الصومال ومدغشقر). وتزوج من الدكتورة عائشة عبد الرحمن وأنجبت له ثلاثة أبناء، وتوفي يوم الأربعاء 9 من مارس عام 1966م، ودفن بقرنته، ومن مؤلفاته: المجددون في الإسلام، والبلاغة العربية، والأزهر في القرن العشرين، ومن القول وغيرها. (انظر: على الجسر بين الحياة والموت، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، وموسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر المحجري في العالم العربي والإسلامي من 1301 إلى 1417هـ، لإبراهيم عبد الله الحازمي، ط: 1، دار الشريعة الرياض، 1419هـ، 978/2، ومعجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طبع منها أو حقق بعد وفاتهم لمحمد حير رمضان يوسف، ط: 1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2004م، 110/1).

الأيام الجميلة التي قضتها في كنف رفيق دربها وأنيس وحشتها، وكأنها بصدد كتابة رثاء نثري وليست بصدد كتابة سيرة ذاتية لأهم محطات حياتها. تبدأ الكاتبة سرد أحداث حياتها وحياة من يحيط بها من أفراد عائلتها قبل أن تفتح عينها على هذا العالم، وتلتقي بأستاذها الشيخ أمين الخولي الذي أثر فيها تأثيراً كبيراً، ثم لم تلبث أن تزوجته، وتستمر في حكي هذه الأحداث التي عاشتها في صحبة زوجها قبل أن تخطفه يد المنية ويتغير كل شيء في حياتها. فإذا ما كان بالأمس حلواً أصبح مرّاً، وما كان بالبارحة سعادة أضحى شقاوة، واكفهرت الحياة في وجهها، وكأنها فقدت ما كانت تعيش من أجله، لأنها كانت تعتقد أنها ما جاءت إلى هذا العالم ولم تكبر، ولم تتثقف ما تثقفته من العلوم والآداب إلا لتعيش بجانبه، ولما وصلت في سيرتها الذاتية إلى ذكر وفاة هذا الزوج الذي أخلص لها وأخلصت له عنونت هذه الفاجعة بـ "ثم مضى ... وبقيت" وكان حديثها يشي بالحزن الثقيل الذي أرخى عليها سدوله القاتمة بعد رحيله، فلم تذق طعماً للعيش.

ووقفت عند هذا الحد فلم تضيف شيئاً إلى قصتها فكأنها لا ترى للحياة معنى بدونه، كما قالت: "ومضى العمر كله وما كففت عن التساؤل: أ كان يمكن أن أضل طريقي إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟ ... قبل أن أبدأ رحلة الحياة"⁽¹⁾.

تسوق الكاتبة من بداية السيرة ذكريات عاشتها مع زوجها الأستاذ أمين الخولي، وتذكره بحرقة، فقد شرعت بسرد أحداث حياتها معه، رغم أنه لم يدخل حياتها إلا بعد أن شبت عن الطوق وقطعت شوطاً من حياتها، كأنها مسرحية تبدأ من الحوادث الأخيرة، فهي واقفة على "الجسر" تتذكر زوجها المتوفى وأمامها "الموت" ينتظرها، فليست لها رغبة في الحياة

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص173، (بتصرف بسيط).

بعد رحيله، كما أنها تشعر به في كل منظر تقع عليه عينها. وفي كل ما تسمعه من أصوات "على الجسر، ما بين الحياة والموت، أقف حائرة ضائعة في أثر الذي رحل...، وأميز أنفاسه الطيبة الزكية، في كل ذرة من هواء أتنفسه... وأصغي إلى نجواه: في الصمت وفي الضجيج، في سكون الخلوة وفي صحب الزحام"⁽¹⁾. ولبثت في هذه التخيلات برهة، وتذكرت جل ما حدث لها معه في حياتها الدافئة. وأسمنت الفصل التالي: "قبل أن نلتقي"، فسجلت في بدايته خواطرها بعد وفاة زوجها، وبدأتها بفكرة الفراق:

"على دربين متباعدين،

بدأت خطواتنا من قبل أن نلتقي،

ولم يكن هناك أي احتمال للقاء...

فأحد الدربين يمضي بمعزل عن الآخر...

دون أن تبدو بينهما على مد الأفق نقطة اتصال

لا في الحقيقة والواقع،

ولا في أحلام اليقظة ورؤى المنام.

تباعدا ما بيننا زمانا،

وتباعدا بيننا كذلك المكان...

وحين بدأت أخطو على دربي،

كان هو قد قطع شوطا طويلا في طريق لا يحتمل أن أطرقه"⁽²⁾.

(¹) على الجسر بين الحياة والموت، ص7، (بتصرف يسير).

(²) المصدر نفسه.

ولم تكن عندها فكرة عنه في ذلك الزمان البعيد حتى على سبيل التصور أو الوهم، وكانت تتساءل كيف بدأ حياته؟ أ لم يفكر فيها؟ والكاتبة تتساءل مرات "كيف سارث بي الحياة قبل أن ألقاه؟"، وهل هناك ثمن لتلك الحياة بدونها؟ ثم تنطلق وتسجل أحداث طفولتها وتبحث عنه في ذكرياتها وتتساءل إن كان موجودا في ذكريات طفولتها⁽¹⁾.

بدأت الكاتبة سيرتها الذاتية قبل ولادتها، فتحدثت عن بداية حياة والدها ودراسته وفصلت فيها القول، ثم وصفت قريتها الأصلية "شبراخيم"⁽²⁾، من ريف المنوفية⁽³⁾، وذكرت أثر أسلافها الذين كان لهم دور بارز في تاريخها وتنقيفها، ثم ذكرت صورا من حياتها التي قضتها في بيت جدها لأنها على شاطئ النيل.

وهذه السيرة مع صغر حجمها، تحتوي على معظم أحداث حياة الكاتبة، وقد اكتنزت بالأحداث المختلفة مما جعلني أعود إليها مرات ومرات كي أفهمها حق الفهم وأربط الحلقات بعضها ببعض.

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص13، و15.

(2) شبراخيم إحدى قرى التابعة لمحافظة المنوفية في مصر، وتذكر بألف المقصورة (شبراخيم) وبها ثلاث حوامع بمنارات وعدة ساتين وثلاث عصارات لقصب السكر، وأكثر زراعتها قصب السكر. بلغ عدد سكان شبراخيم 20,968 نسمة، حسب الإحصاء الرسمي لعام 2006م. (الخطط التوفيقية الحديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: لعلي باشا مبارك، ط1، المطبعة الأميرية بولاق مصر، 1306هـ، 117/12).

(3) محافظة المنوفية، تقع شمال العاصمة المصرية القاهرة في جنوب دلتا النيل، احتلت محافظة المنوفية المرتبة الحادية عشرة عام 2006م في ترتيب المحافظات المصرية، وعاصمتها مدينة شبين الكوم، تعد جامعة المنوفية إحدى أهم المؤسسات التعليمية بالمحافظة، وقد تم إنشاؤها بقرار جمهوري عام 1976م. (انظر: الخطط التوفيقية لعلي مبارك ص84-90، وكذلك اطلعت - تاريخ: 24 يناير 2018م - على المعلومات عن: جامعة المنوفية/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/المنوفية>).

كذلك عبّرت الكاتبة الأردنية الدكتورة هدى قزح⁽¹⁾ عن هذه السيرة في مقالة لها، إذ تقول: "فهذه السيرة ... بدت موشحة بعاطفة حزن وحيرة تأسر القارئ وتجعله يتعايش معها وكأنه يحياها، أو يتمنى أن يحياها. وأول ما يقف القارئ على أعتابه هو عنوان هذه السيرة المكتنز بالدلالات، فالجسر هو محطة كان لابد أن تعبرها صاحبة هذه السيرة لتصل إلى من أتلفت روحها في روحه، وحن حمامة قبل حمامها، ولم يبق من حُبها له غير كتابة تبقّيها مُسمّرة على جسرها، فلا هي في الحياة ولا في الموت، وإنما هي معلقة بروح من غيّبه الموت واقعًا وبقي حاضرًا في ذهنها، وهي تمنى بشاعرية تطغى على كل ممكن البقاء مع أمين الخولي بعد موته، وهذا لا يكون إلا باتصال عجيب في عالم الأرواح المحبة، أو بالموت الذي قد يلحقها به أو لنقل يجعلهما في عالم واحد"⁽²⁾

لقد كتبت بنت الشاطي هذه السيرة بعد وفاة زوجها أمين الخولي، ومن الطبيعي أنها كانت تشعر بمرارة الفقد وبأس الفراق. وقد أقبلت على تسجيل أثر الفقد على نفسها، لا تسجيل حياتها بمراحلها المتعددة، فالقارئ لهذه السيرة لا يخرج إلا بالقليل عن حياة الدكتورة بنت الشاطي على حين يخرج بكثير من العاطفة والحب لشخص أمين الخولي وأثره في حياتها.

١٧٨٥٤٩١

(١) ولدت الدكتورة هدى قزح في 23 يناير 1985م بعمان، وهي باحثة وأديبة أردنية، حصلت على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها من الجامعة الهاشمية الأردنية سنة 2012م، ودرّست في نفس الجامعة فترة، وكذلك في جامعات أخرى، وهي صاحبة مؤلفات وبحوث ومقالات عديدة، منها: "أثر العقاد في سيد قطب ومنهجه"، و"تأملات في السيرة الذاتية لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي"، و"شوقي صيف ودراسة الأدب العربي"، و"قراءة في كتاب مصادر الشعر وقيمتها التاريخية لناصر الدين الأسد"، ولها مشاركات فعالة في منتدى على الشبكة العنكبوتية بعنوان: "ديوان العرب ... منر حر للثقافة والفكر والأدب". (اطلعت عليه بتاريخ 12 سبتمبر 2017م: <https://sites.google.com/site/hudaqazza>).

(٢) تأملات في السيرة الذاتية لعائشة عبد الرحمن بنت الشاطي للدكتورة هدى قزح، [مقال نشر على الشبكة العنكبوتية] (اطلعت عليه بتاريخ 10 يونيو 2018م، <https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/240048.html>).

ويكفي المرور العابر بعناوين فصول جسرها، لنذكر الحقيقة التي نراها في الكتاب، وهي جاءت كما يلي: "على الجسر، قبل أن نلتقي، في الطريق إليه، في منطقة الضباب، ظلال.. وأضواء، موعدي معه، اللقاء، معا... على دربنا الواحد، ثم مضى وبقيت، دنيانا بعده، كلمات للذكرى، عود على بدء"⁽¹⁾.

لقد بدأت سيرتها الذاتية ببيان حياتها قبل لقاء أمين الخولي، وهي مراحل بدت عادية جدًا تصف حياتها الأسرية، وتعليمها الديني ... وأبرز ما يلاحظ على وصفها، حياتها البسيطة، وتشدد والدها وحرصه على تقاليد معينة، ومحاولة بنت الشاطئ تجاوز هذه التقاليد ما استطاعت إلى ذلك سبيلا في سبيل تحصيل العلم والنهوض بالفكر والثقافة.

إذن عاشت عائشة حياتها تبحث عن الشيخ أمين الخولي الذي صار منذ اللقاء الأول معلمها وأستاذها ونصفها الآخر الذي "تجلت فيه آية الله الذي خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجَها"⁽²⁾، وأمضت حياتها الباقية تتساءل: "أ كان يمكن أن أضل طريقي إليه، فأعبر رحلة الحياة دون أن ألقاه؟ وحتى آخر العمر، لم يتخل عني إيماني بأني ما سرت على دربي خطوة واحدة إلا لكي ألقاه.. وما كان يمكن أن أchied عن الطريق إليه، وقد عرفته في عالم المثل ومجالي الرؤى وفلك الأرواح من قبل أن أبدأ رحلة الحياة"⁽³⁾. وتستكمل خواطرها فتقول: "على دربين متباعدين،

.....

وليست لدي أدنى فكرة عنه،

(¹) يمكن لنا أن نطلع على العناوين في قائمة الموضوعات - من الكتاب نفسه - في ص 206.

(²) اقتبست العبارة؛ من سورة النساء: آية رقم: 1، (وكذلك للمراجعة: على الجسر بين الحياة والموت، ص 172-173)

(³) على الجسر بين الحياة والموت، ص 173.

ولو على سبيل التصور أو الوهم...
وهناك،

على دربه البعيد عن مهد مولدي،
وقبل أن أخرج إلى الدنيا ...
كان هو قد بدأ يقيم بناء حياته
دون أن يخطر بباله احتمال لتغيير جوهري أو تبديل وتعديل.
ودون أن يتمهل في انتظار ما لم يكن يتوقع
وهكذا بدأنا:

تفصلنا آماذ وأبعاد،
كل في طريقه وعلى دربه...
لا يدري عن الآخر شيئاً من قريب أو بعيد.
ولعل أحدهما لو سئل عن الثاني، لهر رأسه متسائلاً في حيرة وعجب
من يكون؟⁽¹⁾

ولا أغالي إن قلت إن ما سجلته بنت الشاطئ يميز سيرتها بطابع قلماً نجده في سير
غيرها من النساء، فهي ظهرت بمظهر المرأة المحبة لزوجها حباً يملأ عليها حياتها، ولم يكن
أساس هذه العلاقة البعد الروحي فقط، وإنما أخذ بُعد العلاقة العقلية جانباً آخر لا يمكن
الاستهانة به. وتقول: "كنتُ أتمنى لو توقف الزمن، ليظل الأستاذ يتكلم، وأنا أصغي
وأتعلم"⁽²⁾.

(¹) على الجسر بين الحياة والموت، ص 16.

(²) المصدر السابق، ص 161.

المبحث الثاني

تعريف بسيرة الدكتور جلال أمين

سأعرض في هذا المبحث السيرة الذاتية للدكتور جلال أمين، التي سجلها في جزئين مختلفين، وفي زمنين متباعدين، فالجزء الأول كتبه في أكثر من عشرين سنة على فترات متباعدة، وأخذ يرتبه عندما كان يدرّس في إحدى جامعات لوس أنجلوس⁽¹⁾، فلم يكن هناك عمل لديه سوى تحضير محاضراته، وكان لديه من هدوء البال وقلة المشاغل ما يلائم الجلوس لاستعادة ذكريات قديمة، فاستغل هذه الفرصة، وأخذ يسجل الحوادث التي يعتبرها مهمة، ويكتب عن الأشخاص الذين عرفهم في حياته.

وبعد إكماله الجزء الأول من سيرته الذاتية، بعنوان: "ماذا علمتني الحياة؟"، أعاد النظر فيه، وقرأه من زوايا مختلفة، وكان يقارن بين النفع الذي يأتي من ذكر الحقيقة كاملة وبين الألم الذي قد يُحدثه ذكرها، فوجد في معظم الأحيان أن حذف اسم الشخص الذي قد يؤلمه ما كتب عنه، أو إدخال تغييرات طفيفة على الظروف التي تم فيها الحدث الذي وصفه، لا يترتب عليه أي ضرر على الإطلاق، وأن القصة إذا كان لها مغزى، فلن يقلل من قيمتها ما إذا كان مرتكب الجرم هذا الشخص أو غيره، أو أن يكون طبيبا بدلا من أن يكون مهندسا، أو

(1) لوس أنجلوس (Los Angeles)، اسم للمدينة مأخوذ من اللغة الإسبانية؛ بمعنى "الملائكة"، هي أكبر مدن ولاية كاليفورنيا، تقع جنوب غرب الولاية على المحيط الهادي بالولايات المتحدة الأمريكية، وهي ثاني أكثر مدن الولايات المتحدة اكتظاظا بالسكان، وهي مقر المقاطعة التي تحمل نفس الاسم وتبلغ مساحتها 1290.6 كم، تعتبر المدينة إحدى أهم المراكز الثقافية، والاقتصادية، والعلمية في الولايات المتحدة. استنادا إلى الإحصائية الرسمية لعدد سكان الولايات المتحدة الأمريكية لعام 2000م، وكان عدد السكان بما لمدينة لوس أنجلوس 3.69 مليون نسمة. (اطلعت عليه بتاريخ: 16 مارس 2017، [لوس/أنجلوس/https://ar.wikipedia.org/wiki/لوس_أنجلوس](https://ar.wikipedia.org/wiki/لوس_أنجلوس)).

غير ذلك. وصرّح بذكر الأسماء الحقيقية لبعض الأشخاص الذين يُوجه إليهم النقد في هذا الكتاب، حتى لو كان نقدا قاسيا، إذا كانوا شخصيات عامة، تاريخهم ملك للناس جميعا، كبعض السياسيين المصريين الذين كان له معهم قصة أو قصص لا يعلمها غيره.

وكتب بأخّرة كتابا سماه "رحيق العمر" تناول فيه بعض الأحداث التي لم يسجلها في كتاب "ماذا علمتني الحياة"، وفصل الحديث عن أحداث كتبها باختصار هناك.

والسيرة الذاتية للدكتور جلال أمين؛ التي سجلها في هذين السفرين؛ "ماذا علمتني الحياة؟" و"رحيق العمر"، وفي كل جزء منهما معلومات مختلفة عن حياته، منذ ميلاده إلى لحظة كتابته لسيرته الذاتية، فالجزء الثاني ليس تكملة للجزء الأول، وإنما يشتمل كل جزء على حوادث وقعت في مراحل مختلفة من حياته.

الجزء الأول ماذا علمتني الحياة؟: قسمه الدكتور إلى تسعة عشر فصلا، ووضع لكل فصل عنوانا يدل على فحواه، ثم قسم كل فصل إلى أجزاء مختلفة يتناول في كل جزء أمورا تتعلق بموضوع الفصل. فعلى سبيل المثال: عندما بدأ بفصل معنون بـ"مباهج الصبا"، قسمه إلى ستة أجزاء، يصف في الجزء الأول قراءاته في مجالات مختلفة قام بها في سن مبكرة، وتأثره في ذلك الزمان ببعض الكتاب والأدباء والشعراء؛ مثل: محمود شاكِر، وطه حسين، والشاعر الهندي الشهير طاغور وغيرهم، أما الجزء الثاني فخصصه جلال أمين للحديث عن إبداعاته الأولى ونشرها في الصحف، كما تحدث عن إخراجة لمجلة أدبية لم تدم طويلا، ويتعلق الجزء الثالث بأخبار الحرب العالمية الثانية، وأثرها على المؤلف والعالم بأسره، وتطرق إلى ذكر الأهوال التي عاش فيها الناس في تلك الحقبة من الزمن، والجزء الرابع تناول فيه السينما والأفلام والأوبرا والمسارح والمسلسلات ودورها في حياة الناس، وحكى لنا في الجزء الخامس عن حبه وشغفه بالموسيقى، وتعلمه له على يد معلم إيطالي، وتأثره بصوت أم كلثوم ومُحمّد عبد الوهاب. وفي

الجزء السادس حكى لنا الدكتور جلال أمين قصة حبه الأول، وتفاصيل هذا الحب، ومحبوته وجمالها وحبه لها وشعوره نحوها⁽¹⁾.

والفصل الأول من كتابه "ماذا علمتني الحياة" يتناول فيه قصة ولادته، التي كانت تكرر على مسامع جميع من في البيت وقد سُمّي هذا الفصل بـ "ولادة متعسرة". وخصص الفصل الثاني والثالث والرابع للحديث عن أسرته والديه⁽²⁾ اللتين تختلفان في المال والجاه، واستفاد في ذلك مما سجله والده أحمد أمين عن أسرته، ولم ينشره في سيرته الذاتية "حياتي" لسبب ما. وأعطى الفصل الخامس عنوان "الإخوة السبعة"، وتحدث فيه عن حياة إخوته وأخواته التعليمية وتناول عاداتهم وميولهم وسلوكهم وعلاقاتهم فيما بينهم، ومعاملاتهم مع الآخرين، والوظائف التي تقلدوها، وزواجهم وغير ذلك. وعنون الفصل السادس بـ "أصدقاء الصبا"، وشرعه بقصة دراسة والده أحمد أمين وتقلباته في مدارس عصره، كما بيّن رأي أبيه وجده في

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة للدكتور جلال أمين، دار الشروق ط: 1، الرياض، 2007م، ص 77-104.

(2) (والده) هو الكاتب الشهير الأديب المفكر أحمد أمين، ولد بالقاهرة في غرة أكتوبر 1886م، شرع في تعليمه في الكتاب حتى وصل إلى الأزهر حيث نال شهادة القضاء سنة 1911م، ثم عين أستاذا في مدرسة القضاء الشرعي، ثم مدرسا بكلية الآداب بجامعة القاهرة، وترقى في مناصب التدريس المختلفة حتى صار عميدا لكلية. وأسس مع بعض زملائه "لجنة التأليف والترجمة والنشر" وأشرف عليه ثلاثين عاما، ومن مؤلفات: فيض الخاطر، وفجر الإسلام، وضحي الإسلام، وظهر الإسلام، وزعماء الإصلاح في العصر الحديث، وحياتي، ومبادئ الفلسفة، وانتقل إلى جوار ربه سنة 1954م. (حياتي لأحمد أمين، ص 19، ومعجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، 101/1، والترجمة التحضيرية: الدكتور شوقي صيب، ط 4، دار المعارف، القاهرة، (ب ت) ص 113-119)

(والدته) ولدت زينب البقلي - أم الأستاذ جلال أمين - سنة 1896م براوية البقلي، في أسرة مرموقة كان حدها محمد علي باشا البقلي (ت: 1876م) صاحب مؤلفات بارعة في الطب والجراحة، لم تدرس زينب البقلي كثيرا لكن علمت القراءة والكتابة، وتوفي أبوها حين كانت صغيرة، فانتقلت إلى بيت خالها، وتزوج منها الأستاذ أحمد أمين في إبريل سنة 1916م، وأنحست له الأولاد والسات، وعاشت مع قرينها أربعين ربيعا، وماتت 22 مايو سنة 1959م. (انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 25، و 29، ورحيق العمر للدكتور جلال أمين، ط 1، دار الشروق، الرياض، 2010م، ص 24).

المدارس المختلفة التي يتعلم فيها الأولاد، وأخيرا أبدى رأيه في اختيار المدارس النموذجية ونوعية التعليم الذي تقدمه. كما تحدث عن أصدقائه الذين درسوا معه في مختلف المدارس والمراحل التعليمية، وكيف صاروا بعد مضي عشرات السنين؟⁽¹⁾.

وتحدث في الفصل الثامن عن دراسته الجامعية (من 1951 إلى 1955م) التي قضاها طالبا في كلية الحقوق، بجامعة القاهرة. فيصف جامعته حينئذ بعد عقود من الزمان، وماذا مر به وبزملائه، ويصف المدرج الذي كان يدرس فيه، ويتكلم عن المقاعد التي كان يجلس عليها التلاميذ، ويقارن بينها وبين الجامعات الإنجليزية والأمريكية، ويسخر من الجامعات التي في بلاد الشرق. وينظر إليها نظرة إشفاق ورحمة. ثم تكلم عن المحاضرات التي كانت تقدم وينظر إلى بعضها نظرة استخفاف، وإلى بعضها نظرة تبجيل وتقدير. ثم يتحدث عن بعض الأساتذة في طبيعتهم وملابسهم ومظهرهم ومستواهم العلمي، وأخذ يمدح بعضهم؛ مثل: الشيخ علي الخفيف، والشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ عبد الوهاب خلاف، ويستطرد في مدح أو ذم بعضهم، كما تحدث عن المواد التي كانت تدرس في الكلية ومستواها العلمي والوظيفي، فنجدته يعترض أحيانا على بعض المواد وضرورتها في التخصص أو غيرها، ثم تكلم عن المظاهرات والثورات في نفس الفترة الجامعية بمصر⁽²⁾.

والفصل التاسع يتحدث فيه المؤلف عن "حزب البعث"⁽³⁾ الذي تعرف عليه خلال سنوات الجامعة لأول مرة. حدث ذلك عن طريق مجموعة من الطلاب العرب، الذين كانوا

(1) ماذا علمتني الحياة: ص 65-75.

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 105-128.

(3) يُعرف حزب البعث؛ بأنه حزب علماني قومي، يدعو لصهر القيم العربية والمفاهيم السائدة وتحويلها من التبعية إلى الاشتراكية، وقد نشر منطلقاته الفكرية تحت شعار: "أمة عربية واحدة، ذات رسالة خالدة". والبعثي هو من ينتمي لحزب البعث العربي الاشتراكي ويؤمن بمبادئ الحرب، وحاصل على العضوية الحزبية بعد أن أتم المراحل التالية: المؤيد، والنصير،=

يدرسون في الجامعة من الأردن وسوريا ولبنان، وتأثره بأفكار ميشيل عفلق⁽¹⁾ التي كان يكتبها وينشرها في المجلات، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح عضواً في الحزب لمدة قصيرة (1954-1958م)، ثم تحدث عن تأثره بالأفكار الماركسية، وتنكره الشديد لدعوات وشعارات البعث الاشتراكي، كما قدم استقالته من عضويته في الحزب بعد ذهابه إلى لندن⁽²⁾.

وقسم المؤلف الفصل العاشر إلى خمسة أجزاء: وفي الجزء الأول تكلم عن سفره إلى لندن للحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، وذكر ما سمعه من أبيه عن تعلم لغة أجنبية في وقت مبكر، فقد كان الأستاذ أحمد أمين يعتقد؛ أن من تعلم لغة أجنبية صارت له عينان

= والمتقدم، والعضو المتدرب. يرفض العتي كل معاهيم التبعية والطائفية والمذهبية والإقليمية وغيرها، وأهدافه؛ أولاً: الوحدة: تُشير إلى الغاية الكبرى التي هي توحيد كل دول الوطن العربي، ثانياً: الحرية: تُشير إلى تحرير كافة البلدان العربية من التبعية الاستعمارية للدول الأوروبية، ثالثاً: الاشتراكية: تعني القضاء على الرأسمالية ... كما تعي حكم الشعب لنفسه، وأسس ميشيل عفلق (ت: 1989م)، وصار له الأمين العام، وذلك في سنة 1947م، وقد عمل الحزب على رفض التدخل الاستعماري في شؤون الدول العربية. (اطلعت عليه في 27 يونيو سنة 2018م: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>).

(1) ولد الأستاذ ميشيل عفلق (Michel Aflaq) سنة 1910م بدمشق، تلقى تعليمه في المدارس الفرنسية في سوريا الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. في ذلك الوقت لمع ميشيل على مقاعد الدراسة وانتقل إلى باريس لينتسق بجامعة السوربون حيث تبلورت أفكاره الحزبية. وبعد رجوعه إلى سوريا عام 1933م، عيّن مدرّساً في مدرسة التجهيز الأولى بدمشق، وكان له قلم أدبي، به كتب القصص القصيرة والقصائد ونشرها، ولم يلبث في هذا المجال كثيراً حتى انصرف عنه منهمكاً نحو السياسة والوحدة العربية والقومية، وسجل فيها أفكاره، فتأثر بها عدد من الشباب القوميين المتحمسين من طلبة المدارس والجامعات الذين انتظمهم موقف قومي واحد، وعقيدة تورية جديدة، صارت جماعة سياسية منتظمة أسست حزب البعث العربي الاشتراكي سنة 1941م، وهو حزب علماني لاديني، حكم العراق فترة ومازال يحكم أتباعه سوريا. وقاوم ميشيل في نجاح الحزب ليلاً ومهاراً إلى أن توفي سنة 1989م، في العراق ودُفن بها. (في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة، معركة المصير الواحد [بدون معلومات الطبع والدار والتاريخ]: ح2 ص1-7، وموسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين للدكتور خليل أحمد خليل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والبحوث، بيروت - لبنان، 2001م، ج1 ص846، ودليل الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: لأحمد علاونة، ط:1، دار المنارة حدة، 1998م، ص214-215).

(2) ماداً علمتني الحياة: ص128-139.

في عالم الفكر والمعرفة، وفي الجزء الثاني والثالث؛ قدم لنا تفاصيل دراسته في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وذكر آراء وأفكارًا في مجالات العلم والفكر لعدد من الأساتذة المتخصصين في الاقتصاد في مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وذكر رسالة الدكتوراه التي كانت بعنوان: "مشاكل الغذاء وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية في مصر" ونشرها في ربيع لندن⁽¹⁾، ويبدو من حديث المؤلف أنه لم يكن مقتنعا بكثير من الآراء التي بثها في هذه الأطروحة العلمية. وفي الرابع؛ يتحدث عن سفره إلى برلين لزيارة أخيه أحمد⁽²⁾، ونراه يذكر ما رآه هناك من النظامين الرأسمالي والاشتراكي، ويقارن بينهما، كما يذكر جولاته في الجانبين الشرقي والغربي، وقد أعجب كثيرا بنظامها ومعاملة موظفيها في كل هيئة حكومية، وفي الجزء الخامس؛ تكلم عن حبه الحقيقي الأول وزواجه من تلك المرأة⁽³⁾.

وقسم الفصل الحادي عشر إلى موضوعات عديدة، لم يشر إليها بعنوان ما، لكن كان يضع بضعة نجوم بعد نهاية الفقرة التي ينتهي بها الموضوع؛ ومن الموضوعات التي تناولها الأستاذ جلال في هذا الفصل؛ أن والديه ما كانا يفكران في السياسة، ولم يكن لهما أي اهتمام بها، فلا يتابعان الأخبار ولا الراديو، ولا حتى يتكلمان عنها، أو عن أبطالها. وقد أثر ذلك في الأولاد؛ فلم يهتموا بالسياسة في حياتهم إلا صاحبنا فقد مال إليها قليلا، وكان يميل إلى فكر السياسيين والوزراء من منطلق الاقتصاد والمعيشة في البلد. وتحدث في هذا الفصل عن "ثورة يوليو 23 سنة 1952م"، كما تحدث عن رجوعه من بعثته في إنجلترا، ولقائه بعض موظفي

(¹) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 156.

(²) توفي أحمد سنة 1990م، في حوالي الثالثة والستين من عمره، كان قد كتب بعض المسرحيات لكن دون أن يحقق له الشهرة التي كان يتمناها كمؤلف مسرحي. (ماذا علمتني الحياة: ص 351).

(³) اسمها جان كانت تدرس في مدرسة للاقتصاد والعلوم السياسية بلندن، فالتقت بجلال أمين عدة مرات، فعرض عليها الزواج فقبلت، فتزوجها. (انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 141-169).

"المباحث العامة"، وتحدث عن وظيفة التدريس، والمواد التي درّسها، وعن تأليفه كتابه (مقدمة إلى الاشتراكية) الذي كتبه أثناء تدريسه لنفس المادة، وفي الموضوعات التالية تحدث عن السياسة في مصر⁽¹⁾.

وفي الفصل الثاني عشر تحدث عن وظيفته في جامعة عين شمس⁽²⁾، وأشار إلى عمله في مجلس الدولة فور تخرجه من المرحلة الجامعية، ثم تكلم عن طبائع الأساتذة المختلفة فيها، محبوبه لديه أو مكروهه، وكذلك سجل ما كان يدور وقت الامتحانات العامة في الجامعة، ويصف ما بداخلها، كما يفصل القول في تسهيل طرق الغش المتاحة لدى الطلبة والطالبات في الهيئات التعليمية بمصر⁽³⁾.

وبدأ المؤلف الفصل الثالث عشر بسرد أحداث أربع سنوات عاشها في الكويت، وذلك بعد اشتراكه في "مؤتمر الاقتصاديين العرب بالكويت"، وإلقائه تعليقا فيه عن التخطيط الاقتصادي في البلاد العربية، وكانت هذه أول زيارة له إلى الكويت. وكانت الكويت في تلك الأيام تتمتع بجاذبية شديدة لبقية العرب بمن فيهم المثقفون الكبار، الذين ذهبوا إليها للعمل. وكان المؤتمر الذي ذهب إليه الأستاذ جلال أمين جيد الإعداد، وأنفق عليه بسخاء فحضره عدد كبير جدا من صفوف المثقفين والجامعيين العرب⁽⁴⁾.

(¹) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 171-209.

(2) جامعة عين شمس تعتبر أقدم ثالث جامعة مصرية، تأسست في يوليو 1950م تحت اسم "جامعة إبراهيم باشا"، وبعد ثورة 23 يوليو 1952، اقترح أن تكون أسماء الجامعات المصرية لها جذور ومعالم تاريخية من البلاد. هكذا في 21 فبراير 1954 تغير اسم الجامعة إلى "هليوبولس"، وبعد ذلك تغير في نفس السنة إلى اسمها الحالي "عين شمس"، وتتضمن الجامعة

15 كلية ومعهدين عاليين. (اطلع عليه تاريخ 4 ديسمبر 2019م <https://ar.wikipedia.org/wiki/>)

(³) انظر: المصدر السابق: ص 211-235.

(⁴) انظر: المصدر السابق: ص 237-259.

وفي الفصل الرابع عشر فصل القول عن جامعة لوس أنجلوس، وعن عمله بها، وأشار إلى بعض المؤلفات التي نشرها خلال هذه الفترة. وفي الفصل الخامس عشر تحدث عن تدريسه لبعض المواد في الجامعة الأمريكية بالقاهرة. وعن حبه الشديد لمهنة التدريس⁽¹⁾. وتحدث في الفصل السادس عشر عما أعقب توقيع أنور السادات⁽²⁾ الاتفاقية المعروفة باسم "اتفاقية السلام" مع إسرائيل في مارس 1979م من أحداث، ويذكر شيوع كلمة "السلام" على ألسنة الناس وأولياء الأمر إثر هذه الاتفاقية "اتفاقية السلام" في كل عمل جديد يعمل به المصريون منذ ذلك اليوم، فعلى سبيل المثال؛ وُصف رئيس الجمهورية آنذاك بـ "بطل السلام" وأحيانا "بطل الحرب والسلام"، كما أُعلن عن أن ترعة جديدة ستشق لتوصيل مياه النيل إلى سيناء، وأطلق عليها "ترعة السلام"، وفي امتحان المرحلة الابتدائية الذي شارك فيه أكثر من 600 ألف تلميذ وتلميذة على طول البلاد سنة 1980م، كانت أربعة أسئلة

(1) انظر: المصدر السابق : ص 261 و 275 و 291.

(2) ولد في 25 ديسمبر عام 1918م، بـ «ميت أبو الكوم»، محافظة المنوفية - مصر. تلقى تعليمه الأول في كتاب القرية، ثم انتقل إلى مدرسة الأقباط الابتدائية. وفي عام 1935م التحق بالمدرسة الحربية، وتخرج في الكلية الحربية عام 1938م صاعداً برتبة ملازم ثان، ونقل عدة مناصب كبرى، واعتقل أكثر من مرة بسبب نشاطه السياسي، وأخرج من الجيش لفترة، وعين وزيرا للدولة 1954م، فسكرتيراً عاما للاتحاد القومي 1959م، ثم انتخب رئيسا لمجلس الأمة 1960م، ثم عين نائبا لرئيس الجمهورية، وعضوا بمجلس الرئاسة 1964م، انتخب رئيسا للجمهورية بعد وفاة جمال عبدالناصر 1970م، وأصدر الدستور الدائم الذي يصر على سيادة القانون، وفي سبتمبر 1976م انتخب رئيسا لفترة رئاسة ثانية، وأجريت المفاوضات بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية بشأن تحقيق السلام في الشرق الأوسط، وفي نوفمبر 1977م قام بزيارته الشهيرة للقدس، التي أعقبتها بدء المفاوضات المصرية الإسرائيلية التي شاركت فيها أمريكا، والتي أدت إلى نتائج هامة وهي حصوله على جائزة نوبل للسلام 1978م، ثم اعتيل في يوم 6 أكتوبر 1981م أثناء عرض عسكري احتفالاً بانتصارات حرب أكتوبر. وترك السادات بعض المؤلفات أبرزها: "البحث عن الذات"، و"يا ولدي هذا عمك جمال"، و"ثورة على النيل" وغيرها. (الموسوعة العربية الميسرة: لمجموعة من الأساتذة، إشراف: نخب شعبي غربال، دار نغمة بيروت، 1987م، ص 1767).

تتعلق بـ"السلام" من بين عشرة أسئلة. ثم تحدث في هذا الفصل أيضاً عن مؤلفاته ومقالاته التي نشرت في مجلات مختلفة، وخص بالذكر من بين تلك المؤلفات كتابه المشهور؛ "ماذا حدث للمصريين؟"⁽¹⁾.

وفي الفصل السابع عشر تحدث عن بيت أبيه، وما جرى له مع والديه في حياته، كما تحدث عن الطقوس الدينية لهما، وأشار إلى حياتهما في قضية الدين ووعيه. ثم تحدث عن: "التراثيين الجدد"، الذين لديهم أفكار جديدة، وميولهم إلى حفظ التراث وتقديسه، وإن وجه أحد سهامه إلى التراث أو شعار من شعائر الإسلام، فكان يواجهه، ويتصدى له ويدافع عن الدين بالفكر السليم والأدلة الساطعة، وإن وقع أحد من الإسلاميين في فخ من كتاب العلمانيين والماركسيين ممن يعتبرون حرية الفنان والأديب مقدسة، ولكنهم لا يعتبرون الدين كذلك. فالمؤلف الدكتور جلال أمين يُظهر دوره لامعا ساطعا في هذا المجال، ولا يدع لهم أية فرصة للسخرية والاستهزاء⁽²⁾.

وفي الفصل الثامن عشر تحدث حديثا عاما عن "المرض والشيخوخة"، وعن الطب والأطباء، والشعور نحوهما عند الجيل الماضي، فيذكر المؤلف رأي والدته فيهما إذ لم تكن تحب الأطباء، ولم تذهب في حياتهما إلى طبيب وما استدعته أو استدعى لها، وفكرة المستشفى أبعد بكثير من هذا، الذي كان في نظرهم مجرد خطوة نحو الموت، ويندر من وجهة نظرهم إذا دخله شخص أن يعود إلى منزله. والمؤلف أيضا يستخف بالطب والأطباء، ويذكر تجربته معهما عندما مرض، وطال مرضه هذا إلى سنتين، وأخيرا اكتشف أنه ليس مريضا، بل يعاني من اكتئاب بسيط للغاية، يقول: "عندما أستعيد ذكرياتي مع الأطباء، خطوة بخطوة، منذ أول

(¹) ماذا علمتني الحياة: ص 293-301.

(²) انظر: المصدر السابق: ص 303-319، و 321-332.

عهدي بهم حتى الآن، تدهشني كثرة عدد من ارتكبوا أخطاء جسيمة في حقي"⁽¹⁾. وذكر أكثر من قصة وقعت معه شخصيا أو مع أحد أشقائه، وأن في كل مرة خسر المريض ونفع الطبيب ماليا وخسر وفشل في نفس اللحظة علميا وعقليا، والأطباء كلهم في الهم شرق: من كان وطنيا أو أجنبيا⁽²⁾.

وقسم الفصل الأخير وهو التاسع عشر وعنوانه: "البدايات والنهايات" إلى بضعة عشر جزءًا وبدأ وعنوان الجزء الأول؛ بـ"نجاح الحياة"، وتكلم فيه عن حياة أبيه ونجاحه أو فشله كما يرى المؤلف بنظرته هو إلى حياة أبيه. فأبوه يعتبر نفسه ناجحا في حياته، وذكر ذلك في سيرته الذاتية "حياتي" قائلا: "في أكثر ما زاولت من أعمال: فيما ألقت من كتب وفي عملي بلجنة التأليف في الجامعة الشعبية وفي الجامعة المصرية، وفي الجامعة العربية وفي عمادة كلية الآداب، كذلك كان الشأن في حياتي العملية والأدبية والمالية والعائلية؛ نعم من الله لا أستطيع أن أقوم بالشكر عليها"⁽³⁾.

وخصص الجزء الثالث للحديث عن أمه التي كانت تطمح إلى أن تكون لها سطوة ونفوذ على زوجها، وكانت دوما تفكر بأن يكون لها منزل تشتريه بخُرّ مالها، وقد نجحت في ذلك بعد أن أخذت تدخر قرشا قرشا حتى استطاعت أن تحقق رغبتها، ثم أخذت تطالب زوجها بدفع الإيجار مقابل عيشه معها في منزلها، وكانت امرأة مشاكسة لا تني تُظهر تفوقها

(¹) ماذا علمتني الحياة: ص 324.

(²) انظر: المصدر السابق: ص 321-332.

(³) حياتي لأحمد أمين، ص 243، وماذا علمتني الحياة: ص 333.

عليه، وقد علقت لوحة فوق سريرها مكتوبا عليها ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾⁽¹⁾، وكانت تردد هذه الآية إثر كل معركة تنتهي بانتصارها على خصمها اللدود⁽²⁾

وفي الجزء نفسه يتحدث المؤلف عن "عيد الكريسماس"، الذي ظل يحتفل به هو وزوجته منذ أكثر من أربعين سنة في بيتهم بالمعادي، فكان يدعو له الإخوة والأخوات وأولادهم، ويقدم لهم الحلوى ووليمة فاخرة، ويُزينون "شجرة الكريسماس" ويقدم لها الأطفال بعض الهدايا مُغلّفةً منصوبا عليها بعبارات مشوقة وبكلمات الحب والود.

وتحدث في الجزء الرابع عن أخيه "مُحمّد" وأسرته وأولاده وما جرى لهم في الحياة من مواقف وظروف. وفي الجزء الخامس تحدث عن أخيه "عبد الحميد" وحياته وحياة أولاده وما جرى لهم من حوادث مختلفة في الحياة⁽³⁾. والجزء السادس خصصه للحديث عن حوادث الطلاق في أسرته في الأجيال الثلاثة التي مرت على المؤلف، جيل والديه وجيله هو وجيل أولاده، ففي الجيل الأول كان الطلاق أمرا مستحيلا، وأبعد ما يكون عن التصور، وفي الثاني كانت نسبته قريبة إلى الربع من بين الثمانية من الإخوة والأخوات، وفي الثالث وصل إلى النصف.

وفي السابع يرى المؤلف أن الجيل الأحدث الذي هو دون العشرين لا نفع فيهم، فهم لا يصلحون لشيء يعود عليهم أو على مجتمعهم بالخير. ولا يأخذون أنفسهم بالجد فإذا أرادوا العلم اتجهوا إلى "كورسات خاصة ودورات قصيرة" وإذا أرادوا العمل بحثوا عن "مشروعات مختصرة" تدر عليهم المال الغزير. ويحلمون بالسفر إلى بلاد أجنبية نائية والعمل هناك،

(1) سورة آل عمران، آية رقم: 160.

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 333-339.

(3) انظر: المصدر السابق: ص 339-351.

والذي لا يتسنى له السفر إلى الخارج يفضل أن يعمل في شركات أوروبية، وهم لاهون عما يدور حولهم من الأحوال والأهوال ويملاؤون أوقاتهم بالتفاهات مثل: استماعهم لموسيقى صاخبة فترات طويلة. والقيام بأمور تكدر عيش الآخرين وتذهب بأمنهم وراحتهم⁽¹⁾.

وفي الجزء الثامن تناول ثورة 23 يوليو 1952م، التي تمخضت عن تحول نظام الحكم في مصر من النظام الملكي للنظام الجمهوري. وفي الجزء التاسع رجع المؤلف إلى بداية حياته في مصر بعد زواجه من جان، وكيف اتفقا على نظام معين في المعيشة، وفي الجزء العاشر ذكر رغبته في أن يصبح أستاذا في جامعة لندن التي درس فيها، لكنه لم ينجح، وغضب جدا من عدم تعيينه لأسباب بينها، وفي الجزء الحادي عشر ذكر شغفه الشديد بتحقيق متعه وهواياته كقراءة الكتب ومشاهدة الأفلام والتمتع بالذهاب إلى المسرح والسينما والاستماع إلى الموسيقى.

رحيق العمر: هذا الكتاب هو الآخر ألفه الدكتور جلال أمين ليتناول فيه ما تبقى من حوادث وظروف مرّ بها في حياته، ويمكن أن نعتبره جزءا ثانيا من كتاب "ماذا علمتني الحياة؟" فهو استكمال له، ولكن ليس بمعنى أنه يبدأ من حيث ينتهي الأول، بل هو كتاب مستقل، وقد يجد القارئ فيه حادثة مرّ ذكرها في الكتاب الأول، ولكن لأمر ما يتناولها الأستاذ جلال أمين هنا بأسلوب آخر وزاوية أخرى.

قسم الأستاذ جلال أمين سيرته الذاتية الثانية: "رحيق العمر" إلى اثنين وعشرين فصلا، وعنوان كل فصل يلخص ما يتضمنه، ووضع لكل فصل رقما وجاء الفصل الأول، تحت عنوان: "الجراح والطبّاخ" ويتحدث فيه عن أمه ونسبها وأسرتها المرموقة بزاوية البقلي، ويصف أخلاق أمه وطبعها الحادّ، وأنها كانت تفضل نفسها على زوجها؛ لأنها من أسرة عريقة، ولأن

(1) انظر: المصدر السابق : ص352-360.

جدّها كان طبيبا ماهرا وجراحا شهيرا في المنطقة، في حين لم تكن أسرة زوجها تتمتع بهذه العراقة والمكانة العليا في المجتمع، وترى أنه لا يميزه سوى الكتابة والتأليف. والغريب - حسب ما يقول الدكتور جلال - أنه لما تزوجها الأستاذ أحمد أمين لم تكن تملك شيئا من المال والجاه، ولم يخف منها الأستاذ أحمد أمين شيئا عن أصله ونسبه المتواضع، ولم يعرف الأستاذ جلال أمين طوال حياته سبب التصاق صفة (الطباخ) باسم أحد أجداده، هل كان طبّاخا حقا أو التصقت الكلمة باسمه لسبب ما⁽¹⁾.

وقسم الفصل الثاني - وهو بعنوان: "أمي وأولادها" - إلى ثلاثة أجزاء، والجزء الأول يتعلّق بحياة أمه واهتماماتها وترتيب أولوياتها ومستوى تعليمها ونظام حياتها اليومية، وأسلوبها في الحديث، والزيّ الذي ترتديه، وطبيعة علاقتها بزوجها وأولادها. وكم كانت تحتاط نحو أولادها في السفر والحضر، وكانت دائما تراقب أولادها في الطريق والشارع والحديقة والبحر، وكانت تقلق عندما يتأخر أحدهم في الليل، وكل هذه الأعمال والاحتياطات هدفها الحفاظ على حياتهم، وكذلك كانت تهتم كثيرا بأن تقدم لهم طعاما صحيا وشهيا ومن أرفع وأحسن الأنواع. وفي الجزء الثاني تحدث عن "الحسد" ودوره في ذلك المجتمع، فالأم دائما تخاف من الحسد والحاسدين فإن دخل شخص أجنبي إلى البيت فيذهب به إلى ناحية بعيدة عن الأولاد، كي لا يعرف من في البيت. ومثال ذلك قصة كانت تتردد في بيته إلى فترة طويلة، وهي أن مصلح "بابور الجاز"⁽²⁾، دخل البيت لإصلاحه، وعندما لمح الأولاد - وكلهم جالسون إلى المائدة - : سأل أمهم سؤالا فظيحا: "هل كل هؤلاء أولادك؟" كان السؤال فظيحا في نظر أمهم - وكانت تعتقد بأن معناه المؤكد "الحسد"، وما كانت تريد أن تؤذيهم من "عين الحسود" -

(1) انظر: رحيق العمر: ص 23-31.

(2) موقد يعمل بالكبروسين.

فأجابت بطريقة تلقائيا بالنفي، وأشارت إلى حافظ - أخي الدكتور جلال - قائلة: "لا، هذا الولد أمه طليانية!"⁽¹⁾، هذا مثال من أمثلة كثيرة يدل على شدة حرص الأم من عين الحسود. وفي الجزء الأخير تحدث عن الأيام الأخيرة من حياة أمه التي تدهورت صحتها وخاصة بعد موت زوجها الأستاذ أحمد أمين، فصارت تشعر بالوحدة، وأخيرا انتقلت إلى جوار ربها سنة 1959م، بعد خمس سنوات من وفاة الأستاذ أحمد أمين⁽²⁾.

والفصل الثالث عنونه الأستاذ جلال أمين: "أبي وأولاده"، وقسمه إلى سبعة أجزاء، وفي كل جزء تناول موضوعا، فالجزء الأول تناول عادات أبيه وطبيعته وتعامله مع زوجته وأولاده، وعلاجه للمشاكل الأسرية المختلفة، وفي الجزء الثاني والثالث تحدث المؤلف عن إخوته وذكر صفاتهم المختلفة من الذكاء أو سرعة الفهم أو حسن التصرف. ونجاحهم في الدراسة والعمل، كما ذكر بعض صفاتهم السلبية. وفي الجزء الرابع تحدث عن شقيقته وحياتها قبل الدراسة والزواج وبعدها. وفي الجزء الخامس؛ تحدث عن خروجه الأسبوعي مع زملاء الدراسة إلى صالون الأدب، وما فيه من فنون وموسيقى، وأما الجزءان السادس والسابع خصصهما المؤلف للفاجعة الكبيرة التي حلت بالأسرة وهي موت أبيه "الأستاذ أحمد أمين"⁽³⁾. والفصل الرابع حكى فيه المؤلف عن دراسته في المدرسة الابتدائية والثانوية وذكر منافسة بعض زملائه له على المركز الأول، ثم أخذ يقارن بين المدارس في تلك الحقبة الزمنية وما آلت إليه فيما بعد⁽⁴⁾.

(1) رحيق العمر: ص38.

(2) انظر: المصدر السابق: ص38، و40-45.

(3) المصدر السابق: ص51-67.

(4) انظر: المصدر السابق: ص68-79.

وفي الفصل الذي يليه - أي الخامس - وهو بعنوان "حرب جلال" تناول الدكتور جلال أمين المشاكل أو الصعوبات التي واجهها في حياته المبكرة قبل بلوغه سن العشرين. وقد فصل القول في الفصل السادس في الضغوط النفسية التي اصطلى بلهيبها وما حرم منه من متع الحياة المشروعة في تلك المرحلة⁽¹⁾.

الفصل السابع يتعلق بتخرجه في كلية الحقوق بجامعة القاهرة وهو في العشرين من عمره، وكان ترتيبه "الرابع" بالكلية، وانتقل إلى الحديث عن "قناة السويس" وتأميمها سنة 1956م، وبدأ يصف قرارات الحكومة المتعلقة بالعلاقات الدولية مع رؤساء الدول المختلفة، مثل؛ أندونيسيا والهند والصين، وشراء الأسلحة من الدولة الاشتراكية، وينتقل إلى الحديث عن تعيينه في وظيفة محترمة بمجلس الدولة، وانتقاله إلى ميدان السياسة تحت مظلة "حزب البعث" الذي كان يرفع شعار "وحدة اشتراكية".

ثم يستطرد إلى الحديث عن الفترة التي عاشها إخوته وأخته في لندن ومراسلتهم له وإخباره بما يجري لهم في تلك الربوع ويطلبون منه أن يزودهم بكل ما يجري في مصر⁽²⁾.

والفصل الذي يليه - أي الثامن - جعله المؤلف بعنوان: "في جامعة لندن" التي قضى فيها ست سنوات للحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد، ووفق يصف مدينة لندن عاصمة الدولة التي ظلت إمبراطوريتها "لا تغرب عنها الشمس" لأكثر من قرن، ومن ثم تدفقت عليها الأموال من مختلف أنحاء العالم؛ فبنت أعظم المدارس والجامعات والمسارح وصالات الموسيقى، وظلت تُنتج أرقى أنواع الأدب، وساهمت أكثر من أي بلد في العالم في نهضة العلوم والفنون، وينتمي إليها أعظم العلماء في مجالات المعرفة بأنواعها المختلفة. كما

(¹) انظر: رحيق العمر: ص 80-91.

(²) انظر: المصدر السابق: ص 96-122.

يقصدها الطلاب من مختلف قارات العالم. وأخذ يصف أغنى مكتبة في العالم في العلوم الاجتماعية والإنسانية⁽¹⁾، ولا يتصور أن تبحث فيها عن كتاب أو مقال فلا تجده، فإن حدث ولم تجد كتاباً أو مقالاً وطلبته؛ استعاروه لك من مكتبة أخرى، وفي المكتبة يمكن لك أن تجلس في هدوء كامل، وعلى كرسي مريح في حجرات جيدة الإضاءة والتدفئة، فتقرأ كما تشاء. وفي نهاية الفصل أخذ ييسط الكلام حول المحاضرات التي يحضرها في الفصول، والمحاضرات العامة التي يمكن لطلاب وطالبات من خارج الجامعة الحضور إليها والمشاركة فيها وسلط بعض الأضواء على الأساتذة الذين درّسوه في مرحلة الدكتوراه، وعلى مدى جهودهم العلمية في مجالي التدريس والتأليف⁽²⁾.

وفي الفصل التاسع تحدث عن "مباهج" الحياة في "لندن"، وما شاهد فيها من مسرحيات جديدة أو قديمة، أو كانت قديمة لكن لجّد إخراجها بأسلوب معاصر، وعرف المسرح الإنجليزي عن طريق أخيه حسين أحمد أمين الذي طالما حدثه عن منزلته، وذكر أنه ذهب مرة لمشاهدة مسرحية في لندن، فأعجب بها وشغف بالمسرح والمسرحيات فبات يذهب إلى المسرح كلما وجد إليه سبيلاً. ولم يكتف بمشاهدة هذه المسرحيات وإنما أخذ يكتب إلى شقيقه حسين في مصر واصفاً له ما يشاهده من مسرحيات⁽³⁾.

وفي جزء من هذا الفصل يحكي الدكتور جلال أنه بعد انتهائه من امتحان التأهيل وشعوره بالاطمئنان إلى مستقبله الدراسي، أخذ يقرأ بعض الكتب في فن الموسيقى، وذكر شيئاً من آرائه في هذا الفن، كما تحدث عن "التلفزيون" الذي لم يكن قد انتشر بعد، لا في إنجلترا

(¹) لم يسجل المؤلف اسم المكتبة إلا أنه يصفها كثيراً. (راجع: رحيق العمر: ص 123-130).

(²) انظر: رحيق العمر: ص 123-128.

(³) انظر: المصدر السابق: ص 138-144.

ولا في أي بلد أوروبي آخر، ولم يكن قد ظهر في مصر، غير أنه استطاع شراءه لنفسه، ووضعه في غرفته الصغيرة التي كان يستأجرها في بيت عائلة إنجليزية، وكان التلفزيون لا يزال أبيض وأسود، فلم يكن قد ظهر الملون بعد⁽¹⁾.

وفي الفصل العاشر وهو بعنوان: "زملاء البعثة"، تحدث عن البعثات التي أرسلتها مصر للدراسات العليا إلى الخارج، وخاصة في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات وهي الفترة التي سافر فيها المؤلف، وقد تم اختيارهم حسب درجات المرشحين عند التخرج، ولم يكن هذا المعيار - حسب رأيه - صالحا تماما لتمييز الغث من السمين، لكن المؤلف يتعجب من حصول بعضهم على هذه البعثات الحكومية دون أن يستحقوا ذلك من قريب أو بعيد⁽²⁾.

وفي الفصل الحادي عشر تناول الدكتور جلال أمين علاقاته الغرامية بدءاً بابنة الجيران التي شغف بها حبا وكان يخرج معها مدة، مروراً بفتاة بولندية وانتهاء بفتاة إنجليزية لم تكن جميلة جدا إلا أنها كانت تتمتع بدرجة كافية من الأنوثة، وظل على علاقة بها ثلاث سنوات، حتى آذن الدهر ببين بينهما. وبعد هذه الصولات والجولات في ساحة الحب وقع في أسر حب حقيقي ملك عليه نفسه، وتمثل هذا الحب في فتاة إنجليزية أخرى اختارها رفيقة دربه وسلم لها مفاتيح قلبه⁽³⁾.

ثم راح يشير إلى قضية هامة وخطيرة جدا (في الفصل الثاني عشر الذي بعنوان: ماذا يحدث لنا في مصر؟) وهي ركوب عدد كبير من الطلبة المصريين الذين نالوا درجات علمية من الجامعات الأوروبية إلى الدعة والكسل وانطفاء جذوة نشاطهم التي تحلوا بها وهم في الخارج

(1) انظر: رحيق العمر: ص 166.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 176-183.

(3) انظر: المصدر السابق: ص 193-197.

وكانهم - بعد عودتهم - فقدوا القدرة على الابتكار وعجزوا عن تطبيق جيد لما تعلموه من العلوم والمعارف ناهيك عن أن يضيفوا إليها شيئاً يعود بالنفع إليهم وإلى أمتهم⁽¹⁾.

وحتى لا يظلم العائدين من الخارج من بني جلدته، أخذ يدرس الأسباب التي تعوقهم عن الابتكار والإبداع، فذكر أن أحدهم بعد تسلمه أعمال التدريس في جامعة مصرية لا يكاد يجد وقتاً لعمل آخر. فالعمل في الجامعة يأخذ عليه جُلَّ وقته بالإضافة إلى الرواتب المتواضعة التي لا تسمح للمدرس أن يعيش حياة فيها شيء من اليسر والرخاء. كما أن السياسة تتدخل في الحياة الجامعية سواء بالإرهاب أو الإغراء، كما أن الحياة العائلية الاجتماعية في مصر تفرض التزامات لا نهاية لها. تضيع الوقت وتشتت الذهن، فيعجز المرء عن الإتيان بشيء ذي بال⁽²⁾.

ثم يحكي عن تجربته الشخصية في حقل التدريس بعد عودته إلى مصر وانضمامه إلى هيئة التدريس في جامعة القاهرة وكلف بتدريس مواد لم يألفها من قبل فكان الاستعداد لها يتطلب وقتاً طويلاً يمتد في معظم الأحيان إلى منتصف الليل، وزوجه تساعدته وتشدُّ من أزره. واستطاع بعد فترة أن يؤلف بعض الكتب الدراسية تكون عوناً للطلاب في فهم بعض المواد الدراسية، ومنها: "مقدمة إلى الاشتراكية"، و"مبادئ التحليل الاقتصادي" و"الاقتصاد القومي"⁽³⁾.

وفصل الحديث في الفصل الثالث عشر حول: "الماركسية والماركسيون"، وتحدث في الفصل الرابع عشر وهو بعنوان: "تمدين الفقر"، عن السنوات الثلاث التي أنشبت فيها "الفقر"

(1) انظر: رجب العمر: ص 214.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 214-215.

(3) انظر: المصدر السابق: ص 215-224.

أظفاره في مصر بعد هزيمة حرب 1967م، واحتلال إسرائيل لسيناء، وزاد الطين بلة، وفاة الرئيس جمال عبد الناصر فجأة في سنة 1970م، وهذه السنوات الثلاث العجاف كانت من أشد السنوات كآبة في تاريخ المصريين من أواخر القرن الماضي.

ثم يحدثنا المؤلف عن عمله في الجامعة الأمريكية بالقاهرة كأستاذ مساعد معارا من جامعة عين شمس لمدة عامين، كما يحكي عن ذهابه إلى لبنان بدعوة من "مؤسسة فورد" لمدة سنة، وقد طلب منه كتابة بحث في موضوع من اختياره، فوقع اختياره على موضوع بعنوان: "التطور الاقتصادي في البلاد العربية خلال ربع قرن من سنة 1945م إلى سنة 1970م"، ويصف مدينة بيروت التي كانت حينئذ - أي أوائل السبعينيات وقبل نشوب الحرب الأهلية - تتمتع بسحر رائع يجذب إليها الناس، وكانت عبارة عن سوق كبيرة تحتوي على كثير من السلع التي لا توجد في مصر أو غيرها من البلاد العربية.

كانت لبنان في ذلك الوقت بلدا مفتوحا على العالم، ليس فقط فيما يتعلق بالسلع، بل أيضا فيما يتعلق بالكتب والصحف التي كان استيرادها يخضع لقيود شديدة في مصر. ثم تحدث الأستاذ عن تأليفه: كتاب "تمدين الفقر" (The Modernization of Poverty)، الذي نشر سنة 1974م في دار هولندية محترمة⁽¹⁾.

أحب حديثه عن عقدة الخواجة في الفصل الخامس عشر وكيف أنه برغم من أنه يستفيد من كل اسهامات الحضارة الغربية وأنه أول مستفيد منها في كل جوانب حياته ولا يستغني عنها، ولكنه لا يرضخ للفكر الغربي .. على الرغم من زواجه بأجنبية وزواج أبنائه من أجنبيات ولكنه يجيد الفصل التام في ذلك ... تفهمت موقفه على الرغم أنه قد ينظر لموقفه

(1) انظر: رحيق العمر: ص 258-261.

هذا أن به بعض الازدواجية، وفي حديثه عن جانب من جوانب تلك العقدة⁽¹⁾: "لا تدع الخوف أبداً يمنعك من الكلام، عندما يكون معك الحق، وعندما يكون رأيك مبنياً على دليل علمي، ولا تظن أن عقلك من نوع أقل من عقل الخواجة، على الرغم من أنهم يحبون أن نعتقد ذلك حتى يتمكنوا من السيطرة علينا"⁽²⁾.

وفي فاتحة الفصل السادس عشر الذي بعنوان: "المعادي"، يصف بيته الذي قضى فيه طفولته مع إخوته وأخواته في "حيّ عابدين" ثم انتقلت أسرته إلى الحي الجديد الأنيق؛ "مصر الجديدة"، لأن الحياة باتت صعبة للغاية في الحي القديم بسبب زيادة سكانه يوماً بعد آخر وضيق حاراته وشوارعه، ثم أخذ يصف بيته الجديد الذي اشتراه أبوه بالقرب من ميدان الجامع بمصر الجديدة، فيه حديقة صغيرة وبعض أشجار كبيرة، ويذكر زيارة له للمعادي برفقة أبيه ليزور صديقاً له متزوجاً من فتاة إنجليزية، وهذه الزيارة السريعة تركت في ذهن المؤلف صورة الفيلا الساحرة التي كان يسكنها ذلك الرجل⁽³⁾.

والفصل السابع عشر عبارة عن بيان حياة أولاد المؤلف وأولاد إخوته وأخواته، وطبائعتهم وميولهم واختلاف أشكالهم وأنوفهم وأفواههم، ونوعية أخلاقهم، وقوتهم في أخذ القرارات وعدمها، وقدرتهم في تصرفاتهم وتصرفات آبائهم في حقهم، وحقوق الأولاد عليهم وحقوقهم على أولادهم، كما يذكر علاقاتهم فيما بينهم على أساس أنهم جميعاً ينتمون إلى عائلة واحدة. ثم تحدث عن نوعية المدارس التي تُقدم للدارسين خدمات مجانية أو بدفع

(¹) انظر: رحيق العمر: ص 283.

(²) المصدر السابق: ص 27.

(³) انظر: المصدر السابق: ص 315-318.

الرسوم، ثم تحدث عن جواز السفر؛ وإذا كان لدى شخص جواز السفر، فما الفوائد؟ وذكر نقاشه الطويل مع زوجه الإنجليزية في ضرورة حصول الأولاد على جواز السفر البريطاني⁽¹⁾.

وفي الفصل الثامن عشر تناول أمرا خطيرا للغاية فيما يخص بعض الأطباء في البلاد النامية والفقيرة حيث يتفق الطبيب مع مجموعة من المتخصصين على سلب أموال المرضى بطرق مختلفة، فيُضخمون مشكلة صغيرة حتى يحصلوا على قدر كبير من المال منهم. ويحكي عن تجربة ذاتية عانى بسببها الأمرين على أيدي الأطباء⁽²⁾.

وخصص الفصل التاسع عشر للحديث عن: "نكبة الكويت"، فقد وقعت الحرب بين العراق والكويت في غرة أغسطس عام 1990م، ثم تدخلت الولايات المتحدة، وأجبرت صدام حسين على الانسحاب من الكويت. ويفصل الحديث فيما كان يجري بين الطرفين، وأن الإعلام الأمريكي يعرض من كل ذلك ما يتفق مع أجندة حكومته، ويذكر بالأخص الدور الذي كانت تلعبه قناة "CNN"⁽³⁾ الأمريكية، التي كانت تغطي الأحداث وكأنها طرف في النزاع. ويذكر أن القناة المذكورة دخلت مصر بأهدافها ومقاصدها، وكانت تقدم خدماتها في مصر بالمجان مدة من الزمان حتى تكوّن لها جمهورا واسعا⁽⁴⁾.

(1) انظر: رحيق العمر: ص 328-342.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 343-354.

(3) تأسست شبكة "CNN" عام 1980م، على يد "تد تورنر" Ted Turner (من مواليد 1938م)، وهذه القناة أول من استحدثت فكرة البث الإخباري المتواصل 24 ساعة، واشتهرت في أكثر من 212 دولة، وبذلك أصبحت من أكثر شبكات القنوات انتشارا ومشاهدة في العالم. {اطلعت على: <https://ar.wikipedia.org/wiki/>، تاريخ: 2018/8/30م}

(4) انظر: رحيق العمر: ص 358-370.

وتحدث في الفصل العشرين عن "جائزة أحسن كتاب" التي حصل عليها مرتين؛ مرة عن كتابه: "ماذا حدث للمصريين" عام 1998م، ثم بعد سنتين عن كتابه: "وصف مصر في نهاية القرن العشرين"⁽¹⁾.

والفصل الحادي والعشرون يتعلق بأحداث 11 سبتمبر التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي تمخضت عن سقوط البرجين الشاهقين لمركز التجارة العالمي في نيويورك، وتفجير وزارة الدفاع الأمريكية البنتاغون (The Pentagon) في واشنطن، ويذكر أنه نشر عدة مقالات ينكر فيها الرواية الرسمية للحكومة الأمريكية، فتمه أهداف خطيرة كانوا يريدون تحقيقها وراء هذه الهجمات التي كثر الجدل حولها وحول القائمين بها والمخططين لها، ولم تلبث الإدارة الأمريكية أن وجهت أصابع الاتهام إلى العرب والمسلمين. وأقاموا الدنيا ولم يقعدوها في وسائل الإعلام المختلفة، وأجندت الجيوش لمحاربة ما سمّته بالإرهاب وشنّت حملة شعواء؛ فغزت أفغانستان، واحتلت العراق، وأنشبت أظافرها في المنطقة، وأعطت الضوء الأخضر لحليفاتها في المنطقة "إسرائيل" لتجدّ في جرائمها الوحشية في حق الفلسطينيين الأبرياء⁽²⁾.

والفصل الأخير عنوانه "لماذا تخيب الآمال"، ويتحدث فيه عن آمال كثيرة يتمناها المرء في مراحل مختلفة من حياته ينجح في تحقيق بعضها، ويُخفق في تحقيق بعضها الآخر. ويذكر مثلاً أن: من حقق آملاً فسرعان ما يفقد الحماس له، بل ربما يفقد حتى الرغبة فيه، بمجرد الفوز به، ثم يتطلع ويتلهف إلى ما هو أبعد منه، فإذا كان صعب المنال فيصاب بخيبة الأمل. وضرب مثلاً آخر أعمق دلالة عن: رجل وجد نفسه أمام مساحة شاسعة من الأرض الخصبة والمثمرة فطمع في تملكها، فقليل له: إن أي مسافة يستطيع أن يقطعها مشياً أو جرياً، تجعل الأرض التي مرّ بها ملكاً له، ولكن بشرط واحد هو أن يعود إلى النقطة التي بدأ منها

(¹) رحيق العمر: ص 370-383.

(²) انظر: المصدر السابق: ص 384.

قبل اختفاء آخر شعاع للشمس، فشرع في الجري واستولى على مساحة من الأرض، ثم وجد قطعة أرض أخرى جميلة ظهرت أمام عينيه، فطمع في إضافتها إلى ما سبق له جمعه، وإذا بهذا الإغراء يتكرر حتى اكتشف بعد فوات الأوان أنه ذهب في جريه إلى أبعد مما يسمح له بالعودة قبل غروب الشمس⁽¹⁾.

وإذا فقد الإنسان القدرة على الاستمتاع بالأشياء فقد زالت كل متع الدنيا في نظره، فلا يستطيع أن يتمتع بطعام شهى لأن الطبيب منعه من ذلك، ولا برؤية بلاد جديدة بسبب ثقل حركته، ولا بشراء هدية ثمينة لامرأة جميلة لأنه لم يعد لديه أمل في الحصول على حبها، ولكن ربما كان الأسوأ من فقد القدرة على التمتع بشيء ما، فقد الرغبة فيه أصلا، فالأسوأ من أوامر الطبيب بالامتناع عن تناول طعام شهى أن يفقد المرء شهيته، والأسوأ من الفشل في الحصول على رضا امرأة جميلة فقدان الرغبة فيها من الأصل، وفقدان الرغبة أو ضعفها قد يأتي لأكثر من سبب: مثل تدهور الصحة أو ضعف الجسم بالتقدم في السن، ولكن هناك أيضا مجرد التكرار، فكل المتع تبدو وكأنك جربتها من قبل، وكل البلاد تبدو وكأنك رأيتها، أو رأيت مثيلا لها، فتغنى رؤية بعضها عن بعض. بل حتى الأشخاص الجدد الذين تقابلهم لأول مرة، سرعان ما تبين أنك قابلت من قبل أشخاصا آخرين من نفس الطراز، فتفقد الرغبة في رؤيتهم من جديد. وقد بنى المؤلف منزلا صغيرا في دهشور بمحافظة الجيزة، وقام بتأثيثه ببعض الأثاث الضروري على أمل أن يقضى فيه بضعة أيام في العطلات، فها قد انقضى على بنائه أكثر من خمس عشرة سنة دون أن يقضى فيه ليلة واحدة، وإنما اقتصر استخدامه له على زيارات قليلة لا يستغرق أي منها أكثر من بضع ساعات وتنتهي دائما قبل الغروب⁽²⁾.

(¹) انظر: رحيق العمر: ص 403-404.

(²) انظر: المصدر السابق: ص 405-407.

المبحث الثالث

التعريف بالسيرة الذاتية للدكتور شوقي ضيف

معي (الجزء الأول)

نتعرف في هذا المبحث على السيرة الذاتية للدكتور شوقي ضيف⁽¹⁾، التي سجلها في جزئين، عَنون الأول؛ بـ"معي"، والثاني: بـ"معي ذكريات ومشاهدات"، ولم يقدم لها بمقدمة أو تمهيد أو شيء من هذا القبيل. يشمل الجزء الأول حياة قريته الريفية قبل ولادته ثم يشير إلى ذكر ولادته والتحاقه بالمدرسة وهكذا تجري الأحداث حتى حصوله على درجة الدكتوراه سنة 1942م⁽²⁾، ويتحدث في الجزء الثاني عن تعيينه معيدا بقسم اللغة العربية في كلية الآداب بجامعة القاهرة⁽³⁾ ويذكر رحلاته إلى مختلف البلاد ومشاهداته فيها وهكذا يسجل أحداث سيرته المختلفة حتى غُرة سنة 1987 ميلادية⁽⁴⁾.

يبدو على سيرته الذاتية أنه سجلها في أواخر أيام حياته وخاصة الجزء الثاني منها، غطت السيرة معظم حياة المؤلف حياتها تقريبا، غير أنها لا تُعنى بهذه الحياة بمقدار ما تعني بالأحداث الهامة التي ارتبطت بها، فهو فيها إلى ذوق المؤرخين أقرب منه إلى ذوق الأدباء مثل الدكتور طه حسين، وربما دفعه إلى ذلك دراساته الكثيرة عن العرب ولغاتهم وتاريخهم

(¹) انظر ترجمته بالتفصيل؛ في ص 121.

(²) انظر: معي للدكتور شوقي ضيف، [الجزء الأول] ط: 1، مكتبة الأسرة، القاهرة - مصر، 2003م، ص 167.

(³) انظر: معي، ذكريات ومشاهدات للدكتور شوقي ضيف، [الجزء الثاني] دار المعارف، القاهرة - مصر (ب. ت)، ص 5.

(⁴) انظر: المصدر السابق، ص 175-177. (وعاش المؤلف إلى سنة 2005م ... انظر. لوعة على شوقي صيف حمرة بن فايع

الفتحي، ط: 1، (بدون اسم الدار والمكان)، 2005م، ص 29)

وحياتهم الفكرية، فبدا كل ذلك في أغلب ما كتب من تاريخ نفسه وحياته⁽¹⁾، ولم يعن بأحداثه الشخصية الذاتية بل تحول مؤرخا يسجل أحداث الحياة حوله، وهو في هذا التسجيل قلما انفعّل بما يرى ويشاهد على عكس عميد الأدب العربي في أيامه التي تشبه مرآة صافية تعكس كل حياته بدون أي حجاب أو أي مواربة.

طريقته في سرد الأحداث: رتب الدكتور شوقي ضيف سيرته الذاتية فرقم كل فصل برقم متسلسل يتناول فترة من حياته، ففي الفصل الأول يصف قريته التي ولد فيها، وعاش بها فترة من بداية حياته، والفصل الثاني يتحدث فيه عن بيته وأسرته وأقاربه كما يحكي عن ولادته، وبداية دراسته في مدرسة أولية بقريته. ثم أخذ يصف المدرسة وما فيها من نظام، وأخذ يفصل القول في دراسته أثناء هذه الفترة. وفي الفصل الثالث يذكر أنه حين بلغ التاسعة من عمره، ترك أبوه القرية واتخذ دمياط⁽²⁾ دار مقام له، وبدأ يصف المؤلف المدينة بدكاكينها وأسواقها المختلفة وحوانيتها التي كانت تضاء في المساء بمصابيح الكهرباء، كما تحدث مرة أخرى - في الفصل الرابع - عن دراسته في المعهد الديني في مراحلها المختلفة، وطرق تدريس الأساتذة لمختلف المواد، وفصل القول في تدريس مادة النحو، وذكر الفرق بين طريقة تدريسها قديما وحديثا ومال إلى الطريقة الجديدة⁽³⁾. وذكر في الفصل الخامس إكمال دراسته الأزهرية

(1) كما نراه يسجل أحداث سيرته فيدخل مجال السياسة أو أحيانا يخلط بين حوادث سيرته وحوادث السياسة.

(2) مركز محافظة دمياط، وأهم قاعدة للصيد والزراعة والأقمشة الحريرية والأثاث، وهي من أشهر مدن دلتا النيل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، واليوم فإن مدينة دمياط تعد مدينة كبيرة يعيش فيها حوالي 300 ألف نسمة، وأشهر مساجدها مسجد عمرو بن العاص الذي شيد إبان الفتح العربي لها عام 21هـ/ 642م. (انظر كتاب: موسوعة 1000 مدينة إسلامية لعبد الحكيم العميفي، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 2000م. [رقم المدينة: 435] ص237، وموسوعة المدن العربية والإسلامية: إعداد: الدكتور يحيى شامي، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993م، ص200).

(3) انظر: معي للدكتور شوقي ضيف، ص63-70.

في معهد الزقازيق الديني الثانوي، وتحدث بالتفصيل عن المواد التي درسها في هذه الفترة كما ذكر المؤلف أنه انكب على قراءة المقالات الأدبية التي كانت تُنشر في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية، وكانت تُبث فيها فصول طريفة عن الفكر والأدب العربيين والغربيين معا، وفي هذه الفترة كان طه حسين قد نشر كتابه: "في الشعر الجاهلي" وأثار به ضجة كبيرة في الأجواء الأدبية وفي الكتابات الصحفية حينها⁽¹⁾. وكذلك يشير إلى تغيير في الحوادث السياسية، فوزارة عدلي يكن⁽²⁾ تتولى مقاليد الأمور طوال هذا العام 1927م، بينما كان سعد زغلول زعيم الأمة⁽³⁾ يتولى رئاسة مجلس النواب. ثم يُخبرنا المؤلف بأنه كان طالبا بمعهد الزقازيق الديني آنذاك سنة 1927م⁽⁴⁾. وينبئنا برحيل زعيم الأمة إلى جوار ربه وذلك في نفس السنة، بأسلوب يقطر حزنا وألما قائلا: "وما إن حل اليوم الثالث والعشرين من أغسطس حتى

(¹) انظر: معي للدكتور شوقي صيف، ص 96-97.

(²) ولد عدلي بن خليل بن إبراهيم يكن سنة 1864م / 1280هـ بالقاهرة لأسرة عريقة لها أصول تركية - ألبانية، من رجال السياسة بمصر، وتعلم في بعض المدارس الأجنبية بها، مثل: المدرسة الألمانية والفرير والجزويت ومدرسة مارسيل، فأتقن اللغة الفرنسية، وتقدم في المناصب إلى أن كان وزيرا للخارجية فوزيرا للمعارف، ثم رئيسا للوزارة ثلاث مرات بين أعوام 1921م و1930م، وكان قويا في نفسه، مهيبا، رضي الخلق. توفي في باريس أكتوبر سنة 1933م ونقل إلى القاهرة. (راجع: الأعلام لخير الدين الزركلي: 218/4)

(³) ولد سعد زغلول سنة 1860م في قرية "إبيانة"، مات أبوه وكان صغيرا، ألحق سعد بمكتب القرية حتى بلغ الحادية عشرة ثم أرسل إلى الأزهر، وكان يتردد على مجلس جمال الدين الأفغاني في داره بالقاهرة، ثم عين محررا في "الوقائع المصرية" حتى نشبت الثورة العربية، ودخل السجن لفترة، وبعد أن أفرج عنه، عين "نائب قاض" بمحكمة الاستئناف وبقي فيها 14 عاما، ثم اختير وزيرا للمعارف فوزيرا للحقاية، وقام بتأليف حزب "الومد المصري" للحرية والاستقلال واختير رئيسا له، فكان قائد النهضة المصرية الباسل، ورعيها العظيم، الذي كافح وناضل، ونُفي في سبيل بلاده. وأصبح أول رئيس لوزارة شعبية بعد الاستقلال، وتولى رئاسة مجلس النواب حتى توفي في 23 أغسطس سنة 1927م، وهو في السابعة والستين من عمره. (سعد زغلول زعيم الثورة للأستاذ عباس محمود العقاد، دار هداوي، القاهرة، 2014م، ص 9-10)

(⁴) انظر: معي للدكتور شوقي صيف، ص 98-99.

تجهمت سماء مصر وتلبدت بغيوم كثيفة وأخذت ترعد وتبرق بنبا وفاة زعيم الأمة الخالدة وقائد نهضتها وموقفها وراذ حقها عليها في تقرير مصيرها بعد مئات السنين: سعد زغلول، وكان الناس في مصر يتلقون الخبر بالوجوم، وسرعان ما انفجرون باكين حتى العجائز والصبية...»⁽¹⁾.

والفصل السادس يتحدث عن تأثيره بأساتذة دار العلوم وقد جعله ذلك يفكر في الالتحاق بها وترك الطريق الذي كان أبواه اختاراه له: طريق التعليم الديني في الأزهر الشريف، وكانت لها مدرسة ثانوية تسمى التجهيزية تعد الطلاب للالتحاق بها إعدادا علميا، فهم يأخذون فيها مواد المدارس الثانوية المدنية من رياضة وطبيعة وكيمياء ويتميزون من طلاب تلك المدارس بمواد خاصة بهم من فقه وعلم كلام وتفسير وحديث، أما قواعد العربية والأدب فيشتركون معهم في نفس المنهج. كما فصل القول في تأسيس المدرسة التجهيزية لدار العلوم واختيار الأساتذة لها ومنظمتها ومقرها، وبالإضافة إلى ذلك تكلم عن المحاضرات الحرة التي كانت تقدم في ردهات المدرسة على منوال الجامع الأزهر⁽²⁾.

وفي الفصل السابع يتحدث المؤلف عن التحاقه بقسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة فؤاد (جامعة القاهرة الآن) فقد قُبل من بين كثيرين... كانوا نحو ثمانين طالبا، جاءوا جميعا مشوقين إلى الاستماع للدكتور طه حسين ومحاضراته وما يحدث من دراسات نقدية جديدة في الأدب العربي وأدبائه، والسنة التمهيدية كانت مخصصة لدراسة اللغات الأجنبية، فدرس اللغة الإنجليزية والفرنسية⁽³⁾.

(¹) معي للدكتور شوقي ضيف، ص 98.

(²) انظر: المصدر السابق، ص 103-105.

(³) انظر: المصدر السابق، ص 123.

ودخل مرة أخرى مجال السياسة فوصف أحوالها وذكر أحداثها ويعبر عما في قلبه بعبارات رائقة، نحو: وطوال هذا العام الدراسي 1930-1931م كان الوفد يقاوم هو وصحفه إسماعيل صدقي⁽¹⁾ مقاومة باسلة، بينما كان هو سادراً في بغيه وطغيانه، وبدأ العام في أكتوبر بإلغائه دستور سنة 1923م ووضع دستور أبتز جديد، واحتجت الأحزاب: حزب الوفد وحزب الأحرار الدستوريين والحزب الوطني، واحتجت معها صحفها بشدة⁽²⁾.

وفي السنة الأولى بعد التمهيدية بكلية الآداب انتظم شوقي ضيف مع الطلاب المدنيين الذين يدخلون الكلية في أول كل عام، وفتحت الجامعة أبوابها هذه المرة للسيدات والآنسات فدخلت كثرات منهن كلية الآداب، حدث هذا التغير غير مألوف في زمن كان لطفي السيد مدير الجامعة، وتذكر شوقي ضيف أيام صباه في القرية⁽³⁾، وكأنما عاد من جديد إلى هذا الاختلاط الذي بدأ به حياته التعليمية في القرية⁽⁴⁾. وكانت الآنسات سافرات كاشفات، وكثيرون يظنون أن دعوة قاسم أمين إلى سفور المرأة المصرية انتظرت حتى دخلت الفتيات

(¹) ولد إسماعيل صدقي باشا في الإسكندرية سنة 1875م، وكان والده أحمد باشا شكري أحد الشخصيات البارزة في السياسة المصرية، درس صدقي في مدرسة العريز، حصل على الشهادة الثانوية عام 1889م، ثم انتقل للدراسة في مدرسة الحقوق، وتخرج من الحقوق عام 1894، فكان يشتغل بالصحافة أثناء دراسته في مجلة المدرسة ثم في مجلة الشرائع، وعُيِّن بعد التخرج كاتباً بالنيابة العامة، ثم سكرتيراً عاماً في إحدى اللديات، فأُسند إليه منصب سكرتير عام لوزارة الداخلية واستمر بعمله هذا حتى 1910. ثم احتير وزيراً للمالية عام 1921م، وولي رئاسة الوزارة سنة 1930-1933م، وترأس الوزارة مرة ثانية سنة 1946-1947م، فاستقال منها، وذهب إلى أوروبا مصطافاً فمات في باريس سنة 1950م ونقل إلى القاهرة. (انظر: مذكراتي لإسماعيل صدقي باشا، ط1، دار الهلال، القاهرة، 1950م، والأعلام 315/1)

(²) انظر: معي للدكتور شوقي ضيف، ص124.

(³) كما ذكرها: "وكان المدارس الريفية [وكان ذلك في كتابي بعض القرى] هي التي استجابت مبكرة لفكرة الاختلاط في التعليم". (انظر: معي، ص23)

(⁴) انظر: معي، ص127.

الجامعة والواقع أنها كانت قد نجحت النجاح المنتظر مع الثورة المصرية سنة 1919م؛ إذ خرج نحو ثلاثمائة من كرائم العائلات في القاهرة تقودهن صفية زغلول في مظاهرة كبيرة محتجيات بقوة على سفك الإنجليز للدماء الزكية في الثورة، وفي الحقيقة أن الحجاب إنما كان منتشرًا بين النساء في المدن المصرية بتأثير الأسر التركية التي عاشت طويلاً في المجتمع المصري، وكان يحاكي أسر المدن بعض أسر الريف وخاصة الثرية، أما عامة الريفيات فكان يشتغلن في الحقول مزاملات للرجال من قديم سافرات دون نقاب⁽¹⁾.

ثم يدخل المؤلف مجال الدراسة ويفصل ما فيها من المواد التي تدرّس، وأعجب بمحاضرات التاريخ، وكان موضوعها تاريخ مصر؛ وقد توزعه أساتذة القسم، كلٌّ يحاضر في دورة من دورات التاريخ المصري، فكان أستاذ الفرعونيّات أو التاريخ القديم يحاضرهم في موضوع طريف اختاره هو، مثل: المعاهدات التي عقدتها مصر بينها وبين جاراتها في الأزمنة العتيقة مصوراً بما احتوت من مواد مختلفة دلالاتها الحضارية ... وكان أستاذ التاريخ في العصر الأخير بارعاً في عرضه وإلقائه، ويذكر المؤلف أن الطلاب كانوا يتخوفون من اللاتينية والجغرافيا لكثرة من يرسبون بهما في آخر العام. وذكر أنه اختار تخصصه في العام الدراسي التالي 1932-1933م قسم اللغة العربية الذي جاء من أجله إلى الكلية⁽²⁾.

وفي الفصل الأخير - من الجزء الأول من سيرته الذاتية "معى" - تكلم عن تخرجه في مرحلته الجامعية سنة 1935م وتفوقه في دفعته، وذهابه إلى زيارة أستاذه الدكتور طه حسين⁽³⁾، ورتب له وظيفة في إدارة المطبوعات لكنه عين في مجمع اللغة العربية، ثم يذكر بعد

(¹) انظر: معى، ص 126-127، بتصرف يسير.

(²) المصدر السابق، ص 128-132.

(³) تقدمت ترجمته في ص 19.

فقرات أنه انتسب إلى الماجستير في العام الجديد، واشتغل المؤلف بكتابة رسالته في النقد، وموضوعها: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني". وبعد انتهائه من رسالة الماجستير التحق بالدكتوراه وأشرف الدكتور طه حسين على رسالته ونوقش سنة 1942م⁽¹⁾.

معي ذكريات ومشاهدات (الجزء الثاني)

يحتوى هذا الجزء المسمى بـ (معي ذكريات ومشاهدات) على تسعة فصول، ذكر فيها ذكرياته البارزة من حياته، المليئة بالأحداث، وكذلك فصل القول فيما شاهده في أعماله التي قام بها في الجامعات والمجتمعات، وكأنه يريدنا أن نشاركه في خبراته العلمية والعملية والفكرية، ويعرض علينا ما رآه في رحلاته داخل بلاده وخارجها.

وتكلم في الفصل الأول عن عنصر الربط بين الناس في هذه الدنيا، ألا وهو الصداقة، فيرى المؤلف أن الصداقة هي أكبر جزاء معنوي يكافأ به مدرس الجامعة، إذ تتوثق الصداقة بينه وبين نفر من تلاميذه "ولم يكن صاحبي ينعم بصداقة تلاميذه فحسب، بل كان ينعم أيضا بصداقة أساتذته، إذ طالما أسبغوا عليه صداقتهم، وفي مقدمتهم طه حسين"⁽²⁾، كما يراها تفوق جميع الخصال الإنسانية حتى عاطفة الحب التي طالما تغنى بها الشعراء، محتجا لقوله بأن الحب يربط بين اثنين فقط ولا ثالث، ثم يتحدث عن الصداقة وأنواعها وفوائدها⁽³⁾.

وفي الفصل الثاني ذكر قضية العرب مع اليهود بفلسطين، والقرار الخطير الذي أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيمها إلى دولتين: دولة عربية ودولة يهودية في عام 1947م

(1) انظر: معي، ص 151، و 153، و 155 و 159، و 161، و 167.

(2) معي ذكريات ومشاهدات، ص 7.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 5-7.

وأشار إلى الهجوم الفاشل للعرب ضد اليهود، ونجاح اليهود في تأسيس دولة يهودية⁽¹⁾. ثم يذكر من مشاهداته بأنه سافر مع أهله وأولاده إلى جزيرة قبرص، المعروفة بشرقيّ البحر المتوسط، فبدأ يولف لها تاريخها عند المسلمين والصليبيين، ثم يصف الجزيرة وصفا رائعا، ويخبرنا بما رأى فيها من غابات وأشجار وجبال وعيون⁽²⁾.

ورأى شوقي ضيف أهل بلدة "بيدولاس"⁽³⁾ ذات ليلة، بمضون فرادى وجماعات كأنما يريدون الفرجة على شيء، فسأل أحدهم عن وجهتهم وعرف منه أنهم متجهون للفرجة على "أراجوز" وعجب أن يكون في قبرص أراجوز يضحك الناس، فذهبوا وراءهم واشتركوا مع المتفرجين. كما ذكر - في هذا الفصل - ترشيحه لجائزة الدولة التشجيعية والتقديرية على كتابه عن أحمد شوقي: "شوقي شاعر العصر الحديث"⁽⁴⁾.

وأشار في الفصل الثالث إلى تأميم "قناة السويس" في عام 1956م، ويذكر أن شركة قناة السويس العالمية أعلنت عن إتمام عملها في مصر. ثم يُخبرنا المؤلف بزيارته إلى رومانيا وروسيا، عندما طارت الطائرة فوق جزيرة السيرينات⁽⁵⁾، وتذكر الأسطورة الإغريقية عن جزيرة

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، ص 26-29.

(2) المصدر السابق، ص 29-33.

(3) تقع بيدولاس في حبال ترودوس بجمهورية قبرص، في منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط بغرب آسيا، وهي ثالث أكبر جزيرة من حيث المساحة، وبالت بيدولاس شهرتها خصيصًا من إنتاجها للكرز والمنتجات المصنوعة من الفاكهة. وبيدولاس كانت تحت سيطرة العثمانيين. ومن سكان الأصليين القنارسة اليونانيين والأتراك المسلمين (معي ذكريات ومشاهدات، ص 29-32، واطلعت عليه بتاريخ 11 يناير 2017م: <https://ar.wikipedia.org/wiki/بيدولاس/قبرص>)

(4) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، ص 32-33، و 39-40.

(5) حيث توحد السيرينات "عرائس البحر" بسندن أعاني ساحرة للغاية بأصوات لا يمكن وصفها ومن يذهب إليهن يبقى بجوارهن مدى الحياة، وقد قام أوديسيوس بظل ملحمة الأوديسة الشهيرة (لهوميروس) أثناء إحدى رحلاته البحرية في طريق-

السيرينات في البحر المتوسط جنوبي بلاد اليونان، أن بحارة السفن حين كانت تقترب من هذه الجزيرة يستمعون إلى غناء من بها من السيرينات، ويخالون كأنما يمددن إليهم أذرعتهم البضة البيضاء الجميلة لعناقهم. ونزل روما وقضى بها يومين وشاهد أهم معالمها من المتاحف والملاعب، وزار قصر الفاتيكان وجاس خلاله يتأمل في آيات التصوير والفن، وطاف بشوارعها ورأى أهلها يحتفلون حتى اليوم بكثير من آثارها القديمة دون أي مساس بها، وشاهد ساحة الأسود التي كان يُلقى فيها قياصرة روما ممن يريدون لهم موتا رهيبا يمزقون فيه إربا إربا، كما شاهد مطبعة الدولة التي تطبع بعض الصحف وكتب جميع المدارس والمعاهد ومجلات مختلفة للأطفال والعمال والفلاحين. وفي اليوم الثالث زار المؤلف دار اتحاد الكتاب، وهي قصر أنيق فيه يعقد الكتاب اجتماعاتهم وندواتهم، وبه قاعة واسعة لمحاضراتهم ولعرض بعض الأفلام السينمائية⁽¹⁾.

وفي الفصل الرابع تحدث عن رحلته إلى موسكو وذهب إلى اتحاد الكتاب فيها والتقى بأمينه، الذي حدثه عن الاتحاد ووظيفته، ورأى المؤلف في العاصمة معهدا للغات الشرقية، ثم صلى صلاة الجمعة في مسجد التتار بموسكو، وسر بها صاحبنا كثيرا. ويخبرنا بتفاصيل مشاهدة فيلم رومانسي من الأدب الروسي، ثم زار بعض المدن الكبيرة مثل: طشقند وسمرقند وستالينجراد⁽²⁾.

= عودته إلى بلاده بعد انتهاء معركة طروادة بالهجرة من سحر السيرينات عن طريق وضع الشمع في آذان البحارة، وقام بربط نفسه إلى السارية كي يسمع أصواتهن دون أن يذهب إليهن. كما ورد في أساطير اليونان والرومان. (اطلعت على هذه المعلومات بتاريخ: 14 أغسطس 2017م من الموقع: <https://ar.wikipedia.org/wiki/أوديسة>)

(¹) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، ص 43-48.

(²) انظر: المصدر السابق، ص 59-77.

وفي الفصل الخامس تحدث عن رجوعه إلى مصر من هذه الرحلة ونزوله في بيروت، ونشر مقاله عن رحلته بعنوان "ستالينجراد الثانية"، وألقى محاضرة في ذكرى حافظ إبراهيم "شعر حافظ إبراهيم دراسة تاريخية"، وفيها تحدث عن مطلع حافظ إبراهيم وإحساسه بالبؤس في نفسه ومنذ تدفق ينبوع الشعر على لسانه، وإنكاره على الخديوي عباس أن يكون من حواشي القصر، وهكذا يذكر تفاصيل إنتاجه الأدبي الغزير في العصر الحديث. ثم تكلم شوقي ضيف عن زيارته إلى السودان في مهمة الامتحان لمرحلة الليسانس عام 1959م والاشراف عليه من قبل جامعته في مصر، وحضوره في دمشق في مهرجائها الشعري، ويذكر أنه بدأ سلسلة تاريخ الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث⁽¹⁾.

وفي الفصل السادس يتحدث الدكتور شوقي ضيف عن فترة قضاها في جامعة بيروت - وذلك في عام 1963م - وقدم فيها محاضرات عن تاريخ البلاغة العربية، والأيام التي شاهد فيها مناظرها الطبيعية البديعة، وأخذ بصره يتملى بجمال مرتفعاتها الصاعدة ووديانها المنحدرة. ويُخبرنا بأنه دافع عن عباس محمود العقاد عندما وجهت إليه بعد وفاته حملات نقد ضارية منتقصة مكانته الأدبية الرفيعة، كما كان يدافع عن البارودي وشوقي وأدبهما⁽²⁾.

وتكلم في الفصل السابع عن زيارته للحرمين الشريفين، وذكر تفاصيل لا تفتقر بما شعر به عند أداء مناسك الحج والعمرة، ثم شرح بعض الأحكام وحاول أن يثبت أن الشريعة الإسلامية سهلة التطبيق وليست صعبة⁽³⁾. وفي الفصل الثامن ذكر أنه سافر إلى الكويت وزار جامعته وحاضر فيها عن الصوفية والجهاد. ثم يُخبرنا بزيارته لمدينة لندن وإسكتلندة ومدريد

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، ص 78-90.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 96-99.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 107-121.

وباريس⁽¹⁾. وفي الفصل التاسع والأخير يتحدث عن زيارته لإسبانيا ومدينة جبل طارق ومدينة الجزيرة الخضراء وطليلة والإسكوريال وقرطبة وإشبيلية وغرناطة وقصر الحمراء. ويذكر زيارته إلى ألمانيا وسويسرا ومدينة فرانكفورت وقلعة مدينة هيدلبرج ومدينة بيرن. ثم يتكلم عن زيارته لمدينة إستانبول. ويُبين المؤلف بأنه عيّن أستاذا متفرغا بأداب جامعة القاهرة سنة 1986م⁽²⁾.

(¹) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، ص 122-134.

(²) انظر: المصدر السابق، ص 136-175.

المبحث الرابع

تعريف بكتاب "حياتي في حكاياتي" للأستاذ الدكتور حسن الشافعي

نُشرت في منتصف سنة 2015م سيرة ذاتية للأستاذ الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي⁽¹⁾، بعنوان: "حياتي في حكاياتي"⁽²⁾، سجل فيها "حكايات" وقعت في مراحل مختلفة من حياته، وهذه الحكايات تحكي معظم ما مر به الأستاذ من حوادث منذ طفولته حتى سنة 2015م، ولم يقم صاحبها بترتيب حكاياته ترتيباً زمنياً، فهو يحكيها دون مراعاة تسلسل زمني لها، وكل حكاية تتناول جزءاً من حياته، وليس هناك منهج محدد التزمه الأستاذ في هذه الحكايات، وإنما هي: "المواقف الملتقطات" حسب تعبيره في المقدمة. فليس بين حكاية وحكاية تليها رابط غير أن بطلها واحد.

يشتمل الكتاب على سبع وسبعين حكاية⁽³⁾، وغنّون كل حكاية بعنوان يدل على فحواها، وأخذ يسير بذلك إلى آخر الكتاب.

وحكايات هذه السيرة موزعة على موضوعات مختلفة؛ فبعضها مخصصة للحديث عن بعض الأعلام البارزين المعاصرين للشيخ فقد تحدث عن سبعة وثلاثين من كبار المشاهير المعاصرين له، يشملهم؛ أساتذته الذين درّسوه في مراحل التعليم المختلفة: مثل الشيخ محمد الغزالي⁽⁴⁾،

(1) انظر: ترجمته بالتفصيل في، ص152.

(2) طبع هذا الكتاب ونشر في دار العرب الإسلامي بتونس، سنة 1436هـ/ 2015م.

(3) من بينها الحكاية رقم 32 و52 "في المستشفيات" وها حكاية واحدة؛ وردت مرتين، فصار بذلك عدد الحكايات ستاً وسبعين.

(4) ولد الشيخ محمد الغزالي عام 1917م بالجيرة، تعلم في الأزهر وتخرج فيه، وانضم إلى جماعة الإخوان المسلمين، ودرّس بكلية الشريعة وأصول الدين في الأزهر، وفي جامعة أم القرى بمكة المكرمة، وشارك في تطوير كلية الشريعة بجامعة قطر، وفي إنشاء جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية في الجزائر، ولقّن طلابه الموازنة بين العقل والنقل، وبين الأصول والفروع، وبين-

والشيخ عبد الحليم محمود⁽¹⁾، والشيخ مبروك نافع وغيرهم ...

كما تحدث عن علماء وأدباء وشعراء من العالم الإسلامي ممن لقيهم، مثل: الشيخ محمد تقي العثماني، والشيخ عبد القدوس القاسمي، والشيخ علاء الدين النقشبندي، والشيخ أبي الحسن علي الندوي، والدكتور دين محمد، والأستاذ خورشيد أحمد وشقيقه الأستاذ الدكتور أنيس أحمد، والأستاذ الدكتور محمود أحمد غازي وشقيقه الأستاذ الدكتور محمد الغزالي، وخصص عدة صفحات لصديقه العزيز الأستاذ الدكتور ظفر إسحاق الأنصاري، وغيرهم من بلاد شبه القارة الهندية. كما تحدث عن أعلام كبار من العالم العربي والإسلامي مثل: الشيخ المجاهد محمد الخضر حسين، والشيخ محمد متولي الشعراوي⁽²⁾،

- الدين والدين، وعين وكيلاً لوزارة الأوقاف بمصر، نال جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام 1409هـ، وتوفي سنة 1996م بالرياض ودفن بالقبة في المدينة المنورة. له نحو ستين مؤلفاً منها: الإسلام والمناهج الاشتراكية، وكيف نفهم الإسلام، والتعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام. (انظر ديل الأعلام ص 193، وإقام الأعلام ص 260).

(¹) ولد شيخ الأزهر عبد الحليم محمود سنة 1910م بإحدى قرى محافظة الشرقية، حفظ القرآن الكريم، وولج الأزهر وظفر بنهاده العالية، ثم سافر إلى فرنسا عام 1932م، ودرس علم النفس والاجتماع وتاريخ الأديان بجامعة السوربون، ونال الدكتوراه في التصوف الإسلامي، ودرس بالأزهر، فعين عميداً لكلية أصول الدين فصار وكيلاً للأزهر 1970م فوزيراً للأوقاف فتيخاً للأزهر، ودرس في جامعات ليبية وأندونيسية والفلبين والسودان وماليزيا. ومن آثاره: "القرآن والبي"، و"الإسلام والعقل"، و"المدرسة الشاذلية"، وتوفي سنة 1978م. (انظر ديل الأعلام ص 115)

(²) ولد الشيخ محمد متولي الشعراوي سنة 1911م، بمحافظة الدقهلية بمصر. حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، وفي عام 1923م حصل على الشهادة الابتدائية الأزهرية من معهد الزقازيق، حيث حصل على العالمية مع إجازة التدريس عام 1943م من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، بعد تخرجه درس في المعاهد الدينية الثلاثة أولاً في طنطا ثم في الزقازيق وأخيراً بالإسكندرية. ومن عام 1950م عمل أستاذاً للشرعة في جامعه أم القرى في السعودية، ثم وكيلاً للأزهر الشريف إلى سنة 1967م، وفي عام 1976م احتير وزيراً لوزارة الأوقاف وشتون الأزهر، وتم اختياره عام 1987م عضواً بمجمع اللغة العربية، توفي الشيخ سنة 1998م عقب رحلة طويلة مع المرض، وقد نال خلال مشواره العديد من الجوائز والأوسمة حيث حصل على وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عامي 1983م و1988م، ووسام الاستحقاق من الدرجة الأولى لبلوغه سن التقاعد عام 1976م، كما حصل على الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعتي المنصورة والمنوفية. وله -

والدكتور علي عشري زايد⁽¹⁾، والدكتور حسن الترابي، والمشير سوار الذهب، والدكتور عبد الحميد مدكور، والشيخ محمد الحافظ التيجاني، والدكتور سعيد بدوي، والشيخ صالح محمد النور، والدكتور عبد المجيد محمود، والدكتور سيد دسوقي، والأستاذ طارق البشري، وشاعران باسقان هما: الدكتور محمود الربيعي والشاعر السوداني محيي الدين فارس، وغيرهم.

كما ذكر أسماء عشرات من الرجال والنساء ضمن حكاياته. فقد ذكر عددًا من العلماء والأدباء والشعراء والسياسيين والزملاء والتلامذة والوزراء والولاة والحكام داخل مصر وخارجها مثل: المفكر الكبير الدكتور عبد الرحمن بدوي الذي قضى حياته في مصر وباريس وأخيرًا استقر في مدينة الرباط، والشيخ محمد الفاضل بن عاشور، والأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب - رئيس المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، ومن تونس الشيخ راشد الغنوشي زعيم حركة النهضة التونسية. ومن عُمان فضيلة المفتي الشيخ السيابي وغيره. ومن ماليزيا السيد أنور إبراهيم، ومن تركيا الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو، والشيخ محمد أمين سراج تلميذ الشيخ

= من المؤلفات: خواطر الشعراوي، ومعجزة القرآن، وخواطر قرآنية، والسيوط والإسكان، ونهاية العالم، والظلم والظالمون، والإنسان الكامل محمد ﷺ وغيرها، (اطلعت عليه بتاريخ 2018/03/01: <https://ar.wikipedia.org/wiki/متولي/الشعراوي>).

(¹) ولد الأستاذ الدكتور علي عشري زايد سنة 1937م، وتخرج في كلية دار العلوم بتقدير ممتاز سنة 1963م، وعين بها معيداً. وحصل على الماجستير في البلاغة والنقد الأدبي بتقدير ممتاز سنة 1968م، ثم حصل على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى عام 1974م، وصار أستاذًا مساعدًا عام 1980م، وسافر في مهمة علمية إلى فرنسا لمدة عامين، وأعيد إلى الجامعة الإسلامية العلمية بإسلام آباد، وشارك في تأسيس معهد اللغات عام 1982م، وكان أول مدير له، ثم اشترك في إنشاء كلية اللغة العربية وكان أول عميد لها إلى سنة 1992م، وقضى في باكستان عشر سنوات. وأضاف بعض الكتب - بأسلوبه المتميز - إلى مكتبة الأدب والنقد والبلاغة، مثل: "النقد الأدبي والبلاغة في القرنين الثاني والثالث الهجريين"، و"عن ساء القصيدة العربية الحديثة"، و"استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر"، كما كان له صلة بأدبية العراق الشاعرة "نارك الملائكة" (ت: 2007)، وكانت بينهما مراسلة أدبية عميقة ونقدية، وتوفي عام 2003م. (انظر: حياقي في حكاياتي، ص 308-315).

مُحمَّد زاهد الكوثري، والدكتور غالب ياووز الأستاذ بكلية الشريعة، والأستاذ عمر الفاروق الذي يرأس إحدى مؤسسات الإغاثة ذات النشاط الواسع في المجالات الإنسانية بمدينة إستانبول، كما ذكر علماً من علماء إيران هو الشيخ تقي القمي بـ"قم". والدكتور فان إس الألماني⁽¹⁾، والأستاذة آنا ماري شميل⁽²⁾، وجمالة الملك مُحمَّد السادس من المغرب وغيرهم ...

وكذلك خصص بعض الحكايات للحديث عن رجال من عامة الناس - الذين كانت لهم علاقة وطيدة بالشيخ - مثل: الشيخ خربوش، الذي كان مجرد بائع كتب قديمة، وخبيراً بها، مُحباً لها، مستمتعاً بخدمتها، وكان درويشاً لا يعبأ بالمال، ولا بالمجاملات المصطنعة⁽³⁾، كما خصص بعض الحكايات للحديث عن زملائه؛ مثل الحكاية رقم 41 التي خصصها

(¹) ولد البروفيسور الألماني الجنسية يوزيف فان إس (Josef van Ess) 18 إبريل 1934م في مدينة آخن، وهو مستشرق ومتخصص في الدراسات الإسلامية. حصل على الدكتوراه في التصوف الإسلامي وتخرج من جامعة بون سنة 1959م، كما حصل على شهادة التأهيل للأستاذية من جامعة غوته في فرانكفورت سنة 1964م، ودرس في جامعة إيرهارد كارل في توبنغن حتى تقاعد سنة 1999م، كما درس أستاذاً زائراً في الجامعة الأمريكية في بيروت سنة 1968م، وقد كتب العديد من الكتب باللغة الألمانية وترجم بعضها إلى العربية مثل: "علم الكلام والمجتمع في القرنين الثاني والثالث للهجرة"، و"تاريخ الفكر الديني في بواكير الإسلام". (بتاريخ 7 أكتوبر 2016م: يوزيف-فان-إس/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/يوزيف-فان-إس>).

(²) هي من أشهر المستشرقين الألمان على المستوى الدولي، ولدت عام 1922م، في مدينة إرفورت بألمانيا، لعائلة تنتمي إلى الطبقة الوسطى. وقد نشأت كطفلة وحيدة في جو تسيطر عليه غبطة الحياة وحب الشعر. وكانت منذ طفولتها شغوفة بكل ما يتعلق بالشرق، ومعجبة بكل ما هو روحي وصوفي في الإسلام والأديان الشرقية الأخرى. وبدأت في تعلم العربية منذ وقت مبكر، وقد تلقت إلى جانب العربية دروساً في مبادئ الدين والتاريخ الإسلاميين. وإلى جانب ذلك كانت تتعلم الفارسية والتركية وكذلك الأردية، وحصلت على الدكتوراه حول: "مكانة علماء الدين في المجتمع المملوكي". وقد حصلت في عام 1951م على دكتوراه الثانية عن: "مصطلح الحب الصوفي في الإسلام"، ثم قامت بترجمة مقاطع طويلة من مقدمة ابن خلدون، وقد درست في "كلية الإلهيات" في جامعة أنقرة، كما درست في مدرسة اللغات الإنجليزية للوافدين بلندن، واقتربت إلى الإسلام وتأثرت به، وتوفيت في مدينة بون 26 من يناير 2003م. (انظر: شرق وغرب: حياتي الغرب - شرقية: الدكتورة آنا ماري شميل، ترجمة الدكتور عبد السلام حيدر، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2004م. وحياتي في حكاياتي، ص165، و305 و379).

(³) انظر: حياتي في حكاياتي للأستاذ الدكتور حسن الشافعي، ص133.

"للحنكبار"⁽¹⁾، الذي كان زميلا له في المدرسة ثم في الجامعة. لُقّب الأستاذ محمود بـ"الحنكبار"، لتفنته في إغواء البنات، وزواجه فور تخرجه واستلامه للعمل⁽²⁾. وفي الحكاية الأولى من سيرته يذكر - الأوسطى - الذي كان يعمل في كَيّ الثياب، في دكانه عند قصر عابدين، أمام حارة "التمساح"، ونهاية درب الحجر، وقد ذهب الدكتور حسن الشافعي إليه - وكان صغيرا - يحمل قميص أخيه حتى يكويه له، ويفرح الشافعي بشعور "الأوسطى" حين يكلم رفيقا له عن: "إسماعيل باشا أبو جبل - أحد قادة الحرس الملكي من أصل سوداني" ويلقبه الأوسطى: بـ"منقذ مصر"، فنحن نرى أن "الأوسطى" رجل من عامة الناس وليس من الخاصة، ولكنه يذكره في غرة سيرته الذاتية⁽³⁾.

والموضوع الثاني الذي اهتم به الشيخ في حكاياته هو الحديث عن بعض الهيئات والمؤسسات الحكومية المختلفة وما تقوم به من أمور. مثل الحكاية رقم 32: التي خصصها الشيخ للحديث عن مستشفيات القاهرة، وما يتعلق بها من شئون المرضى والعلاج. وحكايتي "في السجون"، و"في المعتقلات"، اللتين يلقي فيهما الشيخ بعض الأضواء على الفظائع والأهوال التي تقشعر لها الأبدان، والتي يزرع تحتها السجناء السياسيون.

كما تناول في بعض الحكايات تجاربه المتنوعة، خلال مراحل حياته؛ وهو يذكرها في حكايات مختلفة، فإن الشيخ - كما يظهر - من سيرته الذاتية دَرَس في هيئات تعليمية

(1) أي الخبير المزعوم بشئون النساء. كان الأستاذ محمود يزعم بأنه خبير ومرجع كبير في شئون النساء، مثل حياء التحليل الاستراتيجي الآن، وربما يستشهد على ذلك بشأته في مدية المصورة العامة بالجميلات، لذلك أطلق عليه هذا اللقب.

(انظر: حياي في حكاياتي، ص 175)

(2) انظر: المصدر نفسه.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 7.

مختلفة، كما قام بالتدريس في مؤسسات تعليمية متنوعة إلى جانب المناصب المرموقة التي شغلها في أماكن مختلفة وبلاد متباينة وحصل بذلك خبرة واسعة في ميدان التعليم.

وقد عنون الحكاية رقم 38 بـ"مع المعلمين والشيخ"، والحكاية رقم 61 بـ"مع المعلمين والأساتذة - مرة أخرى"، وحكاية رقم 75 بـ"في تجربة التعليم - مرة أخرى"⁽¹⁾، وتناول في الأولى؛ سمات الأساتذة وقسمهم إلى قسمين رئيسيين: "أولهما الذي يُجيد التأليف والإبداع الفكري، وقد يكون في المحاضرة والإلقاء الشفوي عادياً بل متواضعاً أحياناً، وثانيهما من يبرع في المحاضرة والإلقاء، ويتمتع بحضور متميز أمام الجمهور، وحظه من الإبداع الفكري وجودة التأليف محدود، وقل من رزقه الله البراعة في الجانبين"⁽²⁾. ثم يواصل في الموضوع نفسه فيذكر مَنْ له البراعة والمهارة في الجانبين؛ فيقول: "... يجمعون بين براعة التأليف والإبداع الفكري، وقوة الحضور الشخصي وجودة الإلقاء والتواصل المباشر مع جمهور المتلقين، هم في العادة أقل عدداً من الفئتين السابقتين"⁽³⁾. وفي الحكاية رقم 61، تحدث عن كيفية التدريس لدى بعض شيوخه، فمثلاً: عندما تكلم عن شيخه فضيلة الأستاذ محمد السنوسي، أستاذه الأول لمادة "علم التوحيد" في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، قال عنه: "فقد كان بحراً في علم الكلام لا ساحل له"⁽⁴⁾، ثم يُخبرنا بأنه كان "يدخل غرفة التدريس، فيسند عصاه إلى الحائط في ركن منه، ثم يجلس ولا يرجع إلى متن أو حاشية بين يديه أبداً، فكلها حاضرة أمام عقله، ثابتة بتفاصيل أدلتها ومناقشاتها ونقدها ... على دقة المسائل وعمق الأفكار التي

(1) انظر: المصدر السابق، ص 162-166، و 303-307، و 362-366.

(2) حياي في حكاياتي: ص 162.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر السابق: ص 305.

تحتويها ...⁽¹⁾. ثم يستمر في وصف طريقة مدرسيه في الدراسة، فيذكر شيخه: "الشيخ أحمد بن علي أحمد بن علي⁽²⁾ الذي درس لي علوم الحديث بها عام 1953م، وكان شديد التمكن فيها برغم تخصصه الدقيق في التفسير وعلوم القرآن الكريم ... ومن تجديده التي لم أرها لغيره في فنون الحديث، أنه حول الشروط القيمة المعنوية لأنواع الحديث، من صحيح وحسن وضعيف، إلى تقديرات رقمية، بنسب مئوية تكشف عن منهج علماء السنة في فحص الأحاديث سنداً ومتناً ما بين القرنين الثاني والخامس الهجريين ..."⁽³⁾.

وفي الحكاية رقم 75 تحدث عن مهنة التعليم، وأنها مهنة أبيه وخمسة من إخوته قدر الله لهم الاشتغال بالتعليم. ثم يخبرنا بحبه لهذه المهنة المباركة، كما يشير إلى الحديث النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام -: «كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن، ويدعون الله، فإن شاء أعطاهم، وإن شاء منعهم، وهؤلاء يتعلمون ويعلمون، وإنما بعثت معلماً» فجلس معهم⁽⁴⁾. ثم يقول: إنه درس أكثر من نصف قرن، ووجد شواهد مرضية له بل ممتعة، في مراحل عمله بالتعليم. ومنها، أولاً: "القدرة على التواصل النفسي والروحي مع طلابي الشباب، لمست ذلك فيهم وأنا بعيد، وأحسست يوم كنت رئيساً للجامعة⁽⁵⁾، أنه لا بد لي أن أقوم بالتدريس -

⁽¹⁾ حياتي في حكاياتي، ص 305.

⁽²⁾ اسم الشيخ على صفحة مطبوعاته: محمد علي أحمد بن علي، وليس "أحمد بن علي أحمد بن علي" كما سجله الدكتور حسن الشافعي في سيرته الذاتية، (انظر: حياتي في حكاياتي، ص 306، وكذلك غلاف كتاب: "ضوء القمر على نخلة الفكر" لمحمد علي أحمد بن علي، ط 2، دار المعارف - مصر، 1958م).

⁽³⁾ حياتي في حكاياتي، ص 306.

⁽⁴⁾ أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، كتاب الإيمان، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، 83/1، رقم الحديث: 229.

⁽⁵⁾ هي الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، وقد كان الدكتور حسن الشافعي رئيساً لها منذ العام 1998م إلى العام 2004م.

في الوقت نفسه - لأستبقي صلتني بالمهنة وصلاتي بالعديد من طلابي في العديد من البلاد، الذين هم أعظم أرصدتي المعنوية، ومصادر اعتزازي المهني"⁽¹⁾. والثاني: "أنني أشفق عادة على طلابي، وأسعى لتخفيف أعبائهم، وأقدم لهم أحيانا جهودا إضافية، ومطبوعات مساعدة مجانية، لتعينهم على استيعاب المادة العلمية التي أشرحها لهم"⁽²⁾. والثالث: "أنني لا أبغضهم - إن لم أنجح في كسب محبتهم - في المادة التي تخصصت فيها واحترفت تقديمها للطلاب، ورعاية الباحثين في إطارها، وإعدادهم لتلك المهمة الدقيقة، مهمة البحث العلمي في إطارها"⁽³⁾.

ثم يتحدث بكل تواضع: "لكنني لست على يقين من أنني مفهوم تماما لطلابي، وأني أقدم لهم المعلومات بالطريقة المثلى في نظرهم هم، وأني أتصرف في قاعة الدرس كمعلم وليس كمحاضر، وأن لدي مهارات الشرح والتمثيل، وفهم أسئلة الطلاب، وحسن الإجابة عنها، واستخدام الإمكانيات التقليدية كالسبورة ونحوها"⁽⁴⁾.

ويقدم لنا بعض الأعلام من شيوخه من المستوى النموذجي في التدريس: "كالأستاذ علي النجدي ناصف الأستاذ النموذجي حقا، لعلم النحو بكلية دار العلوم: لا من حيث الاستيعاب النظري للمادة وأعماقها فحسب، بل في أساليب التقديم النموذجي في الشرح والبيان. وكالأستاذة لاميتون، بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، والأستاذة أنا ماري شميل مديرة مدرسة اللغات الإنجليزية للوافدين بلندن"⁽⁵⁾.

(1) حياتي في حكاياتي: ص 362-363.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه.

(5) المصدر السابق: ص 279، و 363-364.

ويذكر المؤلف مهمة المعلم الجامعي وواجباته - نحو التعليم والمتعلم - لمستقبل العالم، فيقول: "إن التعليم هو نافذة المستقبل لنا جميعا على المستوى الوطني والإقليمي والعالمي، وإذا كانت مهمة المعلم فيما دون التعليم الجامعي: هي إعداد الطلاب وتزويدهم على كسب المعرفة واستشارة مصادرها المختلفة بأنفسهم وتبسيط حقائقها لهم، على نحو يعينهم على المضي إلى ما هو أعمق وأبعد، وتحبيبها إليهم، واكتشاف الموهوبين منهم، ومتابعة بعضهم على الأقل في مراحلها اللاحقة ... وهي كما ترى مهام ثقال، ربما كانت أخطر وأحوج إلى الموهبة والإخلاص، من حاجة العاملين في المستويات اللاحقة. إذا كان الأمر كذلك فإن مهمة أستاذ الجامعة: هي المشاركة في تطوير المعرفة، وتقديم المستقر منها إلى الطلاب، بجانب دفعهم إلى التعود على استكشاف مناطق جديدة لها وبناء الباحثين الجدد الذين يخلقونه في مهمته، وربما شاركوا في قيادة العلم، في مجالاته الإنسانية والروحية والتجريبية على مستوى العالم"⁽¹⁾.

كما خصص بعض الحكايات لبعض الحوادث المهمة التي وقعت في مصر وخارجها وكان له دور فيها أو له صلة بها أو أنها أثرت في حياته؛ مثل: يوم حريق القاهرة⁽²⁾، والتصفيق

(1) حياتي في حكاياتي: ص 364-365.

(2) في 26 يناير 1952م أحرق مجهولون مدينة القاهرة، ورغم مرور 67 عاما على هذه الجريمة، فلا يزال الفاعل مجهولا. شهد ذلك اليوم الرهيب أحداثا لم يقع لها مثل في تاريخ مصر كله، لا من قبل ولا من بعد، فجأة وفي عز الظهر أشعلت النار في ميدان الأوبرا، وجاءت المطافي بسياراتها وحراطيمها .. لكنها عندما حاولت أن تطفئ النار معها بعض الناس ومرفقوا الحراطيم لتزداد النار اشتعالا، لكن كانت النار تشتعل في أماكن مختلفة وصل عددها إلى سعمائة تقريبا! وكان هذا شيئا مروعاً .. ففيما بين الساعة الثانية عشر والصف والسادسة والنصف تقريبا كانت النار تلتهم 700 محل. بينها أكبر محلات وفنادق ودور السينما والملاهي، وحسرت البلاد عشرات الملايين من الجسيهات .. كما بلغ عدد القتلى يومها 26 شخصا. وعدد المصابين بالحروق والكسور 552 شخصا. (للمزيد عن حريق القاهرة، انظر: حريق القاهرة في الوثائق السرية البريطانية لمحمد مصطفى، دار الهلال - القاهرة، 1996م، ص 21 وما بعدها، وحريق القاهرة: قرار اتهام حديد لجمال الشرفاوي، مكتبة الآداب - القاهرة، 1972م، ص 26 وما بعدها، وحريق القاهرة للدكتور محمد أنيس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 1972م، ص 7 وما بعدها).

عند الكعبة، فيصف في كل منهما؛ ما وقع من الحوادث المهمة، مثل ما ذكره الأستاذ الشافعي عن الحادثة الأولى قائلا: "والنار تشتغل في بعض أبنية شارع فؤاد - 26 يوليو - وغيره، تلك الأحداث من التاريخ المصري القريب، التي مازالت غامضة في بعض جوانبها"، بسبب الاحتلال الإنجليزي، لأن الشعب ثار ضد الاحتلال الغاشم، وقد شهدت هذه الفترة استشهاد الشابين عمر شاهين وأحمد المنيسي، وكان لاستشهادهما أثر كبير في القاهرة، التي كانت تتفجر غضبا ضد القوات المحتلة، وتمر بفترة المخاض التي تولدت عنها بعد أشهر قليلة ثورة 23 يوليو 1952م⁽¹⁾.

والحكاية رقم 19 بعنوان: "التصفيق عند الكعبة المشرفة"، فهو منظر التقطه الدكتور حسن الشافعي وهو كان في منطقة تواجه "باب الكعبة المشرفة فيما بينها وبين المسعى، بالقرب من بئر زمزم ... وإذا بقادم مهيب من جهة المسعى متوجهاً إلى الكعبة، في ملابس الإحرام"، طويل القامة، رقيق الجسم، أبيض الوجه، خفيف اللحية، "منفرداً" وخلفه بخطوات كوكبة من المرافقين، فلما أمعنا النظر تبين لنا أنه "الملك فيصل بن عبد العزيز"⁽²⁾، فيُخبرنا

(1) حياتي في حكاياتي، ص 34 وما بعدها.

(2) عاهل المملكة العربية السعودية، ودماغ حرية العرب المعكر، ولد في الرياض سنة 1906م. عُرف من أول نشأته بالروية وبعد النظر، فوجه والده توجيها سياسيا، فأوفده في أواخر سنة 1919م، إلى إنجلترا وفرنسا وبلجيكا والمملكة المتحدة الأمريكية وغيرها . . . وشارك في سن معركة في المعارك والأحداث، وقاد الجيش السعودي في تمامه أثناء حرب اليمن، فاحتل ميدي والحديدة وسواها وأقر النظام في الجنوب. وكذلك أقامه والده في سنة 1926م رئيسا للحكومة بمكة، ثم نائبا عاما عنه في الحجاز، وفي نفس السنة أوفده أبوه على رأس بعثة سياسية إلى بريطانيا وفرنسا وهولندا. وتولى عرش المملكة العربية السعودية في عرة نوفمبر 1964م. كان تصور الملك فيصل لدوره في قيادة بلاده، ودور بلاده التي اتخذت أقيسة عالمية في قدراتها وأثر تحركاتها، يدور على ثلاثة محاور؛ الأول: الهوض بالمملكة العربية السعودية، الثاني: إحياء مجد الإسلام الثالث: دعم التضامن العربي والإسلامي والدفاع عن الحقوق المعنصة من العرب والشعور والعمل الأوفيان للنصرة الحقيقية لقصيتهم الأولى؛ قضية فلسطين. (انظر: الوحير في سيرة الملك عبد العزيز لخير الدين الزركلي، ط5، دار العلم للملايين - بيروت 1988م، ص 347، والموسوعة العربية الميسرة: ص 2503).

المؤلف بأنه كان: "حولي طائفة من الناس انطلقوا في حركة تلقائية يصفقون جميعا له". وكان للملك فيصل موقف مختلف تماما عما يجري أمامه. وهو توقف عن المسير ويقف معه الموكب كله، "ويتوجه هو إلى جمهرة الحجاج المصفقين، قائلاً في صوت واضح رصين: "هذا لا يجوز ... هذا لا يجوز. لقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾⁽¹⁾. ثم أضاف: والمكاء الصغير، والتصدية التصفيق. وكرر هذه العبارة ثلاث مرات. ثم مضى إلى الطواف"⁽²⁾. فهو رجل عظيم في الحقيقة لا يخاف إلا الله، وكان مقبولا في العالم الإسلامي، ويخاف منه اليهود والنصارى وأذناهم.

كما حدثت له حادثة أخرى يذكرها في الحكاية رقم 13، بعنوان: "جنيه واحد يعكس القضية"، يذكر فيها أنه كان له ابن عم يدرس في القاهرة، اتهم بأنه اشترك في جريمة مع أصدقائه، فدخل السجن ومكث ليلة فيه، وأخبر الدكتور حسن فانطلق إلى المحكمة وكلف محاميا بالقضية، لأنه سوف يُعرض على النيابة يوم الغد، وأخرج صاحبنا في حياء شديد "جنيه واحد"، "فأخذه الرجل دون حرج أو تعليق" ونجى به المتهم من الشرطة والسجن⁽³⁾.

ويُخبرنا عن حكاية أخرى عنوانها بـ"امتحانان في يوم واحد"، يحكي فيها أنه كان يدرس في آن واحد بكليتين، هما: كلية أصول الدين بالأزهر وكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، فجاء يوم كان له فيه امتحانان في وقت واحد. ثم حلت المشكلة بحضوره في كلتا القاعتين؛ في

(1) سورة الأنفال: 35

(2) حياتي في حكاياتي، ص 87-88.

(3) انظر: للمصدر السابق، ص 53 وما بعدها.

الأولى أقل من نصف الزمن المحدد، وفي الثانية تقريبا نصف الزمن المحدد لفترة الامتحان، فهذه الحادثة كان لها أثر في حياة المؤلف⁽¹⁾.

كما خصص بعض الحكايات ليُخبرنا فيها بأعماله ومناصبه التي تقلب فيها، مثلا الحكاية التي جعلها بعنوان: "مركز شباب عابدين"، تكلم فيها عن شغله منذ مطلع الستينات إذ كان إماما وخطيبا ومدرسا لمدة ثلاث سنوات في مسجد الفتح بعابدين، ثم ذكر أن له أعمالا أخرى قام بها خلال هذه الفترة⁽²⁾.

وأفرد حكاية لما يحدث "في الطائرات والمطارات" داخل مصر وخارجها، لكن المؤلف يشكو من "الإجراءات المعتادة" أو "العقبات الدائمة"، في بلده وخاصة في العودة إليها من الخارج حتى ركاب الرحلات الرسمية يعانون من تلك العقبات. ويستمر في ضرب الأمثلة المختلفة لما تعرض له هو أو بعض معارفه فيقول مثلا: "كنتُ مرة عائدا من أحد البلاد العربية، واحتجرتُ كالمعتاد، وفوجئتُ بالدكتور عبد المنعم أبو الفتوح - وكان أيامها عضوا بمجلس الشعب - يريدون احتجازه، وهو يصرخ فيهم: يحترمنا الناس في كل البلاد، فإذا عدنا إلى وطننا نواجه التفرقة والمعاملة السيئة؟! فاعتذروا له، وخرج ... أما العبد الفقير، فإننا حتى ونحن معارون رسميا من الحكومة المصرية إلى باكستان ... ما دخلنا مصر كما قال الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾⁽³⁾ إلا بعد احتجاج ممل منهج، قد يمتد إلى ساعات

(1) للمصدر السابق، ص 46 وما بعدها.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 191 وما بعدها.

(3) سورة يوسف: 99.

طوال ... للرجال والنساء ... كان هذا في عهد "مبارك"، الذي كانت فيه مصر مرتعا لكل من هب ودب⁽¹⁾، فكان يذكرني بقول شوقي:

أ حرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس

ويشير المؤلف إلى بعض التصرفات التي تصدر من المسافرين أثناء السفر قديما وحديثا ولأن السفر يكشف عن أخلاق الرجال ويبرهن على معدنهم، فينقل ما حدث في مجلس عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد "جاء أحد الشهود إليه، - ولما كان غير معروف له - طلب من يُركيه، فتقدم أحد الرجال للتركية، فسأله سيدنا عمر:

أ هو جارك الأدنى تعرف مُدخله ومُخرجه؟

قال: لا.

فسأله ثانية: هل عاملته بالدرهم والدينار ...؟

فقال: لا.

فسأله ثالثة: هل سافرت معه، فإن السفر يكشف أخلاق الرجال؟

فقال أيضا: لا.

فقال له عمر: لعلك رأيته في المسجد يرفع رأسه ويخفضها؟

فقال الرجل: نعم.

فقال له: اذهب فلست تعرفه⁽²⁾.

ويذكر المؤلف عادات العرب في الأسفار وسلوكهم مع المارين المسافرين؛ ويقول:

"كان العربي القديم يسافر كثيرا، ويقطع الفيافي ويجتاز العقبات والوهاد، لأن الله تعالى وضعهم على طريق أسفار وتجارة دولية، وسياحة دينية، وفرت لهم الأمن، ويختطف الناس من حولهم

(1) حياقي في حكاياتي، ص 261.

(2) انظر: حياقي في حكاياتي، ص 261.

أحيانا ... وقد امتنَّ الله عليهم بذلك وخاصة قريش. ولكن الغريب في الأمر أن المسافرين القديم، في أرجاء الجزيرة، كان أكثر إنسانية وربما أكثر أنسا، على انفراده وتجشمه للصعاب، التي لا أظن أن عرب اليوم يتحملونها أو يتصورونها⁽¹⁾...

كما يُشير إلى بعض التصرفات الغريبة التي وجدها لدى بعض إخوانه العرب الذين يظهرون على حقيقتهم فور صعودهم سلم الطائرة، فقد وجدهم "خلعوا الخِمار والعباءة، وتبدل الحال غير الحال، كأنك ترى أوروبيين كانوا في زيارة لبلاد العرب ... تجذُّ من يُكلِّمك بغير العربية كأنه لا يعرفها، ليثبت ثقافته وحداثته ... ومن يتعالى على مَنْ حوله كأنهم نوعية أخرى من المخلوقات، لما في جيبه من الشيكات. وكأنهم يخلعون جلدتهم وثقافتهم خارج الوطن، ثم يعودون إليها كارهين، أو ينظرون إلى غيرهم في جمود واستعلاء كاذب ..."⁽²⁾.

ويذكر أن الثقافة العربية والإسلامية تشجع على الرحلة والضرب في الأرض لما فيها من الخيرات والعظات ... والأرض كلها مسخرة ميسرة للبشر كافة، ولا ينبغي الإخلاد إلى الأرض إذا هددت الكرامة أو العقيدة، ومَنْ هاجر من أجل ذلك، أو لعلم يطلبه، أو لرزق يسعى إليه، فقد وقع أجره على الله، واسترسل المؤلف في الاستدلال بآيات قرآنية وأحاديث نبوية - على صاحبها الصلاة والسلام - وحكايات السابقين، وطفق يستنبط فوائد الرحلات والزيارات والأسفار من هذه

الأدلة التي ساقها. فقد عرض حديثا: قال أبو الدرداء: ... فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقا يلتمس فيه علما، سهل الله له طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن طالب العلم يستغفر له من في السماء والأرض، حتى الخيتان في الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، إن العلماء

(1) المصدر نفسه.

(2) حياي في حكاياتي، ص 264.

ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»⁽¹⁾. ثم يعلق على الحديث الشريف، ويرى الدكتور حسن الشافعي أن الله سبحانه حث على الرحلة في طلب العلم، ويقول: "إن طالب العلم لا يتجاوب معه ناقته فحسب كجده القديم؟ بل يتجاوب معه كل الكون ... «وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخَيْتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالَمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»⁽²⁾. أو كما ورد في الحديث. وذكر المؤلف كذلك أنه لم يكن غريبا أن يُدفن أصحاب النبي - ﷺ - في أنحاء عديدة متباعدة في آسيا وأوروبا وأفريقيا ...»⁽³⁾.

وخصص الحكاية رقم 60 لرحلاته وزياراته لأنحاء مختلفة من العالم، وهي أطول حكاية في الكتاب من حيث الحيز وعدد الصفحات يتحدث في مطلعها عن أهمية الرحلات وفوائدها الجمة، وذكر في تضاعيفها الرحالة الكبار على مر التاريخ مثل: ابن بطوطة (1304-1377م) وابن جبير (1145م-1217م) والإدريسي (1100-1165م) وابن فضلان (877-960م) وابن ماجد (836-904هـ). ثم أشار إلى الحضارات القديمة المختلفة، وأثرها على العالم وفي نفوس البشرية⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الإمام ابن ماجه في سسه، سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القرويني، (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، ناب فضل العلماء والحث على طلب العلم، 81/1، 223.

(2) المصدر نفسه.

(3) حياتي في حكاياتي، ص 264-265، (تنصرف يسير).

(4) انظر: المصدر السابق، ص 277 وما بعدها.

ولم يكن يخرج المسلمون في الرحلات للمتعة وحدها، بل إما لنشر دينهم وإما لطلب الرزق إذا ضاق في بلدهم، وإما ليزدادوا علما بأحوال البلاد الأخرى فيفيدوا العالم بِبُحوثهم واستكشافهم، وإما ليشاهدوا مناظر الطبيعة وجمالها، فيُغذوا بذلك ملكاتهم الفنية من شعر وقصص. وفصل الأستاذ حسن الشافعي الحديث عن الرحالة الإسلامي الكبير، فلم يرحل إلى ما رحل إليه من البلاد المختلفة للمتعة فحسب وإنما قام ثمة بأعمال جلية ومهام خطيرة، فتارة شغل منصب قاضي القضاة، وتارة أخرى "هو معلم يفتح المدارس ويُشيع المعرفة كما في جزر الباسيفيك بجنوب شرق آسيا. وهو في الوقت نفسه شيخ صوفي ينقل الرسائل الروحية بين مصر والهند وغيرها، وربما حملته الأحوال أن يشتغل بالتجارة لتوفير مصدر رزق له في جولاته المتعاقبة ... وهكذا نرى أن الرحالة هو الرمز الجامع الذي يقوم بهذه الوظائف الحضارية جميعا، حسب حاجة بيئته ... كما جسد ذلك فعلا ابن بطوطة، وذلك هو رمز الحضارة الإسلامية"⁽¹⁾.

ثم يتحدث الشيخ عن بعض رحلاته إلى أنحاء مختلفة من العالم، فيذكر رحلته إلى مكة المكرمة في عام 1971م لأداء فريضة الحج، فيذكر زيارته لبعض المكتبات التي ذهب إليها. كمكتبة شيخ الإسلام حكمت، ويذكر أيضا بعض الأسواق. وبعدها يتحدث عن رحلته إلى مدينة لندن، حيث قضى أربع سنوات وأربعة أشهر لاستكمال درجة الدكتوراه، ويصف زيارته المختلفة إلى الصين، ويُعلن أنه يدعم العلاقات الودية الراسخة بين باكستان والصين، كما ألقى ضوءًا على جغرافية باكستان والبلاد المجاورة لها وعلاقاتها بباكستان. وتحدث عن

(1) حياتي في حكاياتي، ص 278.

أفغانستان التي استمرت فيها الحرب لأكثر من ثلث قرن ولم يذق أهلها طعم الأمن والاستقرار لسنوات طويلة⁽¹⁾.

ويذكر المؤلف أنه كان يهتم شخصيا بالاطلاع على أحوال المناطق المسلمة، خصوصا في جهة الغرب الصيني المجاور لباكستان، وبالأخص قومية "الهوي"، ومؤسساتهم العلمية والجامعية، ومحاولة عقد علاقات بينها وبين الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد ... فقد وجد عونا كبيرا على ذلك من خريجى الجامعة الذين عادوا إلى بلادهم بعد إكمال دراستهم، ويذكر أن دولة الصين لا تستريح إلى إرسال أبنائها للخارج للدراسات الإسلامية إلا إلى باكستان⁽²⁾.

كما تحدث عن مؤتمر عقد في إيران في سنة 2001م بجزيرة كشم، حول فكر ملا صدرا بعنوان: "فلسفة صدر الشيرازي". وتحدث عن استانبول⁽³⁾، وبدأ يسترجع الزمن الذهبي الذي كانت فيه هذه البلاد في أوج حضارتها. ولقد استمر ذلك عدة قرون. وقد قيل

(1) انظر: المصدر السابق، ص282.

(2) المصدر السابق، ص283.

(3) تأسست مدينة إسطنبول أو استنبول عام 658 ق.م، وكانت من قبل قرية للصيادين وعرفت باسم بزنطة، فغير اسمها الإمبراطور الروماني قسطنطين الأول (272-337م)، الذي جعل المدينة عاصمة لإمبراطوريته (306 إلى 337 ميلادياً). كانت تلك التسمية شائعة وأصبحت رسمية بعد ذلك. استخدم العرب والعُرس اسم القسطنطينية، فيما استخدمه العثمانيون في التعاملات المالية والمراسلات الرسمية. وظل العالم يستخدمها لفترة طويلة، حتى بعدما فتحت القسطنطينية على يد القائد السلطان محمد حان الثاني المعروف بـ"محمد الفاتح" سنة 1453م/857هـ، وبعد تمام الفتح؛ نقل السلطان محمد الفاتح عاصمة ملكه من مدينة أدرنة إلى القسطنطينية، وسميت "إسلامبول" أي "تحت الإسلام وعرشه". ومن الأسماء المشهورة التي عُرفت بها المدينة خلال العهد العثماني؛ دار السعادة، والدار العالية، والباب العالي، ومقام العرش، والأسانة، ومركز السلطنة. (انظر: موسوعة 1000 مدينة إسلامية، ص46، وموسوعة المدن العربية والإسلامية، ص305).

فيها: "من تملك هذه البقعة يملك العالم..."⁽¹⁾، وهو البلد الذي شارك بأكبر قدر من صناعة التاريخ للعالم الإسلامي. وهكذا استمر يتحدث عن زيارته لتركيا أكثر من مرة، ثم انتقل إلى الحديث عن رحلته إلى باريس برفقة بعض زملائه وزوجاتهم، ولقائهم ببعض الزملاء الذين يدرسون في هذه العاصمة، مثل: عبد الحميد مذكور، وحامد طاهر، وأحمد درويش، ونجّمة الألفي، ويذكر أنهم صعدوا جميعاً إلى "برج إيفل" كي يستمتعوا بجمال باريس⁽²⁾.

ثم تكلم عن زيارته إلى إسبانيا برفقة زميله الأستاذ الدكتور نجّمة السيد الجليند، بدعوة من جمعية سانت إيجيديو في روما، لمؤتمر في "برشلونة"⁽³⁾، وكان يضم الكثير من العلماء العرب، أمثال الشيخ فيصل مولوي والدكتور عبد الكبير المدغري، والدكتور عز الدين إبراهيم. وعلى هامش المؤتمر قام الشيخ بجولة في المدينة، وشاهد بعض الآثار العربية والوطنية، وتذكر أياماً مجيدة وأخرى أليمة، لأمتنا الإسلامية وحضارتنا التي شاعت هناك وولدت ابن حزم وابن عربي وابن رشد ... في حين كانت أوروبا غارقة في الظلمات، يسودها الجهل وكانت قبائل متحاربة. كما تحدث عن زيارته إلى ألمانيا ومدينة ميونخ ومدينة روما، ووصف ما شاهده هناك من المباني التاريخية والحضارية العريقة⁽⁴⁾.

(1) حياتي في حكاياتي، ص 287.

(2) المصدر السابق، ص 292.

(3) برشلونة (Barcelona) مدينة إسبانية، تقع في الجزء الشمالي الشرقي من شبه جزيرة أيبيريا على شاطئ البحر المتوسط، وهي ثاني أكبر مدينة في إسبانيا من حيث عدد السكان. يبلغ حوالي 1.6 مليون نسمة. تقول بعض الأساطير أن أحد الملوك أسس مدينة برشلونة في المكان الذي توجد فيه برشلونة اليوم. في القرن الخامس عشر قبل الميلاد اتحد الرومان = المنطقة حصناً أو مخيماً لجيوش الدولة. في أوائل القرن الخامس الميلادي سيطر على المنطقة القوط الغربيين المهاجرين لتبته جزيرة أيبيريا ثم فتحها المسلمون في القرن الثامن الميلادي إلا أن لويس بن شارلمان استطاع أن يفتح المدينة عام 801م. (اطلعت عليه بتاريخ: 9 مارس 2017م، <https://ar.wikipedia.org/wiki/برشلونة>)

(4) المصدر السابق، ص 295.

كما خصص حكاية نعرف فيها، كيف يعامل الدكتور حسن الشافعي الناس، ويحل بعض المشاكل، ويأخذ القرارات الضرورية في حينها، ويدبر أمور الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد. إنه يذكر أن سبعة رجال من "المخابرات الباكستانية"، دخلوا عليه - وكان حينئذ نائباً لرئيس الجامعة - وكلموه عن أستاذ⁽¹⁾ كان يدرّس في الجامعة، وكان قد نشر مقالا قبل قدومه إلى باكستان بعدة سنين، تعرض فيه للسيد محمد علي جناح، مؤسس باكستان وأول رئيس لها. وكان الأمر قد دبر بليل، فقد دس بعض الناس لهذا الأستاذ شرا لخلق مشاكل له، واستعانوا على ذلك بالمقال القديم، ولما علم الدكتور حسن بذلك، قال لهم: "يا سادة: هذا رأي أبداه الرجل في بلده، ومنذ عدة سنين، ولو كان قد أبداه في بلدكم، أو حتى هناك بعد إعارته، لقلنا: إنه مغرض، ويهدف إلى فساد العلاقات. لكن المسألة برمتها تاريخية، وفي إعادتها الآن ناحية كيدية طائفية؛ فلا وجه لإثارها إلا العداوة الشخصي، ومن ثم فإني لا أرى أي وجه للتعرض لهذا الأستاذ...". ولما رأوا صلابة الشافعي ومنطقه الواضح في النقاش، قال كبيرهم: "نحن أردنا أن نناقش الأمر معك، ومع الأستاذ نفسه". فأجابهم: "إني لا أرى داعيا لاستدعائه، ومناقشته في الأمر. وقد تداولناه بيننا، وظهرت لكم حقيقته الكيدية". واسترسل الشافعي: "إنكم لو تعرضتم لهذا الأستاذ بأي إجراء غير مناسب، فسأغادر مدينتكم إلى بلدي، قبل أن يركب هو الطائرة إلى بلده"⁽²⁾.

وسجل المؤلف حكاية بعنوان: "الرقم الصديق"، ويذكر فيها حوادث حدثت أو وقائع وقعت، ويكون فيها بالرقم (الثاني)، والمسألة ليست مسألة تفاؤل ولا تشاؤم، ولكنه أمر حدث، وتكرر، وهي ملاحظة لافتة، فأطلق عليه: الرقم الصديق، وهو الرقم الثاني، ويُعدّد الحوادث، فالأولى منها؛ أنه نجح بالمركز الثاني في نتيجة امتحانين بكليتين: أصول الدين بجامعة

(1) لم يتكلم عنه المؤلف، ولم ينسِر إلى أية معلومات عنه، إلا أنه من فلسطين.

(2) حياتي في حكاياتي، ص 92-94.

الأزهر ودار العلوم بجامعة القاهرة معا. والثانية: أنه تولى منصب "الرجل الثاني" في الهيكل الإداري بالجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، أول الأمر عندما جاء مجموعة من الأساتذة المصريين إلى إسلام آباد سنة 1982م، وبدأوا بوضع مناهجها وأنظمتها بدءًا من الصفر، وكان نائباً لرئيس الجامعة، وكان الرئيس حينئذ الدكتور حسين حامد حسان⁽¹⁾.

والثالثة: لما عاد المؤلف إلى مصر سنة 1990م - من فترة إعارته الأولى - عمل وكيلاً لكلية دار العلوم بجامعة القاهرة بضع سنين أثناء عمادة الدكتور محمد البلتاجي لكلية.

والرابعة: كان الرئيس الثاني للجامعة الإسلامية إسلام آباد، خلفاً للدكتور حسين حامد حسان من سنة 1998 إلى سنة 2004م.

ويقول المؤلف: "لو مضيت أخبركم بوقائع عديدة في حياتي الشخصية فستجدون هذا الموقع أو هذه الثنائية، أو هذا الرقم الذي اعتبرته صديقاً والذي أوّلّه أحد زملائي مجاملاً بمقام الصديقية ... والله في خلقه شئون"⁽²⁾.

(¹) أحد أبرز فقهاء ورواد الصناعة المالية الإسلامية، وهو خير قانوني ودستوري، ولد عام 1932م في مصر. وحصل على الليسانس من كلية الحقوق بجامعة القاهرة، كما حصل على دبلوم القانون المقارن عام 1963م والماجستير من المعهد الدولي للقانون المقارن بجامعة نيويورك عام 1965م، وعلى الشهادة العالية البكالوريوس من كلية الشريعة بجامعة الأزهر، ثم الدكتوراه من كلية الشريعة في العقه وأصوله عام 1966م، وساهم في تأسيس جامعات عدة، ودّرس في عددٍ منها، مثل: ليبيا ومكة المكرمة وحدة وإسلام آباد وكاراكستان. وعَمِلَ مستشاراً قانونياً واقتصادياً لبعض الهيئات والمنظمات الدولية وساهم في إعداد دساتيرها وقوانينها. كما ساهم في حركة البنوك والمؤسسات المالية الإسلامية منذ إنشائها، وتولى رئاسة وعضوية مجموعة من هيئات الرقابة الشرعية للمصارف والمؤسسات المالية الإسلامية حول العالم، بالإضافة إلى رئاسته وعضويته للمجامع الفقهية حول العالم. كما تمت إعارته لإنشاء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد عام 1979م، وتولى رئاستها لمدة أربعة عشر عاماً، وقدم عدداً من الكتب والبحوث في مجالات القانون والشريعة والاقتصاد والبيوك والإعلام الإسلامي. (اطلعت عليه تاريخ 11 يناير 2016م: <http://www.hussem-hamed.com>)

(²) حياتي في حكاياتي، ص 82.

ثم يُصبح الرجل الأول عندما أصدر مجلس أمناء الجامعة - الإسلامية العالمية - القرار الجماعي أن يعود إليها رئيساً لها ... كما أنه أول أزهرى يُنتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، سنة 2012م⁽¹⁾.

كما نرى أن المؤلف خصص بعض الحكايات لحوادث غريبة وقعت له، ولم يكن يُدرك ما الذي يحدث، وماذا يجري له، لأنه لم يكن يعي ما يحدث له بالضبط، يقول: "شعرتُ لمدة يومين كاملين، كما لو كنت «شخصين»، أحدهما يدور في مصالحه بشوارع القاهرة، ويقضي مهامه، ويحضر دروسه، وهو نفسه في الوقت نفسه راقِد طول الوقت، عند عتبة مسجد الإمام الحسين بالقاهرة، ممدداً يمر فوقى الداخلون، وربما نفخ أحدهم تراب حذائه فوقى، ذلك الشخص الثاني أو الأول لا أدري، وإن كان التراب لا يصل إليّ، ولكني واع بذلك، دون أن يتداخل أو يتقاطع ذلك مع شخصي المتحرك في شئون حياتي العادية حينذاك ... ثم رفع عني هذا الإحساس، وجمع الله أمري في "واحد صحيح" كما كنت امرأ عادياً قبل هذه الظاهرة"⁽²⁾. كيف حدث له هذا لا يدري، وربما ظن البعض أنه مريض ولكن ليس كذلك، وربما ظن البعض أنه من المخرفين أو المروجين للأباطيل ... ويقول المؤلف بأنه كتم هذه الحادثة عقوداً عدة، إلا عن شيخه الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق، وعندما أخبره بها، ما زاد على أن قال له: "هذا مكان مبارك، يقصد مسجد الإمام الحسين ﷺ"⁽³⁾.

ويحكى في نفس الحكاية قصة أخرى؛ رآها في المنام، وهي أنه يلتقي بصحبة أحد شيوخه وهو الدكتور علي سامي النشار بابن عربي، ويدعوانه إلى زيارة مصر، حيث يوجد

(1) انظر: المصدر السابق، ص 82، و 257، (وكذلك راجع: مجمع-اللغة-العربية-بالقاهرة/ <https://ar.wikipedia.org/wiki>)

(2) حياتي في حكاياتي، ص 84.

(3) المصدر نفسه.

أستاذ يهتم كثيرا بابن عربي وبمؤلفاته، فيرد عليهما ابن عربي قائلا: "لقد زرنا مصر مرتين، ولن نأتي مرة أخرى؛ لأن من ننزل عليهم فيها قد يؤذون بسبب ذلك، ولا نحب أن يلحق بهم أي أذى". ويستكمل المؤلف الحلم، بتدخل الدكتور النشار قائلا: "هذا حسن، كويس ... ادع له، فرفع ابن عربي يديه، وأخذ يتلو سورة الفاتحة، ونحن نتابعه، حتى قال آمين". ولما حكى المؤلف هذه الرؤيا على أستاذه الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، أجابه بـ"أن الشيخ (ابن عربي) فعلا قد زار مصر مرتين، أولاهما عندما مر بها في بدء رحلته إلى المشرق، والأخرى وقع له فيها مع شيوخها وقائع، ولم يزر مصر بعد ذلك. وأضاف إن تأويل الرؤيا التي تتضمن شيئا من القرآن هو معنى ما فيها من القرآن الكريم"⁽¹⁾.

وفي الكتاب حكاية بعنوان: "كلمات هادية" تكلم فيها المؤلف عن تأثيره بكلمات بارزة في مراحل من حياته، تتدخل في اختيار مواقفه، وتتسرب إلى وجدانه، وتصحبه حتى لو نسيها أو نسي ألفاظها. فإن هذه الأفكار كالأشخاص يمارس كل منها دوره في ميدانه، كما يرى بعض المفكرين. ويسرد المؤلف بعض الجُجُم التي أثرت في نفسه، وخاصة في سلوكه ومواقفه، ومنها:

1. العلم كثير؛ فخذ منه ما ينفعك.
2. لا تقل: إني أكره فلانا - حتى لو كان عاصيا - وقل: إني أكره عمله.
3. الوقت هو الحياة، والواجبات أكثر من الأوقات.
4. لا يوجد خطأ عقيم.
5. لا تختبر أصدقاءك - في وقت الضيق - فرما فقدتهم جميعا.
6. صَدِيقُكَ مَنْ صَدَّقَكَ، لا مَنْ صَدَّقَكَ.

(¹) المصدر السابق، ص 84-86.

7. إن ديننا حياة، فلنجعل حياتنا ديناً.
 8. إن ديننا يقوم على كلمة التوحيد، وعلى توحيد الكلمة.
 9. إذا كنت في قوم، فلا تقدم نفسك عليهم، حتى يقدموك هم؛ عرفانا بفضلك.
 10. الهدف لا يبرر الوسيلة.
 11. كل شيء يقل بالإنفاق، إلا العلم؛ فإنه بالإنفاق يزيد.
 12. الحب هو التضحية.
 13. آخر ما يخرج من قلوب الأصفياء؛ حُب الرئاسة.
 14. ليس مَنْ طلب الحق ففقدته كمن طلب الباطل فوجده.
 15. تَعَسَ عبد الدينار، تَعَسَ عبد الدرهم.
 16. لا يَمْنَعُنْ أَحَدُكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِالْحَقِّ، إِذَا رَأَاهُ أَوْ عِلِمَهُ.
 17. وقول سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه: «خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت؟»⁽¹⁾.
- وبعدها حكاية متصلة أخرى مليئة بالأشعار التي أثرت في المؤلف كما أثرت الحكم والوصايا الماثورة فيه، وعنونها بـ "وأشعار سامية"⁽²⁾. ومنها [من بحر الوافر]:

وَكَمْ لِلَّهِ مِنْ لُطْفٍ خَفِيٍّ	يَدِقُّ خَفَاهُ عَنْ فَهْمِ الذَّكِيِّ
وَكَمْ هَمٍّ تُسَاءُ بِهِ صَبَاحاً	وتعقبه المَسْرَّةُ فِي الْعَشِيِّ
وَكَمْ يُسِرُّ أَتَى مِنْ بَعْدِ عُسْرِ	فَقَرَّجَ كَرْبَهُ الْقَلْبُ الشَّجِيَّ

(¹) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه: الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسنه وأيامه، ط: 1، كتاب الأدب، باب حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، 14/8، حديث: 6038.

(²) المصدر السابق، ص 117.

إِذَا ضَاكَتْ بِكَ الْأَحْوَالُ يَوْمًا فَتَقِ بِالْوَاحِدِ الْفَرْدِ الْعَلِيِّ⁽¹⁾

والبيت الذي كان يردده الشيخ مُجَدُّ الغزالي ضمن قصيدة طويلة عن الأخلاق العربية:

وَأَغْضُ طَرْفِي عَنْ مُحَاسِنِ جَارَتِي حَتَّى يُسَوِّرِي جَارَتِي مَاوَاهَا⁽²⁾

والقطعة التي حفظها عن أبيه قبل دخوله الأزهر، وهو في الكتاب، عن الأخلاق العربية

أيضاً، وقد قرأها بعد ذلك في ديوان الحماسة، وهي لمقنع الكندي [من بحر الطويل]:

وَإِنَّ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي وَبَيْنَ بَنِي عَمِّي لَمُخْتَلِفٌ جَدًّا
فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَرَزْتُ لِحُومَهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
وَإِنْ رَجَرُوا طَيْرًا بِنَحْسٍ تَمُرُّ بِي رَجَرْتُ لَهُمْ طَيْرًا تَمُرُّ بِهِمْ سَعْدًا

(¹) والأبيات المذكورة - من بحر الوافر - منسوبة إلى أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب عليه السلام. (ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، [جمع وترتيب] عبد العزيز الكرم، ط1، (اسم الدار ليس مذكوراً) 1988م، ص217).
والديوان المنسوب إلى الخليفة الراشد علي عليه السلام، لا يحتوي على أي دليل على نسبته إليه؛ وإنما عامة أبياته مجموعة من كتب الأدب والأسمار والمواظظ خالية من أسانيد تثبت نسبتها إلى علي عليه السلام، وكثير منه يستبعد نسبته إليه، وهذا الحكم هو الذي تتابع عليه الباحثون والدارسون لهذا الديوان، قال خير الدين الزركلي: "أما ما يرويه أصحاب الأفاضل من شعره وما جمعه وسموه ديوان علي بن أبي طالب": فمعظمه، أو كله: مذكوس عليه". (الأعلام 4/296).

(²) البيت لعنترة بن شداد، والقصيدة من بحر الكامل، (هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي، توفي قبل الهجرة نائين وعشرين عاماً، فارس من أشهر فرسان العرب، وشاعر شهير من شعراء المعلقات، اشتهر بنبل أخلاقه، وبجبه العفيف لابنة عمه علة، وعزله فيها، واجه اصطهاداً في قومه أول أمره بسبب سواد لونه المنتقل إليه من أمه الحبشية، ثم اعترفوا به لمواقفه وشجاعته، وتروى عنه قصص وحكايات كثيرة، وبعضها محل نظر، عاش ربما طويلاً، ومات مقتولاً، وقيل: مات يرداً وكان قد أسن). (الشعر والشعراء لاس قنينة، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، 2003م، 1/243).

وَلَا أَحْمِلُ الْحِقْدَ الْقَدِيمَ عَلَيْهِمْ وَلَيْسَ رَيْسُ الْقَوْمِ مَنْ يَحْمِلُ الْحِقْدَ⁽¹⁾

ومنها قول المتنبي من بحر الوافر:

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرْفِ مَرُومٍ فَلَا تُقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ⁽²⁾

وقوله: من بحر الرجز:

مَنْ يَهْنُ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ مَا لُجُحٌ بِمَيِّتٍ إِلَّا مِثْلُ⁽³⁾

وقوله أيضاً:

إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ وَقَدْ قَدَرُوا أَنْ لَا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ⁽⁴⁾

وقول أحمد شوقي من بحر الكامل، أمير الشعراء في العصر الحديث، في همزته عن المصطفى - ﷺ -:

وَإِذَا رَحِمْتَ فَأَنْتَ أَمْ أَوْ أَبٌ هَذَا فِي الدُّنْيَا هُمَا الرَّحْمَاءُ
وَإِذَا حَاطَبْتَ فَلِمَنْ أَيْرِ هِزَّةً تَعْرِو النَّدَى وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ⁽⁵⁾

(¹) انظر: شعر المقتع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة: للدكتور سامي ركي منصور، [نشر في مجلة] حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، العدد: الحولية الثانية والثلاثون، 1432هـ/2011م، كلية التربية - جامعة ططا، مصر، ص104.

(²) ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، 1983م، ص232.

(³) اللامع العريزي شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، (ب.ت)، ص1216.

(⁴) انظر: المصدر السابق، ص1168.

(⁵) انظر: شوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م، ص42.

وقول قطري بن الفُجاءة⁽¹⁾ من بحر الوافر:

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً	مِنَ الْأَبْطَالِ وَيُحَكِّ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ	عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبِيراً فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبِيراً	فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ يُمَسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ بِثَوْبِ عِزٍّ	فَيُطَوَى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْيُرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ	فَدَاعِيَّتُهُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي

وعنون حكاية أخرى بعنوان "على أن يكون علمك لنا"، ويُخبرنا فيها ببعض تجاربه الروحية والنفسية، التي عرضت له في ظروف ومراحل مختلفة من حياته، فمثلاً: يقدم لنا ما جرى له في يوم مناقشته لمرحلة الماجستير، فعندما خرج وأدى صلاة العصر في مسجد السيدة زينب عليها السلام، ومَرَّ على الضريح ووقف خارجه أمام نافذة بجوار الباب، قرأ سورة الفاتحة، ودعا الله بالتيسير فيما هو مُقَدِّم عليه تلك الليلة، وأنه وكذلك: "وإذا بصوت واضح تماماً؛ داخل أذني، لا أعرف مصدره، ولكنه محدد الحروف والكلمات، واضح اللفظ والمعنى، يقول لي هذه العبارة ... «على أن يكون علمك لنا»"⁽²⁾. كلمات واضحة تماماً، وانطبعت في نفسه منذ ذلك الحين دون زيادة حرف واحد أو نقصه. ويحفظها منذ نصف قرن من الزمان تقريبا، ومضى على طريق دعوي سليم، فحرص على إشاعة المعرفة بين الناس، وقد يسر الله له إنجاز بحوثه الضرورية للنجاح في مناصب العمل وتدرجه بها. لأن جملة "علمك لنا" أي ما يتاح لك

(1) قطري بن الفُجاءة، اسمه جعونة بن مارن الكسائي المارني النبطي: من رؤساء الأزارقة (الحوارج) وأبطالهم، من أهل قطر بقرب البحرين، كان خطيباً فارساً شاعراً، استفحل أمره في زمن مصعب بن الزبير، وكان فصيحاً مفوهاً وسيداً عزيزاً، قتل وحيء برأسه إلى الحجاج، وذلك في سنة 78هـ. (ينظر: الأعلام للزركلي: 200/5).

(2) حياي في حكاياي، ص 179-180.

من علم ومعرفة ينبغي أن تكون في خدمة الناس، وامش موقفاً يكن الله معك وفي عونك. وقد تحقق للشيخ من هذا التوفيق والوعد الرباني، فظل ينشر العلم والمعرفة هادياً إلى طريق الخير والصواب. وإلى يومنا هذا يقدم الشيخ دروساً ومحاضرات في الجامع الأزهر وغيره، أسأل الله أن يبارك له في عمره وصحته⁽¹⁾. كما أنه مازال ينشر بحوثه وكتبه ولا يحصل في مقابلها على شيء في معظم الأحيان لأنه تعود على فكرة "وقف البحوث والدراسات"، وكذلك يقدم خدمات جليلة - مجانية - في نشر التعليم خاصة في القرى الريفية، وأنشأ هناك مكتبة ومدارس ومراكز للبحث⁽²⁾، ومدرسة متميزة بقرنته لجميع المراحل دون الجامعية⁽³⁾.

كما خصص حكاية بعنوان: "مناجاة العوام لمولاهم عز وجل"، حول عامة الناس عندما يدعون ربهم ويطلبون رحمته ومغفرته، ويتضرعون له عز وجل، كل عبد بطريقته يدعوه، وهكذا يحكي لنا قصة فلاحه مصرية ساذجة وهي تدعو جالسة أمام روضة النبي - ﷺ - في حرمه الشريف بالمدينة المنورة، تحاول أن تلصق صدرها بمشوى الحبيب، فتجد على رأسها من يمنعها، وربما تعنف في منعها خشية الابتداع، وهي لا تفهم في لغة محبتها معنى "البدعة" كما يردد الرجل مراراً وتكراراً، فاتجهت بقلبها إلى الحبيب، وإذا بها تقول: لِمَ تصير على هؤلاء، من أمثال هذا الحارس الجافي؟ ... تعال عندنا بمصر، وسوف نفرش لك المكان ونحیی المزار ... ونجعل في نافذته البحرية نافذة للقلل⁽⁴⁾ نعطرها بماء الورد، ونغطيها بأغطية النحاس اللامعة ... دعك منهم وتعال إلينا، فإننا والله لأعرف بقدرك وحقوق زوارك من هؤلاء⁽⁵⁾.

(1) تحدثت عنها في الفصل الثاني من هذا الباب، في المبحث الرابع.

(2) وقد تحدثت عن هذه المشروعات والأعمال عندما لخصت سيرته الذاتية، (للمراجعة: 157-160).

(3) حياتي في حكاياتي، ص 346-347، و 366.

(4) آنية فخارية توضع فيها الماء.

(5) حياتي في حكاياتي، ص 89.

ويرى أن هذا النموذج الساذج ليس أول نموذج في أوساط العوام من المؤمنين، فحدث هكذا في مجلس النبي - ﷺ - عندما دخل عليه أعرابي، وبعد إعجابه به رفع يديه إلى السماء وقال: [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: دَخَلَ أَعْرَابِيُّ الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ، فَقَالَ:] اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِمُحَمَّدٍ وَلَا تَغْفِرْ لِأَحَدٍ مَعَنَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «لَقَدْ اخْتَضَرْتَ وَاسِعًا»⁽¹⁾، فقلوله هذا يدل على سذاجته⁽²⁾.

وخصص حكاية بعنوان: "أولئك أبنائي"⁽³⁾، تحدث فيها عن بعض تلاميذه النجباء الذين درسوا على يديه وتربوا تحت رعايته في مراحل مختلفة. لم يُرزق المؤلف بأولاد، لكنه يحمد الله على ما أعطى وأولى، ولم يشعر بالفقد كما يلاحظ على بعض الناس في ذلك ... ويفتخر المؤلف بتلاميذه النجباء المنتشرين في أرجاء العالم، الذين نالوا مكانة رفيعة في قلب أستاذهم، فلا ينسأهم حتى خصص لهم "حكاية" في سيرته الذاتية، وجعلهم جزءاً من نفسه، أو تبنائهم، ورفع شأنهم وأعلامهم ليظهر دورهم على مرأى ومسمع من الناس، وهم يتلألأون في أنحاء العالم شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً، ويقدم في ذلك مثالا؛ من شعر الفرزدق في نقائضه مع جرير والأخطل وهو بيت يجعل فيه المؤلف كلمة "أبنائي" مكان "آبائي":

أولئك أبنائي فجنني بمثلهم إذا جمعنا يا جرير المجامع

(¹) أخرجه الإمام ابن ماجة في سننه، سنن ابن ماجة، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، (المتوفى: 273هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، باب الأرض يصيب البول كيف تغسل، 176/1.

(²) انظر: المصدر السابق، ص 90.

(³) انظر: المصدر السابق، ص 40، و 367.

ويذكر مثالا آخر؛ وهو من حكايات السلف، أنهم سألوا من فاطمة بنت الخرشب، عن أولادها: أيهم أحب إليك؟ فأجابت: "هم - والله - كالحلقة المفرغة لا يُدري أين طرفاها، ولكن: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر". فالمؤلف أيضا في حيرة من أمره، ويسجل بهذه الصيغة: "وإني - والله - لأحار في ترتيب أبنائي هؤلاء.. ولكن لاعتبارات معينة ترجع إلى الأبوة الفكرية والتربوية، أعني وثاقة العلاقة العلمية، وقوة الصلة الفكرية والروحية، يحتل أحدهم مكانا من القلب، ومساحة من الوعي، تتقدم به على غيره .." (1).

ولا يمكن حصر هؤلاء النجباء بأسمائهم لكن يسجل المؤلف بعض الأسماء الذين يلمعون في أنحاء العالم، لأن لهم اتصالا مباشرا وعلاقة حيوية يومية أو أسبوعية أو شهرية على الأقل، بالمؤلف الشيخ (2).

عمل الأستاذ طويلا في مجال التعليم وتلمذ على يديه آلاف الطلاب - صاروا أساتذة في جامعات ومؤسسات تعليمية مختلفة - وقد تخرجوا في دفعات متعاقبة خص الشيخ بعضهم بالذكر في هذه الحكاية. فذكر الدكتور مصعب الخير الإدريسي، والدكتور عبد الرحمن سالم، والدكتور محمد حماسة عبداللطيف، والدكتور حامد طاهر، والدكتور رمضان الحسين جمعة، والأستاذ محمد أحمد ناشي (3)، والدكتور نبيل الفولي والدكتور مدثر علي وغيرهم.

ويذكر أن تلاميذه يملأون أرجاء العالم وينتشرون في شتى بقاع المعمورة شرقا وغربا، يعملون في حقول وميادين مختلفة في أستراليا، والبوسنة والهرسك، وتركيا وكازاخستان وتركستان وألبانيا ومقدونيا ويوغوسلافيا وقرغيزستان وغيرها.

(1) حياتي في حكاياتي، ص 367-368.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 362-363، و 368، و 370.

(3) المشرف على هذه الرسالة.

وذكر المؤلف أن أحد تلاميذه الأفغان، أخبره بأن معظم من يعمل في البنك المركزي الأفغاني؛ من خريجي الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، ويعتقد أن هذه الجامعة وفرت محضنا فكريا جيدا وآمنا للشباب الأفغاني⁽¹⁾.

ومن تلاميذه الأتراك الدكتور ياغوث والأستاذ عمر الفاروق؛ اللذان درسا في إسلام آباد، ويعملان الآن في بلادها⁽²⁾.

ومن تلاميذه من الهرسك والبوسنة؛ الأستاذ أحمد الذي اكتفى بالليسانس، ويعمل الآن بالتجارة، والدكتور فاروق طرزيفتش، من مدينة آفحصار - أي القلعة البيضاء - وهو الآن يعمل إماما للمجتمع التركي في "أوسلو"⁽³⁾.

وقد ذكر في هذا السياق اثنين ممن درّس لهما خارج النظم التعليمية المنتظمة، وهما صديقان، وإن كانا يعتبرانه أستاذا لهما في الوقت نفسه: أما أحدهما فهو الأستاذ "ديفيد هيو"⁽⁴⁾ الذي علمه اللغة العربية عندما كان يدرس بجامعة لندن، وأسرة الأستاذ ديفيد هيو أسرة مستعربة كلها تقريبا، لأن أخاه الأكبر نال الدكتوراه من الجامعة الأمريكية في القاهرة، وله أخ آخر يعمل في السودان ويجيد العربية، وقد تردد الأستاذ ديفيد هيو، على القاهرة أكثر من مرة، وأسمى أحد أولاده؛ "حسن". وأما الآخر فهو الدكتور ري - وهو شاب أمريكي مستشرق -

(1) حياتي في حكاياتي، ص 373.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 288، و 375.

(3) مدينة أوسلو هي العاصمة الرسمية لمملكة النرويج وأكبر مدنها، أنشأها الملك هارالد الثالث ملك النرويج عام 1048م، وتعدّ مركز التجارة والصناعة في النرويج حيث تقع على لسان مائي يحمل اسمها في الجزء الجنوبي الشرقي من النرويج، وتعد مقاطعة وبلدية بنفس الوقت بعد اندماجها مع إقليم أكر، ويقع في وسط المدينة القصر الملكي ومبنى البرلمان النرويجي. (رجعت إليه بتاريخ 14 سبتمبر 2017م: مدينة_أوسلو/ <https://mawdoo3.com>)

(4) وهو موسيقار بارر الآن في لندن. (حياتي في حكاياتي، ص 377).

من أصول إيطالية، قرأ معه كتاب "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، في الفقه المالكي وكان يشرح له الأفكار والمصطلحات بالإنجليزية، وحصل على الدكتوراه بدراسة في هذا الكتاب⁽¹⁾.

بالإضافة إلى تلاميذه الأفارقة الذين درسوا على يديه في إسلام آباد أو بعد ذلك في السنين العشر الأخيرة بالرواقين العباسي والمغربي بالجامع الأزهر، أو هؤلاء الذين وفدوا إلى "دار العلوم" بجامعة القاهرة فيما بين ذلك، فقد كانت الجامعة الإسلامية بإسلام آباد تستقبل شبابا من مختلف الأقطار الأفريقية؛ مثل نيجيريا، والصومال، وكينيا، وأثيوبيا، وأريتريا، والسودان، والنيجر، وبروندي، وغانا، وموريتانيا، وغينيا، وساحل العاج وغيرها⁽²⁾.

ويختتم الدكتور حسن الشافعي هذه الحكاية بوصية لأبنائه المصريين؛ "أن يكونوا بارين به وبشيوخهم"، وينصحهم بعدة نصائح أخرى، وهي: "أن يعلموا أن العلم يزكو بنشره والعمل به، وأن يحملوا هموم الأمة، ليس في وطنهم فحسب بل في العالم كله، وأن يحسنوا الثقة في التراث فلا تجديد بدون استيعابه، ولكن لتكن عيونهم رامية للحاضر والمستقبل معا، يوظفون هدي التراث في خدمتهما، متشبثين بالإخلاص لله، والحكمة والموعظة الحسنة، والشجاعة في الحق، ويسألهم الدعاء، والحمد لله رب العالمين"⁽³⁾.

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 377.

(2) المصدر السابق، ص 378.

(3) المصدر نفسه.

الفصل الثاني:

حياة الكتاب من خلال سيرهم

[يحتوي على أربعة مباحث]

■ المبحث الأول: الدكتور عائشة عبد الرحمن

■ المبحث الثاني: الدكتور جلال أمين

■ المبحث الثالث: الدكتور شوقي ضيف

■ المبحث الرابع: الدكتور حسن الشافعي

الفصل الثاني

حياة الكتاب من خلال سيرهم

مدخل:

يتناول هذا الفصل حياة الكتاب الذين خصصتهم للدراسة، وهم: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، والدكتور جلال أمين، والدكتور شوقي ضيف، والدكتور حسن الشافعي، واستخرجتُ حياتهم من سيرهم الذاتية، وفصلت فيها القول على القدر المعروف، وحاولتُ أن آخذ المعلومات من سيرهم، وإن لم أجد شيئاً ضرورياً في سيرهم الذاتية فرجعت إلى مصادر أخرى التي تفصل الموضوع، ولم أرتب ذلك في المتن بل سجلته في الهامش.

المبحث الأول

سيرة الدكتورة عائشة عبدالرحمن "بنت الشاطئ"

ما قبل الولادة:

تحكي الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة بـ "بنت الشاطئ"، سيرتها بقلمها الممتع؛ فتذكر أن جدها لأُمها "الشيخ إبراهيم الدمهوجي الكبير" كان يقيم في بيت مطلي على شط نهر النيل بمدينة دمياط، وأسس البيت كانت في ماء النيل، وعلى حافة النهر، وأمام الطابق الأرضي شرفة يعرض البيت، تفضي من جانبيها إلى الماء بسلام من حجر، والمدخل الشمالي للشرفة يفتح بباب على رصيف عريض ممتد إلى مسافة طويلة، وأما المدخل الآخر للشرفة فكان بابه يفتح على منطقة من الماء قريبة الغور⁽¹⁾.

وخلف الشرفة قاعة كبرى لاستقبال الضيوف والتجار المتنقلين ما بين مصر والشام، تعلوها طبقات ثلاث، بينها أدوار مسحورة أي مفتونة، يقيم فيها معتوقو الجند، وقد بلغوا من الكبر عتيا، فما عادوا يستطيعون أن ينفصلوا عن البيت الذي أفنوا فيه شبابهم ولا كان في استطاعتهم أن يبدأوا حياة جديدة بعد أن نالوا وثيقة العتق من جد الأسرة قبيل وفاته⁽²⁾.

وبنت الشاطئ فتحت عينيها وهي ترى "داده حليلة"⁽³⁾ ترعى أطفال الأسرة، وترعاهم في شيخوختها الواهنة وتسليهم بحكايات وعتها من تاريخ الأسرة، و"العم مبروك" يقوم على خدمة الضيوف ويقضي حاجات البيت الكبير من السوق، حتى مات في شيخوخته العالية فدفن في جانب منعرل من مقبرة العائلة مخصص للمعتوقين.

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 20.

(2) المصدر نفسه.

(3) وهي امرأة مسنة من أسرة معتقة لجد بنت الشاطئ، كما ذكرتها المؤلفة. (انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 21 و 25).

وفي الطابق الثاني من البيت القديم، كان منزل جدها لأُمها، وقد أدركتُ جديها بعد أن علت بهما السن، فكان على أمها أن ترعاها موزعة وقتها وجهدها بين بيتهم الخاص، ومنزل الجددين.

المولد والمنشأ: ولدتُ بنت الشاطيء في 6 نوفمبر سنة 1913م بدمياط⁽¹⁾، وهي ابنة لعالم أزهرى، فقد كان والدها - الشيخ محمد علي عبد الرحمن⁽²⁾ - مدرسا بالمعهد الدينى بدمياط، وهي أيضاً حفيذة لأجداد من علماء الأزهر فقد كان جدها لأُمها الشيخ الدهوجي شيخا بالجامع الأزهر الشريف⁽³⁾، وقد تلقت تعليمها الأول في كتاب القرية فحفظت القرآن الكريم ثم أرادت الالتحاق بالمدرسة عندما كانت في السابعة من عمرها؛ ولكن والدها رفض ذلك فتقاليده الأسرة نأبى خروج البنات من المنزل والذهاب إلى المدرسة؛ فتلقت دروسها في البيت وقد بدأ يظهر تفوقها ونبوغها في تلك المرحلة عندما كانت تتقدم للامتحان فتتفوق على قريناتها بالرغم من أنها كانت تدرس بالمنزل.

طفولتها بين القرية والمدينة.

وفي عطلة الصيف سنة 1918م، عندما كانت في الخامسة من عمرها⁽⁴⁾، أراد أبوها أن يرحل نحو قريته "شبراخيم" (في بني سويف) لقضاء عطلة الصيف مع أهله كما تعود في كل صيف. فشعرت بضيق في نفسها تجاه هذه الرحلة، لفرط شغفها بالنهر وتعلقها بالبيت القائم على شطه، وتضايقت أكثر عندما عرفت أن أمها كذلك متضايقة من تلك الرحلة الموسمية المفروضة عليها كل عام، لأسباب: أنها ثلث عام تقريبا، وأنها ستكون بعيدة عن والديها، لأنهما يحتاجان إلى رعايتها، وأن الحياة في الريف تختلف تماما عن بيئتها الحضرية.

(1) مستطلعا من كلامها عند ولادتها، وكذلك عند عيد ميلادها. (انظر: على الحسرن بين الحياة والموت، ص26، و32، و153).

(2) لم أعثر له على ترجمه.

(3) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص31، و100.

(4) انظر: المصدر السابق، ص32.

وقاموا بالاستعداد للسفر وخرجوا من البيت، فعبروا النهر وركبوا القطار، فانطلق بهم والمؤلفة كانت مفتوحة العينين، تطل من نافذته على ما بدا لها يومئذ من عجيب المشاهد وطريف المناظر، وكأنها تتفرج من الثقب السحري لصندوق الدنيا، وفي محطة "بنها"⁽¹⁾ نزلوا من القطار الكبير ولبثوا على الرصيف فترة طالت، حتى وصل قطار آخر ضئيل زري المنظر، سار بهم متعثرا وثيدا حتى حطهم في بلدة "ميت بره" حيث كان أحوال أبيها في الانتظار⁽²⁾.

وانطلقوا من هناك إلى دار في القرية

وقد أخذوا الراحة في ضيافتهم بقية النهار، وفي المساء أسرجوا لهم حمارين، حملاهم عبر درب ضيق مترب وسط الحقول إلى دار في القرية. وكان أهل الدار قد تجمعوا لاستقبالهم، فلما نقلت بصرها بينهم، جذبها إليهم نداء الدم، وإن بدوا لها في اللقاء الأول غرباء، والرحلة إليهم كانت طويلة شاقة، إلا أن المؤلفة تمهلّت عند مدخل الدار حتى انتهت تحيات الاستقبال، مشوقة إلى أن انطلقت إلى الخارج كي تكتشف ذلك العالم الجديد. ودنت من طفلة في مثل سنّها، من بنات عمها، فتأملت منها أن تصحبها في جولة بالقرية، لكنها أمهلّها حتى يصبح الصباح، إذ ليس من المسموح للبنات أن يخرجن من الدار وحدهن بعد غروب الشمس، وخطت في بطاء إلى فناء الدار، حيث لمحت أكداًس الحطب مكومة قرب قرن عجبت لموضعه داخل البيت، ثم ازداد عجبها وهي ترى المواشي في زريبة مفتوحة على الفناء، وإلى جانب الزريبة صف من القاعات المظلمة، المخصصة لنوم العائلة في الشتاء.

(1) مدينة بين القاهرة والإسكندرية، اسمها "بنها" (Benha) - مكسورة الباء، وقد تفتح باللهجة المصرية كما تُفتح ميم كلمة مصر - وهي عاصمة محافظة القليوبية، تلقب بـ "بنها العسل"، حيث يعدّ عسل النحل البنهاوي من أجود الأنواع، تبعد حوالي 45 كم إلى شمال القاهرة، وهي مدينة قديمة دخل الإسلام إليها بعد فتح مصر مباشرة عام 19هـ، وعاشت المدينة عصور ازدهار واستقرار ممتدة. (موسوعة 1000 مدينة إسلامية لعبد الحكيم العمري [رقم المدينة: 203] ص 123، والقاموس المحيط: باب بنها ص 1243).

(2) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 33.

في كُتاب القرية

وفي الصباح قُدم طعام الإفطار على عجل، حينها فوجئت المؤلفة بأبيها يصحبها إلى كُتاب القرية، حيث أسلمها هناك إلى "سيدنا الشيخ مرسى" ليحفظها القرآن الكريم، وكان الدرس ستة أيام في الأسبوع يبدأ من شروق الشمس إلى قرب صلاة العصر.

وتذكر أن المعلم ترفق بها في اليوم الأول، فلم يرهقها بتلاوة أو كتابة، وإنما اكتفى بأن أجلسها إلى جانبه على حصير خشن، حيث مضت ست ساعات وبنت الشاطي تحديق في زملائها الصغار وهم يتابعون على المعلم واحدا بعد الآخر، فيتلو كل منهم اللوح الذي حفظه، ويكتب اللوح الجديد. فإذا تعثر فيما يتلو أو أخطأ فيما يكتب، زجره الشيخ مرة ومرتين، فإذا كانت الثالثة، أمر غلاما فأمسك بساقي الصبي المخطئ، وأهوى المعلم على قدميه ضربا بعضا ملفوفة⁽¹⁾ من طرفها.

يومها رجعت المؤلفة إلى أمها مخطوفة اللون والقلب، فتلقته في حضنها بحب وحنان، وهي تدعو الله أن يفتح عليها ويعينها على احتمال التجربة في شدتها الأولى، فخفف ذلك عنها بعض الرعب. وطول شهور الصيف الأربعة، كانت ساعات الصباح تجلس في الكُتاب، ورغم ذلك أحبت القرية وأهلها، وطاب لها العيش فيها على خشوتته، فكان ذلك مما هون عليها وحشة فراقها لبلدتها دمياط. وكانت أحيانا تذكر ملعبها على شط النهر، وتبكي لفراقه. وفي السنوات التالية تكررت الرحلة إلى القرية في عطلات الصيف حيث أتمت حفظ القرآن الكريم، إلى جانب الدروس التي كانت تتلقاها، أثناء المواسم الدراسية بمعهد دمياط في الخريف والشتاء⁽²⁾.

(¹) لَفَق (ص) لَفَقًا: ضم إحدى الشفتين إلى الأخرى وخاطهما، ويقال: لَفَقَ بين توبين، وكلام ملفوق: على السنييه بلفق الثوب، ولفق الشيء (س) لَفَقًا: أصابه وأحده، ويقال: لَفَقَ يفعل كذا: طَفِقَ. (المعجم الوسيط: مادة: ل ف ق: ص833)

(²) انظر. على الجسر بين الحياة والموت، ص 36.

تفوقها الدراسي: كانت بنت الشاطئ لا تزال في طفولتها الأولى عندما ألزمها والدها أن تتعلم ما لا يتاح لغيرها من صواحبها وأترابها وقد ضاقت نفسها بما فرضه عليها والدها من قيود صارمة تحبسها طول ساعات الصباح لتلقي الدروس وحفظها، ثم تلزمها في ساعات الأصيل حضور مجلسه مع شيوخ المعهد الديني على حين كانت صواحبها يرحن لاهيات في ملاعبهن عند شط النهر.

غير أنها كانت تُرضي غرورها عندما تجد صبيان المدينة يُصغون في طرب وإعجاب، إلى تلاوتها المجودة للقرآن الكريم، وإنشادها لما حفظت من قصائد الصوفية، كما كانت تزهر على أترابها في المدينة بحفظها للقرآن الكريم⁽¹⁾.

عواتق في الطريق: وعندما عادوا من رحلة الصيف في سنة 1920م إلى دمياط، عرفت أن أترابها بدأن الدراسة المنتظمة في "مدرسة اللوزي الأميرية للبنات"، وتطوعن جميعا فعرضن عليها أزياءهن المدرسية الأنيقة والكتب المصورة والكراسات المتنوعة والأدوات المدرسية التي وزعت عليهن، وكن يسمعن حديثا عجيبا عن "... قاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور، وقاعة المائدة الفسيحة المنسقة، وعن "داده أم حبيبة" التي تبيع لهن الحلوى في فترات الفسح ونحوها من القصص الممتعة"⁽²⁾.

ورجعت إلى البيت وهي مشغولة البال بما سمعت، ولاحظ والدها، أنها لا تكاد تلقي سمعها إلى ما يلقى من دروس، فلما سألها عما بها، تشجعت فصارحته بما يشوقها من الذهاب إلى المدرسة مع بنات الجيران ... فكأنها نطقت بكفرا !!! وجاءها الرد، حازما حاسما: "ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن في

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 37-38.

(2) المصدر السابق، ص 43-44.

بيوتهن" (1). وأمرها فتلت سورة الأحزاب إلى قوله تعالى: يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْنَ فَلََّا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34).

ولم تسأل والدها: "هل تكون من بيت النبوة"؟ لقد كان يعتز بنسبه الشريف، ويحتفظ بسلسلة آبائه إلى جده الإمام الحسين، ولد الزهراء رضي الله عنهما.

وإنما أرادت لتسأله: وهل (هي) بلغت مبلغ النساء؟

ثم تهيت ... فلاذت بالصمت...

ومضت أشهر ذات عدد، وهي تتابع بنات الحي ببصرها وقلبها في رحلتهم اليومية إلى المدرسة، وكانت تخلو في الليالي المسهدة الطوال إلى الهم والحسرة ... وزهدت في الدنيا بقدر ما يحتمل عمرها الصغير، وبأن عليها من الذبول والشroud والانطواء ما جعل أمها تفرع إلى جدها - الشيخ محمد الدهوجي - تلتمس منه النصيحة والرأي، في موقفها الحائر الصعب بين حرصها على ألا تتدخل فيما يريد لها أبوها، وفزعها من عواقب ما أكابد من قهر وحرمان (2). وتدخل الجد لحسم الموقف، فما زال بوالدها حتى انتزع موافقته المكروهة على التحاقها بمدرسة اللوزي للبنات، لكن بشروط ثلاثة:

أ. ألا دخل له إطلاقاً بأي طلب للالتحاق أو إجراء من إجراءاته أو أي شأن يتصل بالمدرسة من قريب أو بعيد.

(1) على الحسر بين الحياة والموت ، ص44.

(2) انظر: المصدر السابق ، ص45.

ب. أن تتابع دراستها الدينية في البيت، دون أن يترتب على دخولها المدرسة، أي تهاون أو تقصير في دروسها الخاصة.

ت. أن تنقطع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة، بمجرد أن تشارف سن البلوغ. وألحقها جدها بالمدرسة بعد مشقة بالغة، إذ كانت السنة المدرسية على وشك الانتهاء، وقدم الأوراق المطلوبة، بوصفه نائبا عن ولي أمرها. وكان المفروض أن تلتحق بالسنة الأولى، ولكنها فوجئت أنها جلست تؤدي امتحان النقل إلى السنة الثانية مع تلميذات السنة الأولى. عندما أتمت الدراسة بتلك المدرسة، كانت قد تجاوزت سن العاشرة التي حددها والدها لحجزها في البيت مع الحريم. كانت في بداية الطريق تتصور أنها قد تكتفى من التعليم المدرسي بتلك المرحلة الأولى، غير أنها لم تكذب تجتازها حتى كرهت أن تواصل زميلاتهن تعليمهن في المدرسة الراقية وتتخلف "هي" عنهن واقفة عند ذلك الشوط الضئيل.

ومرة ثانية لجأت إلى جدها لأمرها، تستعين به على إقناع والدها ليسمح لها بمواصلة التعليم في المدرسة الراقية، فلما أعياه أن يقنعه، ذهب إلى جامع البحر، يستعين بشيوخ المعهد على عناد أبيها، وإصراره على حجزها في البيت، وهي لم تبلغ بعد سن الحجاب ... وطالت المجادلة بينهما حتى صارت إلى خصومة حادة، دون أن يترشح والدها عن موقفه، وخرج جدها منفعلا بالغضب والغضب، فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط. فحملوه إلى البيت، وجاء أكبر أطباء المدينة فشخص الحالة بأنها اشتباه في كسر عظم الفخذ، لا يرجى جيره في تلك الشيخوخة العالية، وإن كان لا خطر منه على حياة الشيخ، لقوة بنيته وسلامة أجهزته الحيوية. وعاشت بنت الشاطئ معه محنته، ويرهقها الشعور بعقدة الذنب أنها كانت السبب المباشر لتلك الإصابة، وكان أهل البلدة لا يكادون يرتابون في

أن ما حدث له ليس إلا كرامة من كرامات والدها التقى الولي الصالح⁽¹⁾. غير أن والدها رق للشيخ الكسيح في محنته، فتخلّى له عنها، وبدأت المؤلفة تقوم على خدمته وتعيش إلى جواره. وسكت على مضض حين أرسلها جدها إلى المدرسة الراقية ... وكأنه كره أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد، في الرغبة الوحيدة التي تعلق بها، وزادته المحنة إصراراً عليها وتشبثاً بها. وتمت المرحلة التعليمية بالمدرسة الراقية بنجاح، وبعدها بدا الطريق أمامها مسدوداً⁽²⁾.

فمن ناحية، كانت قد بلغت من العمر ثلاثة عشر عاماً، وهي سن الحجاب التي تفرض حجزها في البيت مع الحرم، ومن ناحية أخرى، لم يبق في دميّ أي مجال لتعليم البنات بعد المدرسة الراقية، وإنما كان على الراغبات في مواصلة التعليم، إما أن يقضين شهراً أربعة في "دراسة صيفية" وإما أن يتقدمن لامتحان القبول في مدرسة المعلمات بالمنصورة وهي أقرب عاصمة إلى بلدتها، من عواصم المديرية التي فيها مدارس للمعلمات⁽³⁾.

ولم تكن فكرت بطبيعة الحال في تلك الدراسة الصيفية الهزيلة التي ألجأت إليها ضرورة طارئة للتعجيل بتخريج معلمات في أدنى المستويات، بل تطلعت متحدية كل دواعي اليأس والقنوط، إلى مدرسة المعلمات بالمنصورة. وشاءت الظروف أن يتحدد موعد امتحان القبول بها، أثناء غياب والدها عن دميّ، في إحدى رحلاته المتتابة لحضور موالد آل البيت وأولياء الله الصالحين، ما بين القاهرة وطنطا ودسوق. وكان من عادته في مثل هذه الرحلات، أن يعرج في طريق العودة على قرية "أبي حريز" بمديرية الشرقية، ليزور شيخه في طريقته الصوفية وإمامه في التصوف "الشيخ منصور أبا هيكل الشراوي" فتستغرق الرحلة الواحدة نحو عشرة أيام، على حين لا يحتاج الامتحان إلى أكثر من أربعة أيام ... ورق لها قلب أمها، حين رأته

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 54، و 114.

(2) انظر. المصدر السابق، ص 53-57.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 57.

إصرارها على أداء الامتحان، وليكن بعد ذلك ما يكون. فجازفت وتسملت بها من دمياط ذات صباح إلى المنصورة، حيث تركتها بالقسم الداخلي في مدرسة المعلمات، على أن تعود بعد أيام الامتحان الأربعة، مع زميلاتها من بنات دمياط⁽¹⁾.

ومن حسن حظها أنها درست بالمدرسة الراقية، فأدت امتحان القبول للسنة الثانية معلمات مباشرة، أما اللواتي لم ينلن الشهادة الراقية فتقدمن لامتحان القبول بالسنة الأولى. وأدت الامتحان الأول، للسنة الثانية، وهي تقهر في أعماقها شعور الخوف من والدها، حتى إذا فرغت منه فعادت، عاودها ذلك الخوف الذي أفلحت في مقاومته لمدة أيام. وتمهلت عند باب البيت، فانطلقت إلى بيت جدها تلتمس الأخبار عن بيتها في غيابها، وتتزود بمدد من التشجيع يعينها على مواجهة والدها إن كان قد علم بالخطوة الجريئة التي خطتها في غيابها، لكن الأزمة مرت بسلام، أو هكذا بدا للأسرة. وفوجئت حينما أخبرت بأن زميلاتها اللاتي أدين معها الامتحان، تلقين من إدارة المدرسة إخطارا بقبولهن، ومعه بيان بالملابس والأمتعة

(1) وأرى أن عائشة بنت الشاطي لم يخالفها الصواب في القيام بهذه الخطوة الجريئة التي أقدمت عليها وهو الخروج من بيت والدها دون إذن منه، وخروج أمها معها لتساعد ابنتها في تحقيق رغبتها دون إذن من زوجها؛ فشرعا يحرم ذلك ولا يسمح به على الإطلاق حتى ولو كانت المرأة تريد تعرية لأهل مبيت، أو عيادة مريض، أو حتى زيارة أهلها، فليس لها الخروج إلا بإذن وليها ... وعليها السمع والطاعة إلا في المعصية. وهناك أدلة كثيرة تعضد لزوم المرأة لبيتها وحرمة خروجها منه بدون إذن وليها منها: قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [سورة الأحزاب: 33] وحديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن المرأة عورة، فإذا خرجت استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قعر بيتها"، (أخرج ابن حريمة في "صحيحه"، في: كتاب الإمامة في الصلاة، باب احتيار صلاة المرأة في بيتها على صلاحها في المسجد، 176/3، برقم. 1685). وقال الكاساني الحنفي (المتوفى سنة: 578هـ): "أجمعوا على أنه لا يرحص للثواب من الخروج في الجمعة والعيد وشيء من الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ والأمر بالقرار: نهي عن الانتقال، ولأن خروجهن سب الفتن بلا شك، والفتنة حرام، وما أدى إلى الحرام فهو حرام". (انظر: بدائع الصانع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، تحقيق وتعليق: الشيخ علي نجاد معوض، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م، 275/1).

الشخصية المطلوبة منهن للقسم الداخلي. ولم تتلق معهن مثل هذا الإخطار، مع أن المدرسة أذاعت من قبل نتيجة الامتحان، وكانت هي أولى النجاحات في القبول للسنة الثانية!!! وأشار جدها بـ"أن نبعث خطابا إلى المدرسة، نستفسر فيه عن الموقف الغريب"، وسرعان ما تلقى الرد؛ بـ"أن والدها تقدم إلى المدرسة بوصفه ولي الأمر، فسحب كل أوراق التحاقها بها". فاشتد حزنها وأمسكت عن الطعام حتى خيف عليها من الموت، وتكاثر أهلها وزملاء والدها عليه، فلم يدعوه حتى وعد بأن يرسل خطابا إلى إدارة المدرسة⁽¹⁾.

بعد شهرين من بدء الدراسة ... صحبت أباهما مرة في سفره إلى إمامه وقدوته "الشيخ منصور أبي هيكل الشرقاوي" وعرضت عليه القضية، وما زالت تستعطفه وترجوه، حتى أذن لها في الدراسة، على مسمع من والدها، فردت الروح إليها، ثم سارعت فجهزت ملابسها وأمتعتها المطلوبة للقسم الداخلي، وسافروا إلى المنصورة ليفاجئوا بأن المدرسة استنفدت كل العدد المقرر قبوله من الطالبات، فلم يعد لها فيها مقعد، وأرسلتهم ناظرة المدرسة إلى مدرسة جديدة بمدينة حلوان، فخرجوا وفي ظنهم أن أمها سوف تعود بها إلى دمياط، ريثما تدبر أمر الرحلة إلى مدينة حلوان التي لم يكونوا سمعوا باسمها من قبل، ولا كان لهم علم بطريق الوصول إليها وما يتكلفه من نفود ... لكن أمها لم تلبث في المنصورة إلا ريثما باعت سوارا ذهبيا كانت تتزين به، وقطعت لهم تذكري السفر، في أول قطار إلى القاهرة⁽²⁾. ونزلوا بمحطة مصر، فوصلوا إلى المدرسة والتفوا بناظرهما، وأخبروها بتفاصيل حضورهم، ففوجئوا بعدم الدراسة في الفرقة الثانية، لأنها مدرسة جديدة بدأت الدراسة بها في الفرقة الأولى فقط. فتنازلت - بنت الشاطئ - عن حقها في دخول السنة الثانية التي نجحت في امتحان القبول بها... وانتهوا من قضية الالتحاق

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 57-60.

(2) وهذا أيضا مما يحرم شرعا ولا تسمح له تقاليدنا الشرقية، كيف تكذب الست على والدها وتكذب الزوجة على زوجها مجرد تحقيق رعة ابتها في الالتحاق بالمدرسة.

بالمدرسة. وعرفوا أن الدراسة ستبدأ بعد أسبوعين بالمدرسة، وكلمت أمها ناظرة المدرسة في إقامتها بالمدرسة، فأذنت لها بذلك، وأحست أمها بانزياح الثقل عن كاهلها، وسافرت وتركتها في ضيافة السيدة الطيبة ناظرة المدرسة⁽¹⁾. وودّعته أمها وهي مطمئنة إلى رعاية الله، وعادت إلى دمياط⁽²⁾.

وصولها إلى الجامعة: وصلت بنت الشاطئ إلى الجامعة والتحقّت بها سنة 1935م، وما كانت تدري من أين جاءت القوة القاهرة التي دفعت بها لهذا المكان. فأبوها ينفر قومه من مجرد سماع اسم الجامعة، وكأنها بدعة منكرة أو رجس من عمل الشيطان، وربما نفرهم منها نبأ عن بعض ما يدرسون فيها من علم، فيلوون رءوسهم وهم يحوقلون ويستغفرون للذنوب الذين جنوا على شباب الأمة فصرفوهم عن العلم الحق، وعلموهم ظاهرا من الحياة الدنيا، وألقوا بهم صيدا سهلا بين ذرائع الزيف والضلال، والغريب في الأمر أنها لم تنصرف من طريقها الأول، بل لعلها كانت أقرب إلى الزهو بما فيه. ولم تفتن بالجديد الذي تعلمته من كتب العلوم العصرية التي مهدت لها الطريق للدراسة في الجامعة، بل كانت كلما تقدمت خطوة إلى هذا الجديد، ازدادت إدراكا لقيمة الرصيد الثمين الذي يمنحها سمة أصالة وتفرّد بين بنات جيلها⁽³⁾.

وكان حضورها إلى المحاضرات أمرا صعبا عليها، لأنها لا تستطيع الحضور إلى الجامعة، فرمقت دستور الجامعة في النسبة المقررة لحضور المحاضرات، فعرفت أنها في يد الأساتذة الذين يقررون نسبة الحضور، ويقتصر عمل الإدارة على الإجراء التنفيذي، في الإذن للطالب بأداء الامتحان أو حرمانه منه، تبعاً لما يقرره الأساتذة، غير أن فريقاً من زميلاتها أكدن لها أنها لا تستغني عن كلمة واحدة من دروس الأستاذ الشيخ أمين الخولي في البلاغة والتفسير، على

(1) ومن أدرك الأم بطيبة هذه الناظرة فبمجرد لقاء قصير لا يُسِيء بما تكه النفوس والضمائر، وترك بنت شابة في عهدة سيدة أجنبية في بلد حديد لا يقله العقل السليم.

(2) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 59، و 62-64.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 113-114.

مدى السنوات الأربع! فكانت تستخفهم - في نفسها - لضعف مستواهم في الدراسة، وهي تظن نفسها مستغنية عن حضور المحاضرات لأنها درست كل هذه المواد في المدرسة الأولى بالبيت⁽¹⁾.

ترددت بنت الشاطئ على كلية دار العلوم قليلا خلال العام الأول، وكانت تلمح الأستاذ الخولي من بعيد بين حين وآخر، في ردهات الكلية وأبائها بزيه اللافت وسمته المهيب وملامحه المتفردة، يحف به دائما عدد من تلاميذه شبه مسحورين. وكانت لا تتصور أن هذا الأستاذ غريب عنها، وظلت تفكر طويلا فيه، وتقول في نفسها: "أين ومتى يا ترى لقيته من قبل"؟⁽²⁾

وكانت تفكر كثيرا بأن لهذا الشعور الواصل سببا ربما لأن البيئة واحدة وربما ينتمي إلى نفس القرية التي تنتمي إليها، وربما لأنها تظن أنها وصلت في فهم العلوم والفنون، كما وصل هو، وأن علمه الذي يهر الطلاب في الجامعة، مستمد من نفس النبع السخي الذي طالما غلث منه حتى خيل إليها أنها ارتوت منه. وهكذا كانت تفتخر بنفسها وبفهمها العلوم والفنون التي كانت تدرس خلال العام الأول من دروس الجامعة. وتصورت أن الأستاذ الخولي لا يمكن أن يضيف إليه جديدا من عنده.

استعدادها للقاء الأستاذ أمين الخولي:

وكانت بنت الشاطئ تنتظر انتظار المرتقب للأستاذ أمين الخولي، لقد عكفت طوال أشهر الصيف التي قضتها - في قرية "شبراخيم" من عام 1936م - على مراجعة ما في خزنة بيتها من كتب علوم القرآن والبلاغة والتفسير استعدادا للقاءه، وقد زين لها الغرور أنها مستعدة باستيعاب تلك الكنوز إلى أقصى حد حتى تكون ندا لهذا الأستاذ، الذي يهر تلاميذه بعلمه

(¹) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 116.

(²) المصدر السابق، ص 118.

الغزير، وكان والدها يراها مستغرقة في الدرس والاطلاع على الكتب، فتألق أساريه الطيبة بنور الرضى وراحة الطمأنينة، لما يشهد من بؤادر انصرافها عن باطل غرور المحدثين، إلى جوهر العلم الحق، ويدعو الله أن يتم نعمته، وأن يأخذ بيديها هاديا لها على الطريق. وتسمع دعاءه فيرق قلبها له⁽¹⁾.

وكانت تظن أن ليس بينها وبين مرحلة الانطلاق سوى خطوة واحدة، تلقي فيها نظرة على "الأستاذ الخولي" ثم تصفي حسابها مع الجامعة التي انكشفت لها بعد تجربة عام مرت عليها، عن ظل متضخم في منطقة السراب⁽²⁾.

وبدأت السنة الدراسية الثانية في الجامعة، ومكتبات العاصمة تعرض كتاب بنت الشاطئ الأول عن "الريف المصري"، الذي كتبه للمسابقة الرسمية لوزارة "علي ماهر" في موضوع "إصلاح الريف والنهوض بالفلاح"، وزاد غرورها ببضاعتها التي تزودت بها من مدرستها الأولى، لقد حققت لها ما لا يتناول إليه زملاؤها في الجامعة، ففيهم من ينطق العربية بلكنة أعجمية وفيهم من يقع في حيص بيص، إذا ما سئل أن يكتب بضعة أسطر باللغة الفصحى. وتوجهت المؤلفة إلى الجامعة مشحونة بالكبرياء والتحدي والعناد، وقد آلت على نفسها ألا تدع هذه الجامعة تستدرجها لتسلبها كنزها القديم في غفلة منها⁽³⁾.

لقاؤها مع الأستاذ وإرهاصات حبها له:

ومضت أيام وأسابيع وهي تذهب إلى كلية الآداب فلا يظهر "الأستاذ الخولي"، وهي تنتظره بشدة، وكانت عيناها على ردهات وطرقات الكلية، وترمق كل لحظة في انتظار الأستاذ، وفجأة لمحته يتحدث إلى عدد من تلاميذه الذين تحلقوا حوله يصغون إليه في انفعال

⁽¹⁾ انظر: علي الجسر بين الحياة والموت، ص 129، و 133.

⁽²⁾ انظر: المصدر السابق، ص 133، و 142، و 154.

⁽³⁾ انظر: المصدر السابق، ص 147-149.

ظاهر، فدننت منه لتسمع ما يقول ودهشت دهشة بالغة حين ميزت في صوته العميق نبرة مألوفة، جعلتها تفكر متسائلة: أين ومتى يا ترى سمعت هذا الصوت؟ نفس السؤال الذي طالما تردد في خاطرها كلما لمحت الأستاذ الخولي من بعيد فلم تشعر قط أنه غريب عنها، وغرقت في فكر عميق، والسؤال يتردد في نفسها: أين ومتى يا ترى لقيته من قبل؟⁽¹⁾.

وغرقت في شروء عميق لم تفق منه إلا عندما سأله أحد التلاميذ عن موعد درسه الأول لهم، فكان جوابه: "ليكن الموعد في مثل يومنا هذا من الأسبوع المقبل ... أحسبه السادس من نوفمبر"، وأذهلتها المفاجأة، حين سمعت "السادس من نوفمبر"، لأن الموعد "يوم ولادتها"، وواصلت تفكيرها، وتعجبت لهذا الموعد الذي اختاره القدر للقائهما، دون بقية أيام السنة، ووقع في نفسها أن الموعد ليس محض مصادفة بل هو موعد مقدر⁽²⁾.

موعد اللقاء في يوم ميلادها

ومضت أيام الأسبوع طويلة ممتدة كأنها سبع سنوات، وكان الأسبوع ثقيلا جدا عليها، وكانت تعد ساعات يومها وأيام أسبوعها، وأخيراً جاء موعد المحاضرة واللقاء "السادس من نوفمبر"، فأخذت مكانها في الفصل، متحفزة ومستجمعة كل رصيدها وقوتها وزهوها على بقية زملائها ومتأهبة لعرض بضاعتها التي حصلت عليها خلال سنوات عمرها ودخل "الأستاذ الخولي" بسمته المهيبة المتفرد، فسلم عليهم، وقام بالتعارف مع الطلاب، ووزع عليهم بعض المباحث التي يقوم بعرضها الطلاب، والطالب يختار مبحثا منها، يعده ويعرضه للمناقشة في موعده المحدد مسبقا. واستعجلت صاحبتنا فأعلنت اختيارها للمبحث الأول في "نزول القرآن"، وحينئذ صارت فريسة للضحك في الفصل، والأستاذ لم يلق إليها بالا، واشتغل بتوزيع بقية المباحث، وصاحبتنا غاضبة على نفسها وعلى زملائها الذين يتفرجون عليها، وعاد

(1) انظر: على الحسر بين الحياة والموت، ص 152.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 152-154.

الأستاذ يسأل كل طالب منهم عن الوقت الذي يحتاج إليه في إعداد بحثه، فأجابت صاحبتنا في عناد وشموخ: "يكفيني يوم أو بعض يوم"، فقال الأستاذ في نبرة إشفاق وتحذير: "كذا!!؟" فكري مليا، فرمى بدا لك أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت". وأبث أن تتراجع عن إرادتها، لأنها كانت تزهو بمبلغ علمها في المادة، ومصادرها في تناول يديها، فلن يحتاج العمل إلى أكثر من بضع ساعات، وقد أدرك الأستاذ أنها تورطت في عجالة من أمرها، ففهمت بنت الشاطئ أيضا ما أدركه الأستاذ، فخشيت أن يأخذ عنها فكرة خاطئة، فبينت له أنها تملك مصادرها ومراجعها العلمية في دارها، وبادرت متسائلة: "هل يكفي أن أراجع في موضوعي، كتب "البرهان، والاتقان، واللباب، وطبقات ابن سعد، وتفسير ابن جرير الطبري"؟ وكانت تظن أن الأستاذ سوف يضيف إلى قائمة مراجعها مصادرَ أجنبية.

فأجاب الأستاذ: "كتاب واحد يكفي الآن، لو أنكِ عرفتِ حقا كيف تقرئين!"، واستغربت الجواب!!! لقد عاشت في بيت علم أعلى - كما تصورت حينها - من العالم الجامعي، وألمثلها يقال ذلك؟ وكبحث غضبها والتمست للأستاذ العذر، لعله يتصور أنها كغيرها من الطلاب، وفيهم حقا من لا يعرف كيف يقرأ!!!

وتابعت الإصغاء إليه وهو يلقي عليهم مبادئ منهجه، حريصة على ألا تفوتها كلمة واحدة مما يقوله الأستاذ، وبجهد مرهق تشاغلته عن عالمها النفسي المائج بشتى الخواطر، لتعي ما تسمع ولا شيء يزعجها غير دقائق ساعة الجامعة، معلنة عن سير الزمن... وكانت تتمنى لو توقف الزمن ليظل الأستاذ يتكلم، وهي تصغي إليه وتتعلم. وترتبط المؤلفة بالأستاذ نفسيا وعقليا، وكأنها قطعت العمر كله بحثا عنه في متاهة الدنيا وخضم المجهول. وقد انتهى الدرس

الأول، وذلك في اليوم السادس من نوفمبر عام 1936م، وهي تشعر بأنها ولدت من جديد⁽¹⁾.

وحين وقفت بعد أسبوع تؤدي أمامه امتحانها الأول، لم تصمد سوى دقائق معدودات، وأدركت أن ثقافتها المحصّلة من دارها أمام منهج الأستاذ، لا تعدو إلا القشور والأصداف. وبعد فترة طويلة وقفت المؤلفة أمام أستاذها وشيخها وحبيبها، وهي تقدم فصلا من "مقدمة ابن الصلاح" عن ضوابط المنهج النقلي للرواية. وحاولت المؤلفة أن تقدم بحثها أمام الأستاذ بأحسن طريقة، فاستجمعت كل طاقتها وجهدها، وبعد ذلك انتهت المرحلة الجامعية الأولى، ولم يبق لها من زهو الطموح إلا أنها أدركت أنها مازالت تحتاج إلى مزيد من المعرفة، ومعرفة طرائق القراءة والفهم. وعرفت المؤلفة أن ليس لها حق في إساءة الظن بزملائها في مجال التنافس العلمي، لأن لكل إنسان طاقة مخصصة له، وفي كل بشر ضعف خاص به. فإذا عرف الإنسان علماً فهناك علم آخر يجمله⁽²⁾.

زواجها من أمين الخولي:

تساءلت المؤلفة سؤالها القديم: "أين ومتى يا ترى لقيته، وسمعت صوتي من قبل؟"، والمؤلفة تستمتع بتكرار هذا السؤال حيناً بعد حين⁽³⁾، وهو في الأصل ليس سؤالاً، بل هي فكرة تأتينا من الوعي الفطري تشعر بها عندما ترى أستاذها، فهو البطل - الأصيل - لسيرتها الذاتية، وحياتها الزوجية، ونحن نلاحظ أن صاحبتنا ما زالت طالبة في الجامعة التي يدرس فيها الأستاذ الخولي، لكنها تفكر دائماً كأنه شريك حياتها، كما اعترفت بنفسها: "فمنذ قابلته، تجلّى لي السر المحجب الذي حيرني أمداً طويلاً"، وزادت المؤلفة بعد سطرين: "فلقد آمنت من

(1) انظر: علي الجسر بين الحياة والموت، ص 161.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 161-163.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 118، و152، و171.

اللحظة الأولى للقائنا، أنه اللقاء الذي تقرر في ضمير الغيب منذ خلقنا الله من نفسٍ واحدة، وخلق منها زوجها"، ونُخبِرنا المؤلفة بزواجها منه بطريقة غير مباشرة، فتقول: "وإن عدّتنا الدنيا اثنين في الحساب الرقمي والواقع العددي ... اثنين، لكل منهما اسمه ونسبه ولقبه وصفته وصورته، وعمله وشخصيته ... وبهذه الثنائية العددية يتعاملان مع الدنيا والناس، ولكنهما في جوهر حقيقتهما واحد لا يتعدد"⁽¹⁾.

ولم تتحدث المؤلفة عن طلب يدها من قبل أستاذها وزوجها أو عن عقد نكاحها، أو زواجها، أو إلى أي شيء من هذا القبيل، ولم تتكلم عن حياتها الزوجية بعد ذلك، كما لم تشر إلى حملها منه أو ولادة أولادها، وغير ذلك مما يتعلق بحياتها الزوجية بل حافظت على خصوصية هذه الحياة فلم تتعرض لها في سيرتها الذاتية، بعكس ما نقرأ في بعض السير الذاتية.

ثم مضى وبقيت

وصفت المؤلفة حياتها مع زوجها بأنها كانت مثل الرؤيا القصيرة الباهرة، وتساءلت: هل من سبيل إلى أن أستبقي تلك الرؤيا الباهرة لمساعي إليه ولقائي به؟ وهي خائفة على صحوها من منامها، لأنها تخاف وحشة الفراق، التي ترعب البشرية ليلاً ونهاراً، وتتمنى أن يحين الأجل فتلحق به ويلتئم الشمل مرة أخرى في عالم الروح ... وتصف في عبارة أنيقة فراقها لزوجها بعد الموت، قائلة: "كل ما مضى انتقل إلى منطقة الأحلام، فلا سبيل إلى استرجاعه إلا في غفوة مختلسة لا تلبث أن تبدد بيقظة مروعة، تسلمني إلى قبضة الواقع، حيث المشهد الفاجع من قصتنا التي كانت أسطورة الزمان"⁽²⁾.

والمؤلفة ترثي زوجها بكلمات الحب والحنان، ولا تقبل الحياة بدونه، ومازالت تذكره بكل جلاله وشموخه وكبريائه وفتوته، ورحلته عن الدنيا حين لم يعد له فيها مكان. لقد رآته

(¹) على الجسر بين الحياة والموت، ص 171.

(²) المصدر السابق، ص 177.

بعينها مسجى على فراشه، ليس بين حياته الدافئة الخصبة الفتية السخية، وبين هذا الموت الهامد، إلا نبضة من قلبه الكبير لم تستغرق جزءاً من ثانية وخفقة من نفس واحد، واقتحم أناس غرباء جثته وحملوه من داره الأولى إلى دار ليس منها الرجوع أبداً. ودفنوه في تراب قرية "شوشاي" الذي جاء منه، في ريف المنوفية. وله الرحمة والمغفرة.

وعاشت المؤلفة بعد زوجها المتوفى، حزينة باكية العينين ليلاً ونهاراً، وتعتقد بأن الحياة بدونها بقيت أقل جمالا ونضرة، وأندر شجاعة وحكمة، لقد كان نبضها الحي وسرها الأكبر، وهو الذي كان يُعطي للحياة قيمة ومعنى، وهو الذي أعطى إلى درهما الوجود الواحد لاثنين، والذي جعل الحياة الفردية حياة مشتركة، وبدونه انتهى كل شيء حتى معنى "الحياة"، وما كانت تتصور أبداً أنها تعيش بعد حبيبها وحيدة فريدة ضائعة في العالم الجسدي، بل كانت تتيقن أنهما معا في رحلة الحياة إلى يوم اليقين، كما تشتكي إلى الله: "أن الأمر ليس بمستبعد على قدرة الله وجبروته لو انتزعها معه من دار الفناء إلى دار البقاء، بالرحلة المشتركة لكانت رحلة ممتعة وذات معنى، فهما كانا الواحد الذي لا يتعدد، والفرد الذي لا يتجزأ"⁽¹⁾.

ثم تصرح بأن "الموت" اغتال من كان يعطي الحياة، ويفيض عليها جمالا من شجاعته وحكمته ودكائه وفروسيته، أكل بشر يموت؟ لكنها ما توقعت أن تعيشها بعده، فهل هو "الموت الذي لا يرى فينا إلا اثنين، لكل منهما أجله المقدر بالثواني، وعمره المحسوب بالأنفاس؟"⁽²⁾.

(¹) على الجسر بين الحياة والموت، ص 179.

(²) المصدر نفسه.

وما زالت حائرة لا تدري، وعلى الجسر بين الحياة والموت في متاهة الحيرة والضياغ، لا تكف عن رصد حركاتها وإحصاء أنفاسها، مستغرقة في تأمل هذا المشهد الغريب من حياتها، لم يبق لديها إلا الأحلام والذكريات، والذي بقي عندها هو هذا المشهد الفاجع⁽¹⁾.

وتركت بنت الشاطي مؤلفاتها البارزة ما يربو على الأربعين كتابًا في الدراسات الفقهية والإسلامية والأدبية، وأبرزها: التفسير البياني للقرآن الكريم، والقرآن وقضايا الإنسان، وتراجم سيدات بيت النبوة، ومنها: بنات النبي، ونساء النبي، وأم النبي، والسيدة زينب، والسيدة سكينة بنت الحسين، والإسرائيليات في الغزو الفكري، ونص رسالة الغفران للمعري، والخنساء الشاعرة العربية الأولى، ومقدمة في المنهج، وقيم جديدة للأدب العربي، والريف المصري، وسر الشاطي. ومن البحوث المنشورة: المرأة المسلمة، ورابعة العدوية، والقرآن وقضية الحرية الشخصية الإسلامية. كما قامت بتحقيق الكثير من النصوص والوثائق والمخطوطات⁽²⁾.

(¹) حصلت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطي) على كثير من الجوائز، منها: جائزة مجمع اللغوي مرتين في عامي 1950 و1953م، وجائزة الحكومة المصرية في الدراسات الاجتماعية والريف المصري عام 1956م، وجائزة الدولة التقديرية في الأدب عام 1978م، ووسام الكفاءة الفكرية من المملكة المغربية، وجائزة الأدب من الكويت عام 1988م، وجائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي 1994م. كما محتها العديد من المؤسسات الإسلامية عضوية لم تمنحها لغيرها من النساء؛ مثل: مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، والمحاسن القومية المتخصصة، وأبضا أطلق اسمها على الكثير من المدارس وقاعات المحاضرات في العديد من الدول العربية والإسلامية... ورحلت الدكتورة عائشة عن عالمنا في الأول من ديسمبر عام 1998م، بمستشفى هلوبليس بمصر الجديدة وكانت قد دخلتها إثر إصابتها بأزمة قلبية، وودعتها مصر في جنازة مهية حضرها العلماء والأدباء والمتقنون الدين جاءوا من شتى الدول، ونعاها شيخ الأهر وأُم صلاة الجمارة بنفسه. (راجع: بنت الشاطي من قريب الدكتور حس عبد الحميد حر المالكي، ورائدات الأدب النسوي في مصر لأميرة حواسك، ومجلة الوعي الإسلامي، العدد: 532، ديسمبر 2009م).

(²) انظر: المصدر نفسه.

المبحث الثاني

سيرة الدكتور جلال أمين

اسمه وأسرته: هو جلال أمين بن أحمد أمين⁽¹⁾، وأسرته أبيه أسرة قاهرية، فقد جاء جده إلى القاهرة هرباً من قرية⁽²⁾ بمديرية البحيرة حيث كان يُجلد الفلاحون بالسياط إذا لم يؤدوا ما عليهم من ضرائب، وقد تعلّم جدّ المؤلف في القاهرة حتى صار من علماء الأزهر. وكانت أسرته متواضعة الدخل تعيش حياة بسيطة، ولكن أباه لم يذق شظف العيش في طفولته أو صباه. فلا هو قضى الليل جائعاً ولا تعرض لمقارنة مريرة بين حاله وحال الأسر الأكثر ثراءً ويسراً. ولم يكن لدى الأسرة بالقطع وفرة من المال⁽³⁾.

وكانت أسرة أمه⁽⁴⁾ كذلك متوسطة الحال، تعيش في قرية "زاوية البقلي"⁽⁵⁾، وكان أبوها قد عمل قاضياً في إحدى مدن مصر، ومات في طفولتها، ثم ماتت أمها وهي في نحو العاشرة من عمرها، فانتقلت هي وإخوتها اليتامى (أخوال وخالات المؤلف) إلى بيت خالها⁽⁶⁾. ولادته: ولد جلال أمين في 23 يناير 1935م⁽⁷⁾. بعد معركة بين الأم والأب على تقرير مصيره، فالأب صمم على أن تجري الأم عملية إجهاض لهذا الحمل الذي جاء ختاماً

(1) انظر ترجمته في ص 34.

(2) لم يشر المؤلف إلى اسمها، بل تركها مجهولة، (ماذا علمتني الحياة: ص 23).

(3) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 23.

(4) تقدمت ترجمتها في ص 34. (راجع: ماذا علمتني الحياة: ص 25، و 29، ورحيق العمر ص 24).

(5) زاوية البقلي؛ إحدى قرى مركز الشهداء التابع لمحافظة المنوفية في جمهورية مصر العربية، بلغ عدد سكان زاوية البقلي

10,721 نسمة، حسب الإحصاء الرسمي لعام 2006م. (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة

والشهير، لعللي ناشاً مارك، 84/11-90)

(6) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 28.

(7) انظر: المصدر السابق: ص 22.

لسبعة إخوة، لكن الأم واجهته بالرفض، واتبعت في ذلك مناورات وأساليب ملتوية، كهروبها من منزل أخيها في العباسية أو منزل أختها في قرية زاوية البقلي بمحافظة المنوفية، ومرة بتخلفها عن ركوب قطار المترو بعد أن ركبها الأب، حتى استسلمت الأم لرغبة الأب وذهبت معه إلى الطبيب الإيطالي، ومع بدء عملية الكشف عليها دفعته بكل قوتها صائحة: "روح يا شيخ، هو أنا حبل في الحرام؟"، فتراجع الطبيب خائفاً، وقال بلكنة أجنبية: "ياخبيي أنا مالي؟، عايز تسقط، تسقط، عايز تخبل، تخبل"⁽¹⁾، خرجت الأم واستسلم الأب، ليحيى "جلال" إلى الحياة⁽²⁾.

تعليمه في مصر ولندن: دخل المؤلف إلى مدرسة روضة أطفال بمصر الجديدة، درس فيها من سن الخامسة إلى سن الثامنة⁽³⁾، ثم التحق بمدرسة ابتدائية بمصر الجديدة مطلة على شارع العروبة⁽⁴⁾، ومكث فيها سنتين، ثم التحق بمدرسة نموذجية ودرس فيها ست سنوات⁽⁵⁾، حتى انتهى من الثانوية⁽⁶⁾، ثم التحق بكلية الحقوق سنة 1951م بجامعة القاهرة، وقضى فيها أربع سنوات لم يذكر شيئاً مما حدث له خلال هذه الفترة، وعند تسجيله للمعلومات بعد سن الخمسين عن هذه الفترة شعر بالحرمان نحو الحياة الجامعية⁽⁷⁾، وأنه لم يكن هناك مقعد للجلوس أو لشرب الشاي أو تناول الطعام بين المحاضرات وإن الطلاب كانوا يدخلون المدرج ويستمعون إلى محاضرة بعدها أخرى يحاضر فيها أستاذ بعد آخر، وهكذا ينصرفون إلى بيوتهم

(1) لغة عامية معناها: يا عزيزي، أنا لا شأن لي، فسواء علي إن أردت إسقاط الحمل أو إتمامه.

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 21-22.

(3) انظر: رحيق العمر ص 68.

(4) مصر الجديدة، ضاحية في شمال شرق القاهرة في مصر، جب مطار القاهرة الدولي.

(5) وبقي له سنان قبل أن يجلس لامتحان الشهادة الابتدائية، (رحيق العمر ص 70).

(6) انظر: رحيق العمر: ص 74، وماذا علمتني الحياة: ص 141.

(7) طبعاً شعر به بعد سن الخامسة والخمسين.

دون أي تغيير يحدث. وبعد تخرجه في الجامعة حصل على بعثة حكومية للدراسة في إنجلترا للحصول على الدكتوراه في الاقتصاد، والتحق بمدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وقد أكمل جلال أمين أولا الماجستير ثم بدأ بالدكتوراه، وأتمها في ثلاث سنوات.

زواجه: أثناء إقامته في لندن، تعرّف على فتاة إنجليزية جميلة، وكانت تأتي من حين لآخر إلى كلية الاقتصاد لتقرأ في مكتبتها الأكثر غنى. أو لحضور إحدى المحاضرات العامة المتاحة للجميع، عرّفته عليها صديقة عراقية⁽¹⁾، فجذب انتباهه جمالها ووداعتها وإخلاصها في التعبير عما تعتقده أو تشعر به، فدعاها إلى العشاء ثم للسينما فقبلت، ومرت على علاقتهما ستة أشهر شعر خلالها بسعادة معها فعرض عليها الزواج، بشكل بسيط وتلقائي وكأنه لا ينطوي على أي خطر أو أهمية إذ سألتها: "هل تأتين معي إلى مصر عندما أنتهي من الدكتوراه؟" سألته بدهشة وسرور عما يعنيه، فلما أوضحه لها، قبلته دون تردد، فتزوج منها وأحضرها إلى مصر⁽²⁾.

قراءاته في سن مبكرة: شرع المؤلف في قراءة القصص والروايات، فقرأ قصص الأطفال التي كان يحضرها أبوه، مثل: مصباح علاء الدين، وعلي بابا والأربعين لصا، وقصصا عالمية أخرى للأطفال، وكُتِبَ كامل كيلاني وعبد الحميد جودة السحار ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم وطه حسين والملازمي والمنفلوطي وغيرهم، وكذلك الروايات أو المسرحيات المترجمة لجوته وبرنارد شو وتوماس هاردي وأندريه جيد، وبعض مسرحيات سوفوكليس، وغير ذلك لم يكن يترك إعجابه بقصة أو منظر إلا ويذكره في سيرته الذاتية، فيذكر أنه كان يتمتع بالقراءة في هذه السن إلى حد كبير، ثم يصف تلك الفترة الزمنية ويتمتع بذكرها ويتمنى استرجاعها مرة أخرى، كم كانت البركة في ذلك الوقت!!! يقول: "كنا نقرأ ويحسد بعضنا بعضا في الثقافة والعلم،

(1) كانت صديقة لطالبة عراقية تدرس الاقتصاد في نفس الكلية، (لم يترجم لها، واكتفى المؤلف بالإشارة لها أثناء الكلام).

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 166-167.

فأخي حسين - الذي يكبره بسنتين ونصف - كان دائما يتكلم عن "مثله الأعلى" الذي كان نابليون مرة وتولستوي مرة، ويسألني باستمرار عمن يكون "مثلي الأعلى" دون أن أكون حصلت على واحد بعد، فأعلنت عليه بسرعة عن مثلي الأعلى هو "فولتير" الذي قرأت له كتابا حينذاك وهو لا يقل قيمة عن مثله العليا، وكتبت عنه مقالا ونشر في "مجلة الثقافة" التي كان أبي يرأس تحريرها، تشجيعا لي على القراءة والكتابة، وربما كان هذا أول مقال نشر لي على الإطلاق⁽¹⁾.

بعض إرهاباته التعبيرية وهو صغير: كانت شهرة أبيه ومكانته العالية في المجتمع يعودان إلى الكتابة والتأليف، والمؤلف يرى لأبيه المقالات والكتب تُنشر، كما يسمع صوته في الإذاعة وهو يلقي أحاديثه، ويرد على المكالمات التليفونية لشخصيات معروفة ومشهورة، ويستلم بطاقات التهنئة عند أيام العيد وغيرها في مناسبات مختلفة، وعلى الظرف اسم أبيه مقترنا بعبارة "الكاتب الكبير" أو حتى في بعض الأحيان "عميد الأدب العربي"، وكل هذا أتى من "الكتابة والتأليف"، فما أعظمها من مهنة، وما أجدره بالافتداء⁽²⁾.

ويؤكد المؤلف بأنه كان لديه قدرة على التعبير والكتابة، في وقت مبكر من حياته فعندما كان يقوم بواجب في مادة "التعبير" في المدرسة فيعطيه بعض مدرسي اللغة العربية دائما درجة عالية على ما يكتبه من موضوعات الإنشاء. وكثيرا ما كان المدرس يكتب جملة أو جملتين من الثناء على ما يكتبه. ويسره سرورا عظيما، وربما هذا التفوق على كثيرين غيره من زملاء والأصدقاء في هذه السن المبكرة، واستعداده الطبيعي للتعامل مع الكلمات وتمييزه الأسلوب الجميل عن القبيح. واشترك المؤلف مع أخويه حسين وأحمد في كتابة قصص قصيرة، فكتب قصة تقع في نحو ثلاث صفحات، تحمل عنوان: "دنيا"، وكانت قصة مأساوية بالفعل، إذ كان موضوعها حلما مخيفا، تعرض فيه لأحداث مأساوية متتالية؛ منها: تعرضه للتعذيب القاسي، على يد سيدة غليظة القلب،

(1) ماذا علمتني الحياة: ص 79.

(2) انظر: للمصدر السابق: ص 86.

بشعة المنظر، دون أن يتبين في الحلم أي سبب واضح لهذا التعذيب، وتنتهي القصة بأن يسأل المؤلف عن اسم هذه السيدة فيكتشف أن اسمها "دنيا"، فيقول في نفسه "نعم، كم أنت قاسية يا دنيا". وبمذه الجملة تنتهي القصة. ويستيقظ المؤلف⁽¹⁾. وقد طبعت طباعة أنيقة في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ضمن مجموعة قصصية كتب عليها أسماء القصص والمؤلفين وتحت اسمي كتبت عبارة "تلميذ بالسنة الثانية في المدرسة الابتدائية".

كما أسس مجلة بعنوان؛ "عصفور النيل"، وصدرت منها ثلاثة أو أربعة أعداد ثم احتجبت عن الصدور، وكان صاحبنا رئيسا لها، وكانت معظم مقالاتها يكتبها بنفسه، وحينها كان عمره إحدى عشرة سنة⁽²⁾.

كما نشرت له بعض المقالات في سن مبكرة:

فقد كان للمؤلف بعض الشغف بالفلسفة في تلك السن المبكرة، فأعجب بديكارت بفضل كتب الدكتور عثمان أمين، وكتب المؤلف عنه مقالا بعنوان: "أدلة ديكارت على وجود الله"، ونشر في "مجلة الثقافة" قبيل دخوله للجامعة، كما نُشرت له في نفس الفترة، بعض المقالات مثلا: "نظرات فلسفية". وترجم فصولا من "الكوميديا الإنسانية لوليام سارويان" ونشرته له المجلة نفسها، وحصل على مكافأة قدرها جنيه واحد⁽³⁾، وبدأ بكتابة مذكرات عن الأحداث السياسية وهو في الثانية عشرة من عمره⁽⁴⁾، وأيضا ذكر أنه سجل بعض المعلومات الخاصة في أيام الجامعة، وقد كتب فيها بعض القصائد حول الحب والغرام، كما أشار إليها⁽⁵⁾.

أحوال بيته: لم يكن هناك ميراث ورثه المؤلف من أبويه، ولكن كان لأبيه دخل شهري معقول من وظيفته، لأن وظيفته كانت تتردد بين مدرس وقاض وأستاذ في الجامعة، كما كان

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 86-87.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 88.

(3) انظر: المصدر السابق: ص 80.

(4) انظر: المصدر السابق: ص 172.

(5) انظر: المصدر السابق: ص 102.

يُحصل على مكافآت عما ينشره من مقالات وكتب أو يشترك فيه من لجان، سمح له بشراء بيت من دور واحد في مصر الجديدة، ثم ببناء دور آخر فوقه⁽¹⁾. وهذا البيت له حجرات وشرفات واسعة، وأسقف مرتفعة كما كان هناك متسع للأطفال للعب والجري، سواء داخل البيت أو في حديقة صغيرة حول البيت، أو في الشارع. والمؤلف يستعيد في مخيلته، أي قبل ستين عاماً⁽²⁾، ليس فقط خلو المنزل من أي مسحة من الجمال، ويتساءل الآن كيف أن أحداً من أفراد الأسرة لم يلحظ وقتها هذا الافتقاد إلى ذلك الجمال؟ لا هو ولا غيره، أو يعلق أهمية على ذلك لو كان قد لاحظته.

لو ننظر إلى الأثاث في البيت وترتيبه، فنفهم أنه فقط يقوم بوظيفته الأصلية، وليس للجمال أي علاقة به، مع أنه ربما بدا فيه شيء من الجمال لو رتب على نحو صحيح، لكن أين الجمال في عيون أصحاب البيت؟ وهكذا كل شيء ... مثلاً؛ يذكر المؤلف أن وظيفة أي شيء كان علة وجوده استعماله، كما نرى في رأي الكاتب أن الكرسي فقط للجلوس والسرير للنوم والمكتب للكتابة والحمام للاستحمام ... إلخ، ولم توضع هذه الأشياء في أماكنها إلا لاستخدامها لا غير، ويتساءل المؤلف؛ ما الذي تريده أكثر من ذلك؟ تعليق صورة على الحائط؟ لماذا بالضبط؟ لا بأس من ذلك إذا صممت عليه، وهي في هذه الحالة توضع أعلى من مستوى النظر بكثير، حتى لا تكاد تستلفت نظر أحد، وإن اعوججت فلا أحد يصححها، ولو مرت عشرات السنين.⁽³⁾

غرف البيت المستخدمة كلها هي حجرات النوم، باستثناء حجرة واحدة كانت تتمتع بهيبة ملحوظة وتلقى عناية خاصة عند تنظيفها، ولا يدخلها أحد إلا لسبب وجيه، كانت

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 41.

(2) أي عند تسجيل سيرته ... (انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 41، وما بعدها).

(3) انظر: المصدر السابق: ص 42.

هذه هي حجرة نوم أبيه، ويسمونها "حجرة السرير"، وهي ممنوعة الدخول، إلا إذا شعر الأولاد بأن مزاج أبيهم يسمح لهم بتبادل الحديث معه، حينئذ تدخل أمهم وهم وراءها، فيختلسون النظر بحذر إلى أبيهم الجالس على الكنب الاستائولي وهو يحتسي القهوة، فتجلس على الأرض ويجلسون معها إلى جوارها كالقطط الصغيرة، كانت هذه الجلسة أقرب ما يكون للجلسة "العائلية" الحميمة، وهي على أي حال لم تكن تدوم طويلا، إذ سرعان ما تبدر من أبيهم كلمة أو حركة يفهم منها أن الزيارة قد انتهت، فينسحبون وراء أمهم كما دخلوا⁽¹⁾.

ضل إلى السياسة: تعرف المؤلف على الطلاب المنتمين ما يكون لحزب "البعث العربي الاشتراكي"، ومؤسسه أستاذ سوري اسمه ميشيل عفلق⁽²⁾، وأهم أنصاره: صلاح البيطار، وأكرم حوراني. والطلاب كانوا مجموعة من الشبان الناضجين الودودين، بهم درجة من الجدية والاهتمام بالسياسة والقضايا العامة تفوق بكثير ما كان شائعا بين الطلبة المصريين، فانجذب إليهم، وكان من الواضح أنهم حريصون على أن أنضم إلى حزبهم ومن ثم يؤسس للحزب لأول مرة فرع في مصر، ونقلوا إليه قول ميشيل عفلق: "إن الحزب لا مستقبل له إن لم يدخله مصريون، كان أول من التحق بالحزب من المصريين علي مختار⁽³⁾، وصاحبنا العضو التالي، وتكوّن منهما أول "خلية" من خلايا حزب البعث في مصر سنة 1954م، وبعد سنة صار مسئولا عن الحزب في مصر، وكان يقوم بتبرئة ميشيل عفلق من أية تهمة تتجه نحوه فيزيكه بتمام ثقته ويدافع عنه وعن أفكاره.

كانت هذه أول تجربة له وآخرها كذلك، لينضم إلى حزب سياسي، وهي تجربة تكاد تكون صبيانية أكثر منها تجربة في العمل السياسي، وحينها لم يكن المؤلف بلغ العشرين، وتركه

(1) ماذا علمتني الحياة: ص44.

(2) راجع ترجمه في ص36.

(3) الدكتور علي مختار من الأصدقاء المحلصين للمؤلف ودامت صداقتهما أربعين سنة، وتوفي في عام 1987م، (رحيق العمر: ص343).

بعد ثلاث سنوات، وذلك عندما وصل إلى لندن فقدم استقالته من الحزب، وقد سببت له - التجربة الفاشلة - متاعب كبيرة لعدة سنوات بعد ذلك، وذكرها أكثر من مرة.⁽¹⁾

اشتغال المؤلف بأعمال كثيرة منها:

1. رجع المؤلف إلى مصر ومعه شهادة الدكتوراه وزوجته سنة 1964م، وعين مدرسا⁽²⁾ في جامعة "عين شمس"، ثم أستاذا مساعدا في كلية الحقوق، كانت هذه وظيفة له باستثناء السنتين اللتين قضاهما بعد تخرجه مباشرة في مجلس الدولة، وحينها كان عمره يزيد على العشرين بقليل. رأى المؤلف عالما جديدا وغريبا في جامعة عين شمس، فيه القليل مما يبهج والكثير مما يجلب الإحباط وخيبة الأمل.

2. قدمت إدارة الجامعة الأمريكية بالقاهرة⁽³⁾ عرضا على المؤلف أن يدرس مادة "تاريخ الفكر الاقتصادي" إلى جانب عمله المعتاد بجامعة عين شمس، وذلك في عام 1966م⁽⁴⁾، وفرح بالعرض فقبل على الفور، لأن مقابله صفقة جيدة، بالإضافة إلى ميزات أخرى جلبها - في رأي المؤلف - التدريس في هذه الجامعة فمثلا؛ التدريس باللغة الإنجليزية، وتاريخ الفكر الاقتصادي كان دائما من أحب الموضوعات لديه، وكان يمكن أن يكلف التلاميذ بقراءة كتاب من المكتبة لإكمال المادة المطروحة في المحاضرة، وإزالة

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 139-129، و 183-187.

(2) كان في التاسعة والعشرين، وعندما تركها فلم يكن بلغ الأربعين من عمره. (راجع: ماذا علمتني الحياة: ص 211)

(3) تأسست الجامعة الأمريكية بالقاهرة عام 1919م، وهي مؤسسة تعليمية أمريكية رائدة توفر تعليماً متميزاً باللغة الإنجليزية، ومركزاً للحياة الثقافية والاجتماعية والفكرية في العالم العربي. تعتبر الجامعة ملتقى لثقافات العالم ومستدى للنقاش ومد أواصر التفاهم بين مختلف الثقافات وذلك لتنوع ثقافات الطلاب، والآباء وأعضاء هيئة التدريس، والعاملين، وأعضاء مجلس الأوصياء، والخريجين، وداعميها الذين يتنوعون لأكثر من 60 دولة حول العالم. تقدم الجامعة 36 برنامجاً لطلاب البكالوريوس و 44 برنامجاً لطلاب الدراسات العليا وبرنامجين للدكتوراه. (اطلعت عليه بتاريخ 4 ديسمبر 2018م <https://ar.wikipedia.org/wiki/>)

(4) انظر: ماذا علمتني الحياة، ص 275.

التساؤلات، التي تمطر أثناء المحاضرة، وكذلك الجامعة في حد ذاتها عالم جديد وجذاب - في رأيه - كما قيل: إن كل جديد لذيد، ...

3. دُعي المؤلف للاشتراك في مؤتمر الاقتصاديين العرب بالكويت في أوائل سنة 1973م، وكانت زيارته الأولى للكويت، والكويت في وقتها كانت تتمتع بجاذبية شديدة لبقية العرب، وما كان أكثر ما يعقد في الكويت من مؤتمرات وندوات عن مستقبل العرب وموقفهم من الحضارة الغربية...، وإلى جانب هذا كان هناك بالطبع الرخاء الشديد مع السخاء في الإنفاق، كما كان المؤتمر جيد الإعداد، والإنفاق عليه سخيا أيضا، فحضره عدد كبير جدا من صفوة المثقفين والجامعيين العرب، وحظي بتغطية إعلامية واسعة تزيد على ما تحظى به أمثال هذه المؤتمرات في كثير من الدول⁽¹⁾.

فوجئ منظمو المؤتمر بتعليقات الدكتور جلال أمين وكانوا قد استقبلوه واحتفوا به للغاية حتى فوق توقعاته، ثم قدم كلمته في المؤتمر، فجن جنونهم وعرضوا عليه العمل في الصندوق الكويتي، فرفض المؤلف لأول وهلة، لأنه كان يشعر بالغرور والكبر، ثم قبل العرض بعد ثمانية أشهر، وكان المؤلف يظن أنه "سيكون نفسه" في الكويت، بتوفير مبلغ من المال يمكنه من شراء شقة أو سيارة أو بيت أو يودعه في البنك ويحصل من ورائه على عائد يكمل به مرتبه البسيط في مصر، ولكن مكث المؤلف في الكويت وكان مثله مثل الفأرة الصغيرة التي رأت في زجاجة قطعة كبيرة من الجبن، أسالت لعابها، وجرت إليها دون أن تفكر فيما إذا كانت تستطيع الخروج من الزجاجة بعد أن تلتهم قطعة الجبن⁽²⁾.

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 237.

(2) انظر: المصدر السابق: ص 239.

4. دعي المؤلف بأمر من الأستاذ الأمريكي "مالكولم كير"⁽¹⁾ الذي كان وقتها مديرا لمركز بحوث عن الشرق الأوسط (يحمل اسم المستشرق "فون جرونباوم")، في جامعة كاليفورنيا بـ"لوس إنجلوس"، وكان المطلوب منه قضاء عام دراسي وتدريس بعض المقررات في التنمية واقتصاديات الشرق الأوسط، وكتابة بحث عن الاقتصاد المصري ينشر ضمن مجموعة من البحوث عن التطورات الحديثة في اقتصاديات البلاد العربية⁽²⁾. وقد رحب بالدعوة بشدة لأنها فرصة لرؤية الولايات المتحدة، فظن أنه سيرى عالما جديدا، وعندما وطئت قدماء أرض الولايات المتحدة، وشعر كأنه انتقل إلى كوكب مختلف تماما عن كوكب الأرض، وأدرك على الفور بأن الذي يراه ليس مجرد ظاهرة أوروبية مكثفة، ولكنها ظاهرة جديدة بمعنى الكلمة⁽³⁾.

وقد حققت هذه الرحلة - إلى الولايات المتحدة - الغرض منها: فكتب بحثا بالعربية نشر أولا في صورة كتاب بعنوان: "المشرق العربي والغرب 1789-1985م" ثم بالإنجليزية في كتاب مشترك بعنوان: "الدول الغنية والفقيرة في الشرق الأوسط" (Rich and Poor Countries in the Middle East) والأهم من ذلك هو تعرفه على نمط الحياة الأمريكية. ونلاحظ أن المؤلف كره ما لاحظته من ميل متأصل في نفس الأمريكي لتفضيل كل ما هو مصنوع، طالما أنه قد صنع بمهارة، على كل ما هو طبيعي، كما بدا له أن للأمريكي غراما لا حد له بإثبات تفوقه على الطبيعة وقدرته على الاستغناء عنها⁽⁴⁾.

الاكتئاب (1987 - 1989م): ظهرت على المؤلف حالة من الاكتئاب في نوفمبر سنة 1987م، إذ كان جالسا القرفصاء في سريره يقوم بتبييض مقال كان قد كتبه بغير شغف، وهو

(1) هو رئيس الجامعة الأمريكية ببيروت، اعتيل في 18 يناير 1984م. (المستدرك على تنمة الأعلام: 81/1)

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 263.

(3) انظر: المصدر السابق - ص 261.

(4) انظر: المصدر السابق: ص 265.

يدخن سيجارة في حجرة مغلقة النوافذ، وعندما ترك السرير وشرع في النزول إلى الدور الأرضي شعر بأن إحدى ساقيه قد أصابها ضعف ملحوظ، وأصابع يديه المسكة بالسيجارة، أصابها ضعف مماثل حتى كادت السيجارة تسقط من يديه، فصرخ مما أصابه من ألم فدخلت زوجته وأخذته إلى الطبيب، ثم فحصه مجموعة من الأطباء وعجزوا عن تشخيص مرضه ومع هذا كانوا يقترحون الأدوية التي ينبغي أن يتناولها⁽¹⁾.

لم يكن المؤلف يذهب إلى الطبيب عادة، لكنه هذه المرة ذهب إليه، وذكر له ما شعر به من أعراض، وأنه أصابته منذ فترة ليست بالقصيرة تقرحات مستمرة في اللسان، وذكرت له زوجة المؤلف أنه حدث له نفس الشيء في بيروت قبل خمس عشرة سنة، وانتهى الأطباء وقتها بعد الكثير من التحليلات؛ إلى أن السبب "فيروس غير معروف الهوية". فنصحته الطبيب بدخول المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، ولكنها لم تسفر بدورها عن أي شيء يساعد على تشخيص المرض، وسأله الطبيب: "هل مات شخص عزيز عليه مؤخراً؟"، ولعله رأى أن قلقه لا يبرره ما طرأ عليه من أعراض، ثم قال الطبيب جواباً لما قالت زوجته عما حدث له في بيروت: إن المرض قد يكون "Behcet" وهو مرض قد تتفق أعراضه مع بعض ما طرأ عليه من تقرحات شديدة في الفم، وربما اقترنت بتجلط في بعض الأوعية الدموية. ولكن المرض على أي حال ليس له علاج أكيد معروف⁽²⁾.

مؤلفاته: ألف المؤلف بعض الكتب معظمها في علم الاقتصاد، والاقتصاد العالمي، والقضايا الاجتماعية والسياسية، ورؤية الغربيين والشرقيين للاقتصاد، كما نشر له كثير من المقالات التي لا مكان لتسجيلها هنا، وسأذكر من الكتب بعضها: الاقتصاد القومي مقدمة لدراسة النظرية النقدية، والاقتصاد والسياسة والمجتمع في عصر الانفتاح، وخرافة التقدم

(1) انظر. رحيق العمر، ص 343.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 346.

والتخلف، وشخصيات لها تاريخ، وشخصيات مصرية فذة، والعرب ونكبة الكويت، وعصر التشهير بالعرب والمسلمين، وعصر الجماهير الغفيرة، وعولة القهر: الولايات المتحدة والعرب والمسلمون قبل وبعد أحداث سبتمبر 2001م، وفلسفة علم الاقتصاد، وقصة ديون مصر الخارجية من عصر مُحمَّد علي إلى اليوم، وكشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية، وماذا حدث للمصريين؟، والماركسية، عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد، والمثقفون العرب وإسرائيل، ومصر في مفترق الطرق، ومصر والمصريون في عهد مبارك (1981-2008م)، ومقدمة إلى الاشتراكية، مع دراسة لتطبيقها في الجمهورية العربية المتحدة، ومكتوب على الجبين: حكايات على هامش السيرة الذاتية، ووصف مصر في نهاية القرن العشرين.

المبحث الثالث

حياة الدكتور شوقي ضيف

اسمه ومنشأه وأسرته:

تخرج الشيخ عبد السلام⁽¹⁾ في المعهد الأزهري بدمياط، وبدأ يبحث عن وظيفة يخدم بها الدين، فرجع إلى قريته قبيل زواجه مكتفيا بمزرعة صغيرة تعوله هو وأسرته، وأقام حلقة دروس دينية بين المغرب والعشاء غير منتظر منهم أجرا ولا شكورا، فهو رجل صالح يستبح الله ويذكره كثيرا، وكان يكثر من تلاوة القرآن الكريم كلما وجد فراغا وخلا إلى نفسه، فهو سلواه وريحان فؤاده.

تزوج الشيخ من ابنة خالته⁽²⁾، وكانت امرأة بارة بزوجها، وصالحة تذكّر الله ليلا ونهارا، فالبیت كان بمثابة مجلس ديني دائما، ولا أحد يغفل عن ربه لحظة، وكل ذلك مثل القطر والندى والأريج والشذى الذي يتفتح فيه الإنسان كما تتفتح البراعم، فاسم الله يتردد في آذان أهل الدار، بل ينقش نقشا في صدور أطفال هذا البيت، وينشر المحبة وحب الخير بين أصحاب البيت صغارا وكبارا رحالا ونساء.

وولد في هذه البيئة المباركة؛ شوقي ضيف⁽³⁾، بقرية "أولاد حمام" في محافظة دمياط⁽⁴⁾.

(1) والد الدكتور شوقي ضيف، توفي في مارس 1964م، (انظر: معي للدكتور شوقي ضيف، 18/1، و76، و104/2، ولوعة

على شوقي حمزة بن فایع الفتحي، ط1، (بدون ذكر اسم الدار والطبعة)، 2005م، ص31).

(2) توفيت سنة 1973م، (انظر: معي 18/1، ومعني ذكريات ومشاهدات، 127/2).

(3) وذلك في 13 يناير 1910م. (انظر: لوعة على شوقي حمزة بن فایع الفتحي، ص29، و38، و47، و53).

(4) انظر: معي 18-17/1.

التحق شوقي ضيف بالمدرسة الأولية وعمره ست سنوات، وكانت المدرسة لأبناء القرية عامة الموسرين منهم والمعسرين⁽¹⁾، إذ لم تكن القرى الريفية تعرف الفرق في التعليم بين أبناء الفئتين، فالجميع في القرية سواء يشتركون في كل شيء كما يشتركون في الماء والهواء، وكانت لشوقي ضيف أخت شقيقة وأخت من الرضاع، وأهل الأختين يختلفان يسارا وإعسارا، ومع ذلك فالصلة بين الصبي وأخته متينة وهي صلة تقوم على الحنان والتعاطف الرقيق. وبالمثل كانت تقوم الصلات في القرية بين جميع أهلها، كأنهم أسرة واحدة، يجتمع الرجال في المسجد للصلاة لا فرق بين موسر ومعسر، وكذا تجتمع نساؤهم في المناسبات المختلفة في بيت من بيوت القرية ولا فرق بينهم⁽²⁾.

والمدرسة الأولية مدرسة مختلطة بين البنين والبنات اختلاطا طبيعيا، وكأن المدارس الريفية هي التي استجابت مبكرة لفكرة الاختلاط في التعليم، وكان الذكور والإناث فيها يتنافسون فيما بينهم منذ التحاقهم بها في سنوات حياتهم المبكرة⁽³⁾.

حياته الريفية

وكان الدكتور شوقي ضيف مولعاً منذ طفولته بمزرعة أبيه، وهي على قيد خطوات من داره، وكان من أروع ما يعجبه فيها النخل بقامته السامقة المهيبة وأجنحته العالية من السعف الأخضر الممتدة في الفضاء، وكثيرا ما كان أبوه يصحبه معه إلى مزرعته لقضاء بعض الأعمال بها، وكان يفرح لهذه الصحبة وخاصة في المساء، إذ يتاح له رؤية الشفق على أفق السماء

(1) انظر: معى 22/1.

(2) انظر: المصدر السابق، 23/1.

(3) انظر: المصدر السابق، 24/1.

الغري، وكأنه يصبغها بألوان مضيئة وردية وبنفسجية وياقوتية وذهبية، وتتداخل الألوان بعضها في بعض بالطول والعرض، يأخذ الشفق في الغروب ويختفي تدريجياً وكأنما الطفل في حلم⁽¹⁾.

قصص قبل النوم وأثرها على المؤلف

كانت أم الصبي تقص عليه قصصاً كثيرة، وكان من عاداتها أن تقص عليه قصصاً تتعلق بأبيها هي، وكان عمدة من عمد الريف على شيء من اليسار، ولكنه لم يكن من أهل الثراء، وكانت ابنته لا تزال تذكره وتحبه، وتحكي من حزمه قصصاً كثيرة والقصة التي نحن بصدددها الآن؛ حكّتها أكثر من مرة، والصبي لم ينسها وهي؛ أن أباه - أي؛ جد الصبي للأم - كان لا يخاف الحكام والوزراء، فأراد الوزير المشهور "علي مبارك" أن يشتري ضيعة⁽²⁾ من الدولة وحكّم نفراً من العمدة حول بلدة "برمبال"⁽³⁾ - القرية من منزله - ليقدروا له في الضيعة ثمن الفدان الذي سيحسب على أساسه ثمنها الكلي، فكلهم رأى مجاملته، وقدّر الفدان فيها بثمان بخس، وسأل أباه فقال له: ليست صحيحة هذه الأثمان التي قُدرت للفدان، فثمنه الصحيح يزيد على ذلك كثيراً، وسأله أن يحدده، وأخذ برأيه، وربما كان لهذه القصة التي

(1) انظر: معي 20/1-21.

(2) الضيعة: الأرض المعلقة، والعمل النافع المزيج، كالتجارة والصناعة وغيرهما من الحرف، وقد تطلق على الرّبح نفسه، وجمعها: ضيعات وضيعات وضياع وضيّع. (المعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية، على إشراف الدكتور شوقي صيف، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1425هـ/ 2004م، مادة: "ص ي ع"، ص 547).

(3) قرية برمبال، هي إحدى القرى التابعة لمركز مطويس في محافظة كفر الشيخ، في جمهورية مصر العربية، بلغ عدد سكانها 14373 نسمة، منهم 7389 رجل و6984 امرأة، (انظر: الجهاز المصري المركزي للإحصاء. اطلعت عليه بتاريخ 12 أغسطس 2012).

رددتها الأم على مسمع الصبي كثيراً، أثّر فيه وفي آرائه، فلا يدهن ولا يجامل، غرس خلقي غرسته أمه في نفسه منذ بواكير حياته⁽¹⁾.

كما أنه كان يجلس كثيراً إلى جدته لأبيه التي كانت تحكي له بعض ما سمعته من أخبار الفتوح الإسلامية مما كان يقرأها جده لها؛ إذ كان شغوفاً بتلك الأخبار والقصص، وخاصة أخبار الخلفاء، فكانت من بين هذه القصص التي حكتها الجدة للصبي؛ أقصوصة عن الخليفة المأمون بن هارون الرشيد ظلت في ذاكرته، ومؤداها؛ أنه كان ماراً في موكبه ببغداد في أحد الأيام، وحين وصل به الموكب إلى قصر أبيه الرشيد حانت منه التفاتة إلى نوافذه وشرفاته، فرأى زوجة أبيه زبيدة تطلّ للفرجة على موكبه، وأحس المأمون بأنها تتمم ببعض الكلمات، فأوقف المأمون الموكب وصعد إليها، فاستقبلته مرحبة، وسألها عما كانت تتمم به من كلمات غير بيّنة، فحاولت أن تمويه عليه وتتخلص من سؤاله برفق، ولكنه ألحّ عليها واستحلفها بأبيه الرشيد - وكان قد نشب خلاف عنيف بينه وبين ابنها الأمين وتحارباً ودارت الدوائر على الأمين وقُتل في الحرب - فأخبرته قائلة: "لقد كنتُ أتمتم: ليت هذا الموكب كان لابني الأمين..." فطّيب المأمون خاطرها، وندم على ما كان من إسرافه عليها في الإلحاح حتى سمع منها ما كان في غنى عن سماعه، واستأذن منها في الانصراف وهو يقول في نفسه نادماً: لعن الله الإلحاح والملحين. ولعل هذه الأقصوصة التي لقنتها الجدة حفيدها وهو صغير، كانت السبب الحقيقي في أن يأخذ نفسه بأن لا يلج في أي شيء، وأن لا يفكر في التعرف على أي خير يمس شخصاً مهما تكن صلته به، وظل طوال حياته على هذه الخصلة التي زرعتها في نفسه هذه الجدة

(1) انظر: معي 30/1.

الريفية الأمية من جدات الجيل الماضي اللائي كن يعرفن كيف يلتقطن من الأقايصيص والأخبار ما يربّين به أحفادهن تربية قويمّة⁽¹⁾.

شوقي ضيف في دميّاط

عندما أبصر المؤلف الربيع التاسع من عمره، ترك الأب القرية واتخذ دميّاط دار مقام له فصحبته عائلته إليها. وكانت دميّاط عالما جديدا للصبي بدكاكينها وحوانيتها التي كانت تضاء في المساء بمصابيح الكهرباء⁽²⁾.

التحق الصبي بكتاب دميّاط، وكان به مقرئ معروف بشدته في تحفيظه القرآن للأولاد، كان الكتاب ملحقا بجامع البحر، وكان به المعهد الديني وحلقات الدرس، فرأى الصبي من بيده لوح يحفظ منه ما سُطّر فيه، ومن بأيديهم مصاحف يتلوها وهم جميعا يهتزون، ورأى المقرئ أو كما كانوا يسمونه "سيدنا" جالسا على حشّية صغيرة وصبي يُسمع عليه محفوظه مهتزا بانتظام، وأخذ الصبي "صاحبنا" مكانه بين رفاقه، وما إن مرت عليه بضعة أيام حتى لاحظ "سيدنا" سرعة حفظ الصبي، إذ رآه حين يلزمه بحفظ صحيفة أو أكثر من المصحف الشريف، يبادر سريعا إلى تسميعها إياه دون أن يخطئ في حرف منها، فرأى أن يجعلها له صحيفتين أي؛ يساوي ربعا - من الجزء القرآني - كاملا، فالصبي يحفظ يوميا نحو هذا القدر من الذكر الحكيم، مما جعله يتم حفظ القرآن الكريم جميعه في أقل من سنة. وكان يوم إتمامه له يوم فرح في داره، احتفل به أبواه كما أهدي الأب إلى "سيدنا" بعض الهدايا المعتادة في مثل هذه المناسبة⁽³⁾.

(1) انظر: معي 32-31/1.

(2) انظر: المصدر السابق، 50-49/1.

(3) انظر: المصدر السابق، 52-51/1، و54.

أمنية أبويه

وكانت أمانة أبويه أن يصبح ولدهما - شوقي ضيف - شيخاً⁽¹⁾، وكانا يرددان على سمعه أنهما وهباه للعلم، وكلمة "العلم" عندهما؛ إنما تعني "العلم الديني" الذي يحمله شيوخ الأزهر الشريف في صدورهم. وبعد شهر - من إتمام الحفظ - ألحقه أبوه بالمعهد الديني في دمياط، وفاء بهبته للعلم⁽²⁾.

مراحل تعليمه

التحق الصبي بالمعهد الابتدائي الديني في دمياط، وذلك في غرة العام الدراسي 1921م، وكان مما درسه في هذه المرحلة: متن الأجرومية، ومتن الأزهري، وقطر الندى وبل الصدى، وطالع مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، كما طالع بعض الكتب الأدبية عن تطور الشعر في العصر العباسي الأول، وتخرج الفتى في معهده الديني سنة 1926م، ونجح النجاح المأمول في الشهادة الابتدائية الأزهرية⁽³⁾.

ارتقى المؤلف إلى معهد الزقازيق الديني الثانوي، والتحق به في أول العام الدراسي الجديد، ليكمل دراسته الأزهرية فيه، وانتظم بين طلاب المعهد الجديد، وبدأ يقرأ الشروح والحواشي على بعض المواد، حتى يشفي غليله، وقد اجتاز الفتى السنة الأولى الثانوية بمعهد الزقازيق الديني إلى السنة الثانية، وعلى عادته كان يعكف على قراءة المتن والشروح طوال العام الدراسي، وكان الفتى يشعر بوضوح أن الجو العلمي في معهد الزقازيق الثانوي أقل بكثير من مثيله في المعهد الابتدائي بدمياط، فهو معهد ديني قديم، له أصول في المدارس التي أنشأها

(1) أي عالماً من علماء الدين.

(2) انظر: معي 51/1، و56.

(3) راجع: المصدر السابق، 63/1، و67، و75، و83، و93.

المماليك، وكانت المدارس تنشأ في المساجد والجامع الكبيرة، وأكثر شيوخ هذا المعهد الديني الذين تلقى عليهم المؤلف دروسه كانوا من دمياط نفسها، ومن سلالة علمائها الناجمين⁽¹⁾.

أراد الفتى أن يأخذ الطريق إلى دار العلوم، لأنه تأثر بقراءة بعض المقالات الأدبية التي تُنشر في الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية لكتاب بينهم وبين الدار صلة رحم، فدفعه ذلك إلى ترك الطريق الذي اختاره له أبواه؛ وهو طريق التعليم الديني في الأزهر الشريف. فالتحق بالمدرسة التجهيزية التي تُعد الطلاب للالتحاق بدار العلوم إعدادا علميا، وأخذ الفتى يعد نفسه طوال الصيف للالتحاق بها، واجتهد كثيرا واطلع على علوم لم يعهدها من قبل، مثل: الكيمياء والطبيعة والحساب وغيرها، وبدون معلم ودون أية تجربة في معمل، وأخيرا نجح في الامتحان، وانتظم بين طلاب التجهيزية بالقاهرة في عام 1928م⁽²⁾. وقد أنهى الفتى دراسته بالسنة الرابعة والأخيرة بالتجهيزية، وعزم في العام الدراسي الجديد على الالتحاق بقسم اللغة العربية بكلية الآداب في جامعة الملك فؤاد (جامعة القاهرة الآن) وقُبل بين كثيرين كانوا نحو ثمانين طالبا من الأزهر والتجهيزية، واختار الفتى في السنة التمهيدية - وهي مخصصة لتعلم اللغات الأجنبية - اللغة الإنجليزية لغة أولى والفرنسية لغة ثانية، وعكف على هاتين اللغتين حتى اجتازهما في امتياز، كما جلس في درس اللغة السُريانية لسنة واحدة⁽³⁾.

(1) انظر: معي 100/1-101.

(2) انظر: المصدر السابق، 51/1، و103-104.

(3) انظر: المصدر السابق، 123/1-124، و132.

وبعد عامين دخل الفتى في اختيار تخصصه - من السنة الدراسية الثانية - قسم اللغة العربية الذي جاء من أجله إلى هذه الكلية، فتخصص في المواد الأساسية واستمر فيها ثلاث سنوات، إلى أن تخرج في سنة 1935م⁽¹⁾.

وواصل شوقي ضيف الدراسة في الماجستير، واختار موضوعاً لرسالته بعنوان: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني"، وتعد هذه الموسوعة أهم مرجع للشعر العربي وشعرائه من العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثالث للإسلام، وتموج بملاحظات اللغويين والشعراء والنقاد على الشعر، وأتاحت له أن يقرأ في بواكير حياته العلمية أكبر مصدر للشعر العربي وشعرائه في الحقب الأولى للأدب العربي، ولذلك كتب في الشعر العربي وتاريخ الأدب والنقد أسفاراً كثيرة⁽²⁾.

وعقب مناقشته للماجستير عرض عليه أستاذه الدكتور طه حسين⁽³⁾ موضوعاً لرسالة الدكتوراه، عن: "التكلف الشديد في الشعر العباسي في القرن الرابع الهجري"، فانكب فيه الشاب، يطالع فيه شهوراً، وبعد الصيف رجع الأستاذ الدكتور طه حسين من أوروبا ولقيه الشاب، فسأله الأستاذ عن الموضوع: فأخبره بأنه قرأ لشعراء كثيرين وشرع الموضوع يتضح في نفسه أكثر، ويرى تعديلاً في الموضوع، وهو: "دراسة فن الشعر العربي منذ ظهوره إلى العصر الحديث"⁽⁴⁾.

(1) انظر: معي 131/1، و151.

(2) انظر: المصدر السابق، 159/1-160.

(3) تقدمت ترجمته في ص 19.

(4) معي 161/1-162.

أعماله ووظائفه:

عندما أكمل الدكتور شوقي ضيف سنة 1935م مرحلة البكالوريوس، ذهب لزيارة أستاذه الدكتور طه حسين في منزله، ووجده كأنما كان في انتظاره، وبعد أن هنأه على تفوقه، عرض عليه عملاً في المجمع، لأن الشيخ أحمد الإسكندري - وهو عضو بارز في المجمع - رشحه ليعمل فيه، فذهب إليه شاكرًا، ولقيه لقاءً كريماً، فأرسله إلى مراقب المجمع، ليتسلم منه العمل، وانتظم فيه الشاب وبدأ يحضر يومياً... (1).

ثم أعلنت الحكومة المصرية نظام المعيدين لأول مرة في الجامعة، واختار قسم اللغة العربية بكلية الآداب بعض خريجيه ممن أثبتوا تفوقاً في الدراسة، وكان شوقي ضيف من بين من اختارهم الكلية، فعينته وكلفته بالمحاضرة لطلاب السنة الدراسية الأولى الإعدادية (2).

ثم عين مدرّساً في قسم اللغة العربية بآداب جامعة القاهرة عام 1942م، بعدما حصل على درجة الدكتوراه، واستمر في تدريسه طوال عمره في القسم المذكور، حتى عين أستاذاً متفرغاً بآداب جامعة القاهرة عام 1976م (3).

شيوخه:

لم يشر الدكتور شوقي ضيف إلى شيوخه إلا بوصف "سيدنا" أو "الشيخ" أو "شيخه" لأسباب لم يسجلها، وأظن أنه كان يلجأ إلى ذلك حتى لا يجرح مشاعر بعض الذين كان يأخذ عليهم بعض المآخذ سواء في أساليب تدريسهم أو سلوكياتهم، ففي معرض حديثه عن طريقة الأستاذ الذي درّسه مادة النحو أربع سنوات في دار العلوم لا يذكره إلا بكلمة

(1) انظر: معي، 151/1، و155.

(2) انظر: المصدر السابق، 157/1.

(3) انظر: معي، دكریات ومشاهدات 5/2، و175، و177.

"شيخى"، أو "الشيخ" أحيانا، وكان يدرّس برتابة وطريقة قديمة بالية، لا تعجب الدكتور شوقي ضيف فكان ينتقد طريقته تلك بعبارات لا تحط من قدر الأستاذ ومنزلته⁽¹⁾.

وعندما يحكي عن مرحلة دراسته في الجامعة، يذكر معظم الأساتذة بأسمائهم، ويذكر ما درسه على أيديهم من المقررات الدراسية، ومن بين هؤلاء الذين ذكرهم؛ الأستاذ إبراهيم مصطفى⁽²⁾ الذي كان يدرّس لهم مادة النحو بطريقة جديدة لم يألّفها الفتى في الأزهر ولا في المدرسة التجهيزية ولا في كتب النحو القديمة التي اطلع عليها. كما يذكر أستاذ البلاغة والتفسير الأستاذ أمين الخولي⁽³⁾، وأستاذ اللغة الفارسية وآدابها الأستاذ عبد الوهاب عزام⁽⁴⁾،

(¹) انظر: معي 52/1، و63، و67، و75، و92-93.

(²) إبراهيم مصطفى (1888م-1962م)، عالم لغوي مصري، ابتداء دراسته في الأزهر وتخرج بدار العلوم، ودرّس الأدب العربي في جامعة الإسكندرية، كما درّس أيضا في كلية دار العلوم، وأصبح عميدا لها سنة 1947م، ومن مؤلفاته: إحياء النحو، وشارك في تحقيق بعض الموسوعات منها؛ سر صناعة الإعراب لابن جني، وإعراب القرآن للزجاج. (راجع: معي 134/1، وموسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر المحجري في العالم العربي والإسلامي من 1301-1417هـ، لإبراهيم عبد الله الحازمي، ط: 1، دار الشریف، الرياض، 1419هـ، 185/1، والأعلام للزركلي 74/1).

(³) تقدمت ترجمته في ص 25.

(⁴) ولد عبد الوهاب عزام عام 1894م، لأسرة لها باع طويل ودور كبير في الفكر والسياسة، حفظ القرآن الكريم مبكرا ودرس بمدرسة القضاء الشرعي، وتخرج بها سنة 1920م، وكان أول الخريجين فعين معلما بها، ثم عين مدرسا بكلية الآداب جامعة القاهرة، ونال درجة الدكتوراه عن دراسة وتحقيق "شاهنامة الفردوسي" في العام 1932م، وصار بعدها أستاذا ثم رئيسا لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية، ثم عميدا لكلية الآداب في العام 1945م، ثم عين سفيرا في باكستان عام 1950م. وأصبح رئيسا لجامعة الملك سعود حتى توفي عام 1956م. (انظر: معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة ... لمحمد حير رمضان يوسف، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2004م، 428/1، ومعني 136/1).

وأستاذ الحياة العقلية الإسلامية الأستاذ أحمد أمين⁽¹⁾، وأستاذ الفلسفة الإسلامية الشيخ مصطفى عبدالرازق⁽²⁾، وأستاذ الأدب والنقد الأستاذ الدكتور طه حسين⁽³⁾.

رحلاته العلمية إلى بلاد العالم ...

أراد المؤلف السفر إلى إيطاليا وأقلعت طائرته من مطار القاهرة - وذلك في سبتمبر سنة 1956م - مولية وجهها نحو روما حيث قضى بها يومين، شاهد فيها أهم معالمها من المتاحف والملاعب، وزار قصر الفاتيكان ويستكشف خلاله يتأمل في آيات التصوير والفن الرائعة، وتجول مع رفاقه في وزارة الثقافة الرومانية، كما رأى مطبعة الدولة التي تطبع بعض الصحف ومناهج جميع المدارس والمعاهد ومجلات مختلفة للأطفال والعمال والفلاحين، كما تمتع برؤية منظر من فيلم "القلعة المحطمة" في دار السينما، وأعجب المؤلف بقصر ملكي تحول إلى بيت للأدباء، فيه يقيم دائما نفر منهم فترة لإنجاز بعض أعمالهم الأدبية، والتقى فيه المؤلف بأدبية متقدمة في السن⁽⁴⁾، وذكرت أنها تقيم هنا منذ أربعة أشهر، وأنها أنجزت به

(¹) تقدمت ترجمته في ص 34.

(²) ولد السبع سنة 1885م، في أسرة وطنية تربية بالمبيا، وكان والده حسن عبدالرازق من مؤسسي جريدة "الحريّة" و"حزب الأمة"، حفظ القرآن الكريم، وواصل دراسته في حلب واحتجاز، وتدارس مع والده كتب الآداب ودواوين الشعراء، فتمت موهبه وأيعب، ثم التحق بالأهر، حيث التقى بالنقى بالشح الإمام فجد عده، وبعد النخرج انقلب للتدريس بمدرسة القضاء السري، ثم حصل على درجة الدكتوراه من جامعة "السوربون" بفرنسا، وفي سنة 1927م نُقل إلى الجامعة أستاذًا مُساعدًا، ثم أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، ففار بلقب أستاذ الفلسفة في أول أكتوبر سنة 1935م، ثم احير وريزا للأوقاف من عرة شهر إبريل سنة 1938م حتى فبراير سنة 1942م، واحتير شيخا للأهر الشريف في فترة 1945-1947م، وأحيوا توفي في فبراير سنة 1947م. (انظر: الأعلام للزكلى 231/7)

(³) انظر: معى 134/1.

(⁴) لم يسجل المؤلف اسمها، كما لم يشر إلى عنوان المسرحية. (يراجع. معى ذكريات ومشاهدات 47/2).

مسرحية هي السابعة في إنتاجها الأدبي المسرحي، وزار مكتبة الجامعة العامة، وقيل له: إن بها مليوناً ونصفاً من الكتب، وبها للقراءة والاطلاع سبع صالات تشتمل على 650 مقعداً، وبها مخطوطات قديمة كثيرة، يبلغ عددها خمسة آلاف مخطوط، منها خمسمائة مخطوط عربي⁽¹⁾.

استمرت الرحلة ففي اليوم الثاني من أكتوبر انتهت زيارة شوقي ضيف ورفاقه لرومانيا وبارحوها إلى موسكو وزار بها معهد اللغات الشرقية، والتقى بأساتذتها وعرف نشاطهم ونشاط أسلافهم في ترجمة كثير من الكتب العربية القديمة والحديثة وكثير من الأشعار والأقاصيص، ورأى ترجمة لبعض الكتب مثل: كليله ودمنة، وألف ليلة وليلة، وشعر ثورة 1919م لعبد الرحمن الرافعي⁽²⁾.⁽³⁾

وقام بزيارة بعض المدارس في موسكو، ورأى فيها الأطفال يهتمون بتعلم بعض الأشغال اليدوية، وبعد السنوات الأربع الأولى يختلف التلاميذ إلى ورش محدودة لتعلم بعض أوليات الصناعة والزراعة، حتى إذا أصبحوا في المدارس الثانوية وجدوا بها "ورشا" تطبيقية للنجارة والحداثة والميكانيكا والكهرباء، وتلحق بالمدرسة قطعة صغيرة من الأرض لتدريب من يرغب من التلاميذ في معرفة كيفية الزراعة. وبذلك يُعَدُّ التلاميذ إعداداً عملياً وفنياً ليكونوا نافعين

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 51/2.

(2) هو عبد الرحمن الرافعي، مؤرخ ومحامي وصحفي وسياسي مصري، ولد في القاهرة 8 فبراير 1889م، وتعلم فيها، التحق بمدرسة الحقوق وتخرج فيها سنة 1908م، فاشغل محامياً وصحفيًا في مجلة "اللواء"، وكتب بعض المؤلفات، منها: حقوق الشعب، والعاون، وتاريخ الحركة القومية في مصر، ومصر والسودان في أوائل عهد الاحتلال وغيرها، واشترك في ثورة 1919م وانتخب نائبا في البرلمان عن دائرة المنصورة سنة 1923، وأرخ لثورة 23 يوليو 1952م، وبها كرمه الدولة المصرية بمائزتها التقديرية للعلوم الاجتماعية سنة 1961م، ثم عاد نائبا بمجلس الشيوخ حتى عام 1951م، وتولّى عدّة وزارات مثل وزارة الترميم لمدينة قاهرة، وأخيرا توفي سنة 1966م. (انظر: المصري اليوم: ماهر حسن، مؤسسة المصري اليوم للصحافة والنشر، العدد. 1999، [نشر المقال تاريخ] 3 ديسمبر عام 2009م).

(3) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، 44/2-60.

لأنفسهم في البيت وفي الحياة إذ لا يخرجون من التعليم الثانوي إلا وقد عرفوا قيادة السيارة، والتعرف على أجزاء السيارة حتى يمكنهم إصلاح أي عطل فيها، وأيضا التعرف على أجزاء الراديو والتلفزيون وتركيبها جميعا حتى يصلحوا ما قد يصيب أحدها من خلل. ووجد الدكتور شوقي ضيف فرصة سانحة فسافر (في نفس الرحلة) إلى طشقند - حاضرة جمهورية أوزبكستان الإسلامية - في أواسط آسيا، حيث زار مكتبة معهد العلوم الشرقية، واطلع فيها على أهم المخطوطات العربية، ومن بينها مخطوطة قيمة هي؛ "تجارب الأمم" وهي المنسوبة إلى مسكويه⁽¹⁾، والتي كتبت سنة 591هـ⁽²⁾.

وفي سنة 1959م سافر المؤلف في رحلة رسمية من قبل جامعة القاهرة التي عقدت أول امتحان لليسانس الآداب في فرعها الذي أنشأته بالخرطوم، ليقدّم تقريرا عن مستوى طلابها العلمي، وكانت فرصة طيبة أن يرى الخرطوم وموقعها من النيل الأبيض والأزرق، وليشاهد أهلها، واتفق ذهابه إليها مع شهر رمضان المعظم، وصادف أن دعاه مدير جامعة الخرطوم ليقضي بمنزله أمسية من أمسيات رمضان فقبل الدعوة، ولم يكن يعرف أن أهل السودان الأشقاء حين يؤذن للمغرب لا يتناولون طعام الإفطار مثل المصريين بل يؤجلونه بضع ساعات

(1) أحمد بن محمد - أو علي - بن يعقوب المعروف بمسكويه (وليس بابن مسكويه فهو خطأ)، سبى إلى المسك لحصاله الحسنة كما يقال، أو لأنه كان يحب التنطيط بالمسك - أو المشك بالفارسية ولذلك أطلق عليه بعضهم لقب مشكويه -، ولد بمدينة الري عام 325 أو 330هـ، عاصر الخوارزمي وأبا حيان التوحيدي، وتأثر بخاير بن حيان والرازي في دراسته للكيمياء، واعتنى بدراسة الطب واللسان إلى جانب شهرته كمؤرخ وفيلسوف منطقي، عاش في أصفهان، وتجاوز التسعين من عمره، توفي عام 421هـ، وله من المؤلفات: رسالة في الطبيعة ورسالة في البحر العظيم ورسالة في الكيمياء والكنز الكبير وكتاب الأدوبة المفردة ورسالة في الطب (بالفارسية)، وآداب العرب والفرس، وتجارب الأمم وتعاقب الأمم، (طبع المخطوط بدار الكتب العلمية ببيروت، وقام سيد كسروي حسن بتحقيقه، وأخرجه إلى العالم). (انظر: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، 223/1).

(2) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 68/2-72.

مكتفين بتناول الشاي وبعض المُرطبات، حتى إذا مضت طائفة من الليل أفطروا، ثم زار أم درمان واشترك في الامتحان الشفوي لطلاب اللسانس بقسم اللغة العربية، وراجع أوراقهم في الامتحان التحريري، وراقه مستواهم العلمي تحريرا وشفويا...⁽¹⁾.

وفي السنة التالية قام بزيارة دمشق، وحاضر في مهرجانها الشعري، الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، وكان الموضوع الذي اختاره ليحاضر فيه بالمهرجان: "حاضر الشعر العربي متصل بماضيه"، وشعر أنه في إحدى عواصم العروبة الكبرى، ومن اكتمال العروبة في أهل دمشق روايتهم للشعر وإنشادهم له في كل موقف وفي كل مناسبة طارئة، وهم لا ينشدون الشعر القديم وحده، بل ينشدون معه كثيرا من الشعر الحديث، وخاصة شعر أحمد شوقي، وأتاح هذا المهرجان للمؤلف لقاء مجموعة كبيرة من شعراء شباب المصريين والسوريين الذين ينظمون الشعر الحر الجديد وحاورهم طويلا في هذا المجال⁽²⁾.

ودُعي لإلقاء محاضرة في المركز الثقافي بحلب سنة 1961م، وقبل الدعوة، وسافر إليها في أيام ممطرة، واستقبله أهلها استقبالا حارا، وعند دخوله المركز الثقافي لإلقاء محاضرته، وجد جمعا من أدباء حلب في انتظاره، وكان المركز غاصا بجمهور ضخم ولم يجد الكثيرون مكانا للجلوس، وكان موضوع محاضرته: "الروابط الوثيقة بين أدبنا وقوميتنا" ومضى يستعرض هذه الروابط حتى العصر الحديث، وعقب المحاضرة كانت هناك حفلة سمر أدبي مع شعراء حلب وكتّابها من الصحفيين وغيرهم، تعرّف فيها على كثيرين منهم، وشعر أنه في بيئة عربية زاخرة بالشعر والأدب، بيئة تصله بها أواصر العروبة التي تترأى ماثلة بقوة في كل الأوطان العربية. كما بعثت له جامعة بيروت العربية دعوة لزيارتها، فاستجاب لها، وحاضر فيها عدة محاضرات

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات، 82/2-83.

(2) انظر: المصدر السابق، 84/2-86.

حول تاريخ البلاغة وتطورها، وذلك في سنة 1963م، ومكث في بيروت عدة أيام وتجول فيها وجاس خلال مناظرها الطبيعية البديعة⁽¹⁾.

وسافر لمدة أسبوعين إلى جامعة بغداد في شهر إبريل (سنة 1969م) لزيارتها، وألقى بها عددا من المحاضرات في كلية الآداب وفي كليات ومعاهد مختلفة، وانتهاز الفرصة فزار مشهد الحسين في كربلاء ومشهد أبيه علي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - في الكوفة، ورأى في تلك المدينة مكتبتي نفيستين زاخرتين بمخطوطات قيمة، وفي يوم ثان زار مدينة سامراء شمالي بغداد، وتجول في أطلالها وشاهد رسوم مسجدها الكبير الذي أكلته العصور ولم تبق منه إلا بقايا من حوائطه ومئذنته الملوية⁽²⁾. وأمضى ببغداد ليلة طريفة حضر فيها ندوة شعرية، وقابل نخبة من شعراء العراق، وقد حياه مجموعة من الشعراء بأبيات رقيقة نظموها على البديهة، وسمع في هذه الليلة أشعاراً بديعة وكأن للشعر نهراً كبيراً يجري في العراق بجانب دجلة والفرات، وكان الحفل في أوج نشاطه فشعر صاحبنا بأنه جالس في ليلة من ليالي الشعراء ببغداد في العصر العباسي، وكان ممن استمع إليهم شاعر يتغزل بغلام، وكان في أثناء إلقائه لأبياته الغزلية يأتي من الإشارات والحركات ما يضحك سامعيه، فتخيل صاحبنا أن الغزل بالمردان لدى بعض شعراء العصر العباسي قد يكون أيضاً على سبيل الضحك والفكاهة⁽³⁾.

وسافر إلى الكويت سنة 1970م بدعوة من جامعتها، وتحدث عما شاهده في الكويت فوصف آبار الزيت، وجو الصيف وشدة حرارته، والشتاء واعتدال طقسه، وأعجب بالتطور

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 92/2-97. ورتب كتابه: "البلاغة تطور وتاريخ" عن هذه المحاضرات، ط: 9، دار

المعارف. (راجع: مقدمة الكتاب نفسها ص 5)

(2) انظر: المصدر السابق: 113/2-114، و 117.

(3) انظر: المصدر السابق، 114/2.

الحضاري السريع في البلد، وبكثرة العمارات ذات الطوابق العديدة والفنادق الكبرى الفخمة، ويُخبرنا بعدم وجود آبار للمياه العذبة في الكويت، وأهلها ينتظرون من شتاء إلى شتاء ليجمعوا مياه الأمطار في آبار حفروها لهذه الغاية، وكانت بعض السفن تحمل المياه العذبة من البصرة في العراق إلى الكويت، ويقارن بين حياة الكويت في القديم والحديث؛ ويصف لبس الرجال والنسوة: فيذكر أن السيدات الكبيرات في السن يتزيّن دائما بالنقاب، ويتسربلن بالملاءات أما الفتيات فيفضلن لبس الفساتين والملابس الأوربية ولا يتنقبن، والأم تلبس العباءة، والفتاة تلبس الفانلة أو التنورة، وإذا دخلت الفتيات إلى كلياتهن لِبسن الملابس العصرية، وكثيرات منهن إذا نزلن في المساء لشراء بعض أغراضهن يلبسن ملابس الأمهات وخاصة العباءات. ويلبس الرجال جلابيب بيضاء فضفاضة، ويُرَتِّق العقال رءوسهم. ثم يصف الدراسة في الكويت؛ فيذكر إقبال الطلاب والطالبات على التعليم في نهم شديد، مما جعل مدارس البنين والبنات تتكاثر فيها كثرة مفرطة، وقد أقام بها أساتذة الجامعات المصرية جامعة متكاملة على أحدث طراز، ففيها جميع الكليات العلمية والإنسانية، والفتيات فيها لا يختلطن بالشباب، فلكل من الجنسين كليته الخاصة، ويقبل الشباب والفتيات على التعليم الجامعي في شغف شديد⁽¹⁾.

وزار لندن في صيف سنة 1972م وتجول في متاحفها المختلفة، وشاهد حديقة "هايدبارك" واستمع فيها إلى خطيب إفريقي يهاجم العنصرية مهاجمة حادة، وزار بلدة⁽²⁾ شكسبير القريبة من لندن، وشاهد بها منزله وإحدى مسرحياته⁽³⁾.

(¹) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 122/2-125.

(²) لم يشر المؤلف إليها، لكن اسمها ستراتفورد أبون آفون. (St. Stratford-upon-Avon).

(³) انظر: المصدر السابق، 126/2.

وأقيمت رحلة لبعض الأساتذة وطلاب الآداب في جامعة القاهرة لزيارة إسبانيا سنة 1983م، وهناك أخذ المؤلف يتذكر جل ما حدث للأندلس منذ فتحها المسلمون في عصر بني أمية، ونهضة العلوم والثقافة الإسلامية فيها، وتحديد العمران، وإنشاء المدن الجديدة، وزار القصر الملكي، وتجول في متحف البوردو، وزار طليطلة والإسكوريال ورأى مبناه الذي يضم مكتبة ضخمة وقصرا وبها كبيرا، وبالمكتبة صور لأعلام الفكر اليوناني والروماني والعربي، وبها مخطوطات قديمة كثيرة: يونانية ولاتينية وعربية، وبالقصر غرف تضم توابيت الملوك الإسبان والملكات، وعلى كل تابوت اسم صاحبه.

وزار قرطبة والجامع الأموي العظيم، الذي كان جامعة كبرى تغص بالشيخ والطلاب، وتُشد إليه الرحال، من أطراف الغرب المسيحي، ومن الممالك المسيحية الإسبانية الشمالية ومن ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا. وبعدها اتجه إلى إشبيلية ثم إلى غرناطة، وزار قصر الحمراء الذي يقع على ربوة مسطحة واسعة عالية، والأسوار والأبراج تحيط به من كل جانب للدفاع عنه⁽¹⁾.

وسافر الدكتور شوقي ضيف في عام 1984م إلى ألمانيا وسويسرا وقضى فيهما فترة من الصيف، وكان من طريف ما شاهده في رحلته منزل أديب ألمانيا المشهور جوته [المتوفى سنة 1832م]، وكان البيت قد تهدم في الحرب العالمية الثانية، وأعيد بناؤه بأوضاعه القديمة بكل ما كان يحتويه من أثاث ورياش وصور لأصدقائه، وكأنما لم يصبه أي هدم ولا تخريب ولا دمار، وتجول مع المرشدة في بيت جوته، ورأى مكتبة أبيه، وكانت تضم ألفي كتاب⁽²⁾.

(¹) معي ذكريات ومشاهدات 136/2-144، و149-152.

(²) المصدر السابق، 153/2.

وزار الدكتور شوقي ضيف بعض المدن الصغيرة بالقرب من فرانكفورت⁽¹⁾، ولاحظ أن شوارع السوق لا تدخلها السيارات حفاظا على الأطفال والمشاة من النساء والرجال، وهو نظام كان سائدا في المدن العربية قبل العصر الحديث، ولا تزال منه بقية في بعض تلك المدن مثل دمشق وسوقها المشهور باسم الحميدية، وهو سوق مسقوف، كما كانت الأسواق مسقوفة في المدن المصرية الكبيرة. فلاحظ كأنما أخذت المدن الألمانية أو بعضها بنظام الأسواق العربية القديمة⁽²⁾.

ورأى في منتصف الطريق جبالا شامخة ذات اليمين وذات الشمال يتوجها الثلج، ويتراعى على سفوحها، والسحب أمامها تتحرك على صفحة السماء، وربما كان خير وصف لسويسرا أنها بحيرات وجبال وغابات ما يزال السائح متنقلا بينها متمتعا بمناظرها الساحرة. وقام بزيارة "بيت الأشباح" وهو بيت مهجور، لا يجزؤ أحد على السكنى فيه خوفا من الأشباح التي تقطنه، وهي من الخرافات الشهيرة في بلاد الغرب، واعتقاد الخرافات دليل واضح - في رأي الدكتور شوقي ضيف - على أن الأمم مهما ارتقت علميا وعقليا لا تزال الخرافات تجدد لها مأوى في أذهانها⁽³⁾.

(1) فرانكفورت مدينة قديمة تقع في وسط غرب ألمانيا على ضفاف نهر الماين في ولاية هسن، تعد العاصمة الاقتصادية لألمانيا بسبب وجود مراكز العديد من الشركات والبنوك، يزيد عدد سكانها -وفق إحصائية أحررت في العام 2011م - 691.518 نسمة، وهي ملتقى شبكة كبيرة من المواصلات الجوية والبرية والبحرية حول ألمانيا وأوروبا، (اطلعت عليه بتاريخ 2018/8/13م، فرانكفورت/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/فرانكفورت>).

(2) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 155/2-156.

(3) انظر: المصدر السابق، 159/2-161.

وفي صيف سنة 1985م رافق أساتذة وطلاب كلية الآداب في رحلة إلى إستانبول، ونزل مع رفاقه في أحد الفنادق، وفي الصباح رأى أن يتجول في شوارع المدينة للفرجة ورؤية محلاتها، وأعجب بروعة نسيج السجاجيد، وبخيرنا بأن من يتجول في إستانبول يشعر بحفاظها على شخصيتها القومية، فجميع اللافئات مكتوبة باللغة التركية على رؤوس الشوارع وواجهات الدكاكين، كما كانت الإذاعة تقدم الأفلام السينمائية في اللغة التركية، والأفلام الأجنبية تترجم جميعها مع مطابقة العبارة للأصل مطابقة دقيقة، فكل شيء لابد أن يكون تركيا، محافظة على الروح القومية⁽¹⁾، وزار متحف آيا صوفيا وكان كنيسة عتيقة أحاطها السلطان محمد الفاتح⁽²⁾ إلى مسجد، وأحاله مصطفى كمال أتاتورك⁽³⁾ إلى متحف مرة أخرى، وكان

(¹) انظر. معي ذكريات ومشاهدات، 166-164/2.

(²) هو السلطان محمد الثاني المولود سنة 833هـ/1429م، تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده في 16 محرم عام 855هـ/ 18 فبراير عام 1451م، وكان عمره آنذاك 22 سنة، واستمر في حكمه ما يقرب من ثلاثين عاما، كانت حيرا وعزة للمسلمين، ولقد امتاز السلطان بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما أنه فاق أقرانه منذ حداثة في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء، وولع بمعرفة كثير من لغات عصره وكذلك كان يميل لدراسة كتب التاريخ، وكان يتطلع إلى فتح القسطنطينية، وكان على علم بما ورد عن هذا الفتح وفضله. (انظر: السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم لعبد السلام عبدالعزير فهمي، ط: 5، دار القلم، دمشق، 1993م ص21)

(³) ولد سنة 1880م في مدينة سالونيك اليونانية، التي كان يقطنها كثير من اليهود وهي تابعة آنذاك للدولة العثمانية، كان والده غير متدين ومعجبا بالأفكار العربية، مات بالسل سنة 1886م، وقد حلف وراءه؛ مصطفى وأخته مقبولة، التحق مصطفى بمدرسة دينية، ثم عصرية في سالونيك، فكثرت مشاجراته مع التلاميذ حتى ضرب بها كثيرا، ففر من المدرسة ولم يعد إليها. وأحيرا دخل المدرسة الحربية في سالونيك سنة 1893م، ثم تخرج في المدرسة الثانوية بالبلقان عام 1899م. والتحق بكلية العسكرية في إسطنبول وبعد تخرجه منها عام 1905م عين صابطا في الجيش، وعمل في الجيش سنوات كثيرة، وكان قد تدرج في مناصب محله إلى أن وصل رتبة لواء، فصار مساعدا لقائد الجيش الثاني سنة 1917م. وهكذا برز مصطفى كمال كضابط لامع في الجيش العثماني ثم قائد حرب التحرير لبلاده قبل أن يعلن قيام الجمهورية التركية وألغى الخلافة، بعدما نصب مصطفى كمال نفسه يوم 29 أكتوبر 1923 أول رئيس للجمهورية التركية وأصبح سيد -

الفتاح قد أقام في المسجد مئذنة، وأضيفت إليها ثلاث أخرى بعده، ولا تزال المآذن الأربع تتعالى مصعدة في السماء، ولا تزال النقوش التي كتبت بأحرف يبلغ طولها بضعة أمتار، وقد نقشَت بماء الذهب.

التقدير والجوائز التي حصل عليها

1. اختير الدكتور شوقي ضيف عضواً بمجمع اللغة العربية في غرة سنة 1976م، وأقيم له حفل استقبال تحدث فيه أحد أعضاء المجمع القدامى⁽¹⁾ عن سيرته العلمية وما أداه للعربية من خدمات كفلت له هذا الترشيح. فساهم في خمس لجان، ثلاث منها لغوية، واثنان علميتان، فشغل في اللجان اللغوية خاصة بوضع كثير من المذكرات والمقترحات، ومن أهم ما شغله في السنوات الأولى بالمجمع محاولته وضع مشروع لتيسير النحو وتذليل صعابه للمبتدئين⁽²⁾.

2. ثم صار عضواً في مجمع اللغة العربية بالأردن وذلك في سنة 1978م، فقد قرر منحه عضوية شرف فيه رئيس مجتمعه بها، "تقديراً لما قدّمه للغة العربية وثقافتها ولتاريخ العرب

= الموقف في البلاد. ألغى الحروف العربية، وألزم الناس الأذان باللغة التركية وألزمهم تلاوة القرآن الكريم باللغة التركية لا بالعربية، وأنشأ مدارس الفنون والرقص للشباب والشابات، وأنشأ المسارح المحتلطة، وشجع الحفلات الراقصة، ومع الحجاب، ومع تعدد الزوجات، وقرر المساواة بين الرجال والنساء في جميع الحقوق والواجبات، وأخرج المرأة من بيتها وأدخلها في مناصب الدولة، وحول المسجدين العظمين؛ آيا صوفيا، ومسجد الفاتح إلى متحفين، وأدخل التقويم الجريجوري الغربي محل التقويم الهجري، وألغى عيد الفطر والأضحى. وقد كانت حياته الشخصية تلخص في ثلاث كلمات: النساء، والخمر، وجنون العظمة. لقد أصيب بمرض الكبد، وأصيب بالأمراض الجنسية، توفي يوم الخميس العاشر من نوفمبر سنة 1938م، وكان قد أوصى أن لا يصلى عليه صلاة الجنازة. (انظر: المارة المفقودة: الدكتور عبد الله عزام، إعادة جمع ورتيب: أبو نعيم الحدي، ط 1، مركز شهيد عزام الإعلامي، بشار، 1987م، ص 5-36).

(¹) لم يذكر اسمه بل تركه مجهولاً. أشار إليه المؤلف ولم يعبئه بمسماه. (راجع: معي ذكريات ومشاهدات 132/2)

(²) انظر: المصدر السابق: 132/2-133.

وحضارتهم من خدمات جليلة"، ورحب بتلك الزمالة العلمية الكريمة راجيا أن يستطيع الوفاء بحقوقها عليه⁽¹⁾.

3. قرر المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية منح جائزة الدولة التقديرية للآداب عرفانا بما قدّمه للعربية من أعمال تتصل بأدبها في مختلف عصوره وأقاليمه، وبالدراسات اللغوية والبحوث البلاغية والنقدية، وذلك في سبتمبر سنة 1979م.

4. حصل على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي سنة 1403هـ / 1983م.

5. نشر عدد كبير من الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية والشهرية مقالات عديدة عن نشاطه العلمي وخدماته الجليلة للغة العربية وثقافتها، وخصصت مجلة الثقافة له عددا خاصا⁽²⁾.

6. وأقامت جامعة المنصورة مؤتمرا لتكريم الدكتور شوقي ضيف سنة 1975م بدمياط، وتحدث فيه زملاؤه وأصدقائه وتلامذته عن وجوه نشاطه في التأليف والدراسات الأدبية. وما أثار في نفسه أن فوجئ بأستاذ للأدب العربي بجامعة بكين - وهو من تلاميذه الصينيين القدماء - يحضر المؤتمر، ويلقي فيه كلمة قال فيها: "إنه ترجم لأستاذه كتاب؛ "الأدب العربي المعاصر في مصر" إلى الصينية، ويدرسه في جامعة بكين"⁽³⁾.

وقد أغنى الدكتور شوقي ضيف المكتبة العربية بعدد من المؤلفات تجاوزت الخمسين، في مجال الدراسات العربية والإسلامية وتاريخ الأدب العربي. والفكر الديني والفلسفة والأدب

(1) انظر: معي ذكريات ومشاهدات. 132/2-133.

(2) انظر: المصدر السابق، 135/2.

(3) المصدر السابق، 164/2.

والنقد، من بينها: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"، و"التطور والتجديد في الشعر الأموي الحديث"، و"الأدب العربي المعاصر في مصر"، و"محمد خاتم المرسلين"، و"المدارس النحوية"، و"الرحلات"، و"الفكاهة في مصر"، و"الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة". وسجل تاريخ الأدب العربي في عشرة أجزاء. وكان الجزء الأول عن العصر الجاهلي الذي أصدرت منه دار المعارف بالقاهرة أكثر من اثنتين وعشرين طبعة إلى اليوم، وبعده كتاب "العصر الإسلامي" الذي صدرت له تسع عشرة طبعة، ثم "العصر العباسي الأول" و"العصر العباسي الثاني" وجاء الجزء الخامس عن عصر الدول والإمارات الممتد من سنة 334 للهجرة إلى مشارف العصر الحديث، وهو يتعرض لتاريخ الأدب العربي في الجزيرة العربية والعراق وإيران، وهو الجزء الذي يكتمل بالجزء السادس عن الشام، في عصر الدول والإمارات، وبعده الجزء السابع عن العصر نفسه في مصر، ثم الجزء الثامن عن الأندلس، أما الجزء التاسع فكان عن ليبيا وتونس وصقلية، بينما انفرد الجزء العاشر والأخير بالأدب في الجزائر والمغرب العربي وموريتانيا والسودان.

المبحث الرابع

حياة الأستاذ الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي

اسمه ومولده: الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي لم يتكلم عن اسمه ونسبه ومولده كما تكلم غيره من المؤلفين في سيرهم الذاتية⁽¹⁾.

أسرة الكاتب: عاش الشيخ محمود عبد اللطيف الشافعي والد الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي، في قرية "بني ماضي" من بني هلال، بمحافظة "بني سويف"، توفي أبوه وهو ما زال صغيراً، وأرسلته أمه - وذلك في أواخر العقد الأول من القرن العشرين - ليتعلم في الأزهر، فتخرج فيه، وبدأ يدرّس في إحدى المدارس الابتدائية، ولأزهرته اختير أكثر من مرة نقيباً للمعلمين بمركز "ببا - بني سويف"، وكان معاصراً لنشأة الحركة النقابية للمعلمين، وهو رجل صوفي لا يحب من المال والدنيا إلا ما يقيم أوده به، وكان رجلاً يحب القاهرة القديمة، والتمتع بمعالمها، وآل البيت، وإجلال الأزهر وعلمائه، والوفاء الشديد لشيخه وأساتذته⁽²⁾.

أما والدته فقد عمّرت وناهزت المائة، وكانت أهم إنسان في حياة المؤلف، وأثرت في حياته كثيراً في مختلف المجالات، وقد نشأت بحج "الإمامين" بالقاهرة، حيث كان أبوها يعمل في "السكة الحديد"، تزوجها محمود عبد اللطيف الشافعي وهو مازال طالباً أزهرياً بالقاهرة⁽³⁾.

(1) مثل الدكتور حلال أمين ص22، والدكتور شوقي ضيف ص17/1، والدكتورة بنت الشاطئ ص32، وذكر في بعض المقالات التي كتبت عن المؤلف وعن حياته أو التعليقات التي سجلت عن كتبه في الشبكة العنكبوتية، من مختلف الباحثين والعلماء؛ أنه من مواليد 19 ديسمبر سنة 1930م. (اطلع على: <http://www.azhar.eg/m-alazhar/kibai> - (alolamaa/

(2) انظر: حياتي في حكاياتي للدكتور حسن الشافعي، ص11-12، و237-239.

(3) انظر: المصدر السابق، ص13.

دراسته: التحق الشيخ حسن الشافعي بالكتاب ليحفظ القرآن الكريم⁽¹⁾، ثم التحق بقسم الابتدائي في معهد القاهرة الديني، بالسنة الأولى الابتدائية عام 1944م، وأقام مع أخيه الأكبر الأستاذ عبد اللطيف⁽²⁾ في "درب الحجر"، في حي عابدين بالقاهرة⁽³⁾.

ثم واصل الدراسة في المرحلة الثانوية الأزهرية حتى حصل على شهادتها سنة 1953م⁽⁴⁾، وفي نفس السنة التحق بكلية أصول الدين، ودرس السنة الأولى، ففاز بالمركز الأول في الامتحان النقلي إلى السنة الدراسية الثانية عام 1954م، ثم حُرِم من متابعة الدراسة فيها - لأنه سُجن ظلماً في قضية سياسية⁽⁵⁾ - سبع سنوات، ثم عاد إلى الكلية ليواصل دراسته عام 1960م، وقد تجاوز عمره الثلاثين⁽⁶⁾.

واستأنف الدراسة من جديد في السنة الثانية بالكلية، وكذلك التحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، جامعاً بين الدراسة في الأزهر وجامعة القاهرة في آنٍ واحد، وواصل الدراسة في الجامعتين حتى تخرج فيهما في سنة واحدة⁽⁷⁾ عام 1964م، وعيّن معيداً بكلية دار العلوم⁽⁸⁾، العلوم⁽⁸⁾، ثم اقترح عليه أستاذه الدكتور محمود قاسم⁽¹⁾ - عميد كلية دار العلوم حينئذ -

(1) لم يسر إلى التاريخ في هذه الصفحة، ولا في مكان آخر - حسب علمي المتواضع -، انظر: حياتي في حكاياتي، ص 215.
(2) شقيق الدكتور حسن الشافعي، حينها كان يعمل موظفاً إدارياً بسكك حديد مصر، في حي عابدين بالقاهرة. (حياتي في حكاياتي، ص 7، و 11)

(3) انظر: المصدر السابق، ص 7، و 11، و 171، و 173.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 171.

(5) انظر: المصدر السابق، ص 120-125، و 142-153.

(6) انظر: المصدر السابق، ص 29، و 31، و 46، و 79، و 188، و 201.

(7) كان قد احتاز سنة واحدة في دراسته الأزهرية الجامعية، لكن ريدت سنة جديدة في عام 1961م حسب القانون الجديد الجديد الذي سمي بـ "قانون تطوير الأزهر". (انظر: حياتي في حكاياتي، ص 79، و 96).

(8) كما عُيّن - في نفس الفترة من قبل وزارة التربية - معلماً للغة العربية في مدرسة ثانوية "بني سويف"، ولكن حال تعيينه معيداً بالكلية دون تسلم العمل، (انظر: حياتي في حكاياتي، ص 175).

التسجيل في مرحلة الماجستير، وكان المؤلف يرغب في دراسة: "سيف الدين الأمدي"⁽²⁾ وآراؤه الكلامية"، وسجل الموضوع تحت إشراف العميد، ثم دخل السجن لنحو ثلاث سنوات أخرى⁽³⁾، ثم أُفرج عنه سنة 1968م⁽⁴⁾، وأكمل بحثه خلال سنة واحدة⁽⁵⁾، ثم التحق بمرحلة الدكتوراه عام 1970م، واستمر في دراسته ثلاث سنوات بكلية دار العلوم، ثم ما لبث أن

(¹) ولد الدكتور محمود قاسم في غرة يوليو 1913م بمحافظة الشرقية في مصر. كان والده (ت: 1922م) مدرسا بمدرسة المعلمين في الرقاريق، دخل محمود قاسم المدرسة الأولية فيها واستمر بها حتى السنة الرابعة، وعاد إلى بلدته ليحفظ القرآن الكريم تمهيدا للالتحاق فيما بعد بدار العلوم، ودرس بها في التحضيرية، ثم التحق بتجهيزية دار العلوم. والتحق أخيرا بكلية دار العلوم حيث حصل على الليسانس عام 1937م، ثم احتير معونتا إلى فرنسا، فسافر إليها في بداية يناير 1938م، وتزوج من زميلته في الدراسة سنة 1940م، وحصل على ليسانس الآداب من جامعة السوربون عام 1942م، ثم حصل على الدكتوراه من الجامعة نفسها سنة 1945م، وفي نفس السنة عاد إلى مصر، وأصبح مدرسا بدار العلوم بنفس العام، وتدرج في مناصب الأكاديمية والعلمية حتى صار عميدا لكلية نفسها، ومكث فيها عشر سنوات. وعين حيزا بمجمع اللغة العربية. وأحيل إلى المعاش في سنة 1973م، وفي العام نفسه مضى إلى جوار ربه في 29 سبتمبر. (انظر: محمود قاسم؛ الإنسان والفيلسوف: [لمجموعة من الأساتذة بإشراف] الدكتور حامد طاهر، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. من ص13-16).

(²) ولد سيف الدين الأمدي سنة 551هـ بآمد، وقرأ القراءات على أبي عبيدة ونجّده الصفار وعمار الأمدي، وحفظ الهداية، وكان مولعا بالمذهب الحنبلي وتمسك فيه، ودرّس في العزيزية بدمشق وفي القاهرة وبيداد والإسكندرية، وناظر علماء زمانه، وهو فقيه أصولي ومؤلف لأكثر من عشرين كتابا، وعاش آخر حياته في دمشق وتوفي بها سنة 631هـ، وله ثمانون سنة. (الأعلام 332/4).

(³) حدث هذا بصدد قرار استبدادي باعتقال كل من سق له في حياته كلها - ولو قبل قيام الثورة، الناصرية - أن اعتقل أو سُجن. (انظر: حياتي في حكاياتي، ص120، و150، و179).

(⁴) انظر: المصدر السابق، ص125، و179، و185، و203-204.

(⁵) انظر: المصدر السابق، ص179، و203، و206-207.

ابْتُعث إلى كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن⁽¹⁾، وسافر إليها ليكمل الدكتوراه هناك، حتى حصل عليها عام 1977م⁽²⁾.

حياته في السجن: كان الدكتور حسن الشافعي يسكن - وهو طالب في كلية أصول الدين - في حيّ "روض الفرج" بالقاهرة، ويشاركه في المسكن شقيقه وبعض الزملاء. وقد كتب شقيقه هذا خطاباً سياسياً ملتهباً إلى أحد الأقارب - الذي كان معاراً - في السودان، عن الظروف السياسية في مصر، ضد الرئيس جمال عبد الناصر⁽³⁾، وكانت نتيجة ذلك؛ أن أعيد المُرسَل وأُدخل إلى السجن الحربي مباشرة، ويكون تحت الاستجواب والتحقيق عند "الأمن الوطني"، وكذلك القبض على مُرسَل الخطاب، فوصلت سيارة مليئة بالجنود، فلم يجدوا

(1) مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية كلية تابعة لجامعة لندن، (School of Oriental and African Studies SOAS) متخصصة في مجال اللغات والعلوم الإنسانية والاقتصاد والقانون المرتبطة بمناطق آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط، تقدم الجامعة 300 تخصص في الكالوريوس وأكثر من 70 برنامجاً في الماجستير، بالإضافة إلى برامج الدكتوراه المتوفرة، تأسست الكلية في العام 1916م، وكان الهدف الأساسي من تأسيس الكلية هو تقديم تدريب عالي المستوى للموظفين البريطانيين الذين يعملون للحكومة في دول الإمبراطورية البريطانية حينها، وأصبحت الكلية منذ ذلك الحين أحد أهم المراكز العلمية التي تعنى بالدراسات العلمية التي تتعلق بآسيا وأفريقيا. (اطلعت عليه بتاريخ 13 أكتوبر 2016م، <https://www.siruk-saudi.com/ar/profiles/university/soas>)

(2) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 209.

(3) وُلد الرئيس جمال عبد الناصر سنة 1918م في قرية بني مر بمحافظة أسوط، وانتقل إلى القاهرة، وتعلم بها ثم بالإسكندرية وحصل على "البكالوريا" سنة 1936م، وتخرج من الكلية الحربية سنة 1938م، ودرّس بها، كما تخرج بكلية أركان الحرب، وشارك في حرب فلسطين 1948م، وخرج وشفي، وخرج مع الزملاء ماقمين على من بأيديهم السلطان في مصر، عسكريين ومدنيين، وقاموا 1952م بالثورة البيضاء على فاروق - آخر ملوك مصر - فنزل عن العرش لطفل له أحمد فؤاد"، لم يلتزموا أن خلعوه وأعلنوا الجمهورية، وسموا لئلاستها أحد كبار الضباط "محمد نجيب"، وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الوزراء. ثم تسلم زمام مصر سنة 1954م، وفي أيامه خرج آخر حدي بريطاني من الأرض المصرية، وبعد تأميم قناة السويس حول مصر إلى النظام الاشتراكي سنة 1961م، تم قامت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل بالاعتداء الثلاثي على مصر سنة 1956م، ورحل إلى حوار ربه في 28 سبتمبر 1970م. (انظر: الإعلام 134/2، وجمال عبدالناصر، الاسم المجهور على قلب إفريقيا، [مقال نشر في] مجلة إفريقيا قارئاً، العدد: 6، يونيو 2013م، ص 1-4).

"الشخص المطلوب" لأنه لم يكن موجودا بالشقة، فأفلت منهم، وقبضوا على من كانوا في الشقة؛ وهم أربعة: حسن الشافعي، وزميله - يشاركه في المسكن -، وضيف جاء ليشترك في الامتحان صباح الغد، وفتشوا في الشقة واغتصبوا كل ما يشكون فيه من كتب وأوراق وصور، وساقوهم إلى سيارة الضابط المغرور، وتحركت السيارة ولم يكن فيها حرس، ففكروا بفكرة الهروب واتفقوا، وأن السيارة مشت بطريق ضيق وسط "سوق الخضار" حيث تنفيذ الخطة، وأخذت السيارة تقف وتتحرك في زحفة شديدة، والسائق قد فقد السيطرة عليها، وعلى أعصابه أيضا، فلما فوجئ الضابط المغرور بالأمر، فاشتبك في صراع الازدحام، وفروا منهم إلا ضيفا، بقي عندهم في السجن حتى آخر العام، واختفى حسن الشافعي في بيت من أقاربه بنفس المنطقة، ولم يعثروا عليه فرجعوا بعد تعب شديد خاسرين⁽¹⁾.

ومرة ثانية أفلت منهم عندما عاد بعد أشهر من اختفائه زائرا إلى بيت ذلك الصديق الذي دخل بيته يوم الهروب، وما إن جلس حتى فاجأهم "معاون مباحث" قسم روض الفرج، وظن المؤلف - في نفسه - ب"أن الأمر قد دُبّر بالليل"، ولكن ليس كما ظن إذ كان السبب شكوى روتينية مقدمة من أحد الجيران، بشأن التخلص من الزبالة، ولم يصدق نفسه، وخرج من بيت صديقه مرة ثانية آمنا⁽²⁾.

ومرة ثالثة عندما ذهب ليتسلم أحد أقربائه من السجن - وكان يسكن معهم في الشقة وقبض عليه على سبيل الخطأ، فوقّع على أوراق التسليم، الذي اشتهر به باسمه الكامل وهو حسن محمود عبد اللطيف، فخدع الشرطة وأخفى اسمه الذي اشتهر به - أي؛ حسن الشافعي - وكان لا يصدق عينيه، فإن شك أحد من الجنود الذين يحيطون بهما، في اسمه أو شكله لوقع في ورطة شديدة، وهكذا خرج من المكتب سالما غانما⁽³⁾.

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 49-52.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 51-52.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 54-55.

ومرة كان يمشي مهدوء قبيل صلاة الجمعة، مترقبا لقاء أحد أصحابه، فسمع صوتا من ورائه يناديه: "حسن شافعي"، فاستمر في سيره، وتظاهر بعدم سماع شيء، وإذا به يقبض عليه، وبدأ يتجادل معه حتى دخلوا "قسم الشرطة" ثم خلال ساعة وصلوا إلى السجن الحربي، شمالي القاهرة. وقضى من حياته في المعتقلات والسجون سبع سنوات متتالية، في شتى المناطق، داخل القاهرة وخارجها. ودخل السجن مرة ثانية في أواخر عام 1964م وقضى ثلاث سنوات وراء القضبان، ثم أفرج عنه⁽¹⁾.

زواجه: عندما فرغ من الدراسة الجامعية في صيف عام 1965م، بدأ يفكر في الزواج، واختار شريكة حياته، لكنه قبض عليه مرة أخرى، - كما أشرنا سابقا - فتأخر زواجه ثلاث سنوات، وأتم زواجه عقيب خروجه من المعتقل سنة 1968م، وأعانتة في ذلك؛ الرواتب التي جمعها - عندما كان في السجن - الأستاذ الدكتور علي عشري زايد وكيله، من وظيفته في كلية دار العلوم⁽²⁾.

أعمال ووظائف: عندما خرج المؤلف من السجن سنة 1960م، كان كبير السن نسبيا، وكان يريد أن يعول نفسه ويستأنف دراسته، دون أن يحمل أهله مزيدا من الأعباء، لأن والده أحيل إلى المعاش، فاشتغل المؤلف وهو حاصل على الشهادة الثانوية، إماما وخطيبا ومدرسا في مسجد الفتح بحي عابدين بالقاهرة، كما عمل - بقرب هذا المسجد - رائدا دينيا وثقافيا بمركز شباب عابدين⁽³⁾. وعمل بهما حتى انتهى من الدراسة في كليتي أصول الدين ودار العلوم، كما عمل خطيبا في مسجد العباسية الثانوية للبنات عام 1964م، بعد أن تحرر

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 56-57، و 120، و 125، و 310.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 122، و 179، و 185، و 203.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 26، و 47، و 83، و 120، و 121، و 167، و 182، و 188، و 191-195، و 290.

من العمل بوزارة الأوقاف⁽¹⁾، ثم عين معيدا في الكليتين ولكنه اختار كلية دار العلوم، فعمل فترة ثم أُدخل إلى السجن مرة أخرى، وبعد الإفراج عنه، عاد إلى عمله في قسم الفلسفة الإسلامية بدار العلوم، ثم عمل معاراً في جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان سنة 1979م بعد عودته من إنجلترا وحصوله على الدكتوراه، ودرّس فيها بعض العلوم الفلسفية بكلية العلوم الاجتماعية، كما عمل شهراً في جامعة أم القرى بمكة المكرمة⁽²⁾، ثم صاحب الدكتور حسين حامد حسان⁽³⁾ ليشاركة العمل سنة 1982م - زائراً ثم معاراً - في جامعة جديدة كان يجري إنشاؤها في إسلام آباد عاصمة باكستان الإسلامية، هي الجامعة الإسلامية العالمية، وكان معه نخبة من الأساتذة المصريين، وضعوا مناهجها وأنظمتها بدءاً من الصفر، وعمل الدكتور حسن الشافعي بضع سنوات نائبا لرئيس الجامعة، ولما عاد إلى دار العلوم بعد فترة الإعارة، عمل وكيلا للكلية بضع سنين⁽⁴⁾، ولم يذهب إلى التقاعد حتى اختاره الخالدون بمجمع اللغة العربية بالقاهرة عضواً زميلاً، تحت رئاسة الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مذكور⁽⁵⁾، وبعد مضي عشر

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 123.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 81، و 104، و 173، و 202-203.

(3) تقدمت ترجمته في ص 85.

(4) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 45، و 173، و 252، و 320.

(5) ولد الأستاذ الدكتور إبراهيم بيومي مذكور سنة 1901م، في قرية أبو المرس القريبة من القاهرة، تعلم فيها الخط والحساب والقرآن وعلوم الدين والأخلاق، ودخل مدرسة القضاء الشرعي، ومنها حول إلى دار العلوم سنة 1923م، ثم دخل الأزهر، وبدأ يتعلم اللغة الأحسية، فسافر إلى فرنسا عام 1929م، وحصل على الإجازة العالمية (ليسانس) من جامعة السوربون ... وأكمل الدراسة. ثم عاد إلى مصر سنة 1935م، وعينه أحمد لطفي السيد في قسم الفلسفة، واختير شيخاً في مجلس الشيوخ سنة 1937م تحت راية حزب الوفد، وعضواً في كثير من المجالس العلمية والأدبية والفكرية في الشرق والعرب حتى أصبح رئيساً لمجمع اللغة العربية في القاهرة سنة 1946م، وتوفي في سنة 1995م، ومن مؤلفاته: "مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً" و"مع الخالدين" و"مع الأيام" وغيرها. (راجع: موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر المحجري في العالم العربي والإسلامي من 1301-1417هـ: لإبراهيم بن عبد الله الحارمي، ط 1، دار الشريف للشر والتوزيع، الرياض، 1419هـ، ص 39-40).

سنوات من مغادرته لباكستان، أصدر مجلس أمناء الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، بأن يعود إليها الدكتور حسن الشافعي رئيساً، وبعد عودته إلى مصر انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية بالقاهرة في سنة 2012م، [وأعيد انتخابه لفترة ثانية سنة 2016م، ولا زال مستمرا حتى الآن]⁽¹⁾، بالإضافة لعمله أستاذا بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعمل فترة مستشارا فنيا لشيخ الأزهر كما اختير عضواً بهيئة كبار العلماء بالأزهر⁽²⁾.

زيارات ورحلات وما شاهده فيها: قام الدكتور الشافعي برحلات كثيرة وزار معظم العواصم العربية، وتكلم عما شاهده في كل رحلة، وأرخ لها وأشار إلى نجاحها أو فشلها، وأضاف معلومات جديدة إلى علم القارئ، كما تحدث عن لقاءه بالعلماء والأدباء والفقهاء والولاة والوزراء والحكام، وزيارته للأماكن الأثرية والتاريخية.

خرج من مصر أكثر من مرة، ذهب أولاً إلى مكة المكرمة عام 1971م، لأداء فريضة الحج، ثم سافر بعد عامين إلى لندن؛ لاستكمال بحثه لنيل درجة الدكتوراه، وقضى بها أربع سنوات وأربعة أشهر، ودرس في كلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن⁽³⁾.

وقضى في إسلام آباد خمس عشرة سنة⁽⁴⁾، ومن باكستان زار الصين مرتين إحداها بصحبة الراعي السابق للجامعة القاضي خليل الرحمن خان، وزار إيران في مؤتمر عن "فلسفة صدر الدين الشيرازي"⁽⁵⁾، أقامته جمعية متخصصة في رعاية وتطوير فلسفة هذا المفكر، وقدم

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص257، واطلعت عليه بـ 12 مارس 2018م: (مجمع-اللغة-العربية-

بالقاهرة/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>

(2) انظر: حياتي في حكاياتي، ص45، و81، و210-211، و334.

(3) انظر: المصدر السابق، ص100، و279-281.

(4) انظر: المصدر السابق، ص92، و102، و244، و334، و369.

(5) ملا صدرا نجل بن إبراهيم القوامي الشيرازي ولد 980هـ بشيراز، عاصمة الدولة الصفوية الفارسية في ذلك الوقت، من الفلاسفة الإسلاميين في القرن الحادي عشر الهجري. وهو حائمة حكماء الشيعة جمع بين فرعي المعرفة النظري والعملية. ودرس في أصفهان على الشيخ بهاء الدين العاملي (ت1031هـ) ودرس على فيلسوف عصره السيد نجل باقر =

بحثه عن: "أصول فكرة الحركة الجوهريّة" التي أوحى لصدر الدين الشيرازي بها، وأهمها "فكرة فناء النار"⁽¹⁾.

زار كثيرا من المدن التركية ومن بينها؛ استانبول أكثر من مرة، ودُعي إلى زيارة "سيواس في الأناضول" في مؤتمر، وتحدث في جلسة الختام التي حضرها رئيس الجامعة الإقليمية وحاكم المدينة ومحافظها. ومع أن حديثه كان بالعربية إلا أنه لقي تحابوا كبيرا. وأخذوهم بعد المؤتمر إلى عاصمة السلاجقة في قلب الأناضول، فصلوا في مسجدتها التاريخي. والتقى بإمام المسجد الذي درس في وقت ما في الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد، كما التقى بتلميذه الدكتور غالب باووز الأستاذ بكلية الشريعة، والدكتور عمر الفاروق الذي كان يرأس حينئذٍ إحدى مؤسسات الإغاثة ذات النشاط الواسع في المجالات الإنسانية، وتحول معه في المدينة، وزار مكتبها الشهيرة "السليمانية"، والتقى بمترجم كتابه "المدخل إلى دراسة علم الكلام" إلى اللغة التركية، فكتب له إجازة، وبعد فترة جاءت نسخة من الترجمة⁽²⁾.

زار تركيا مرة أخرى مع وفد مصري في أحد المؤتمرات، ورُتبت لهم زيارة لكلية الشريعة، ولاحظ أن نصف الحضور من الفتيات المحجبات، وكان هذا تغيرا قد وقع بعد مجيء الإسلاميين في الحكومة. والتقى بإمام مسجد الفاتح، والشيخ محمد أمين سراج خريج الأزهر، وتلميذ الشيخ محمد زاهد الكوثري؛ وكان عضوا سابقا في البرلمان التركي، وأجاز فضيلته الدكتور

= (ت1040هـ)، وبسب حملات رجال الدين عليه، عاملته الجماهير بحفاء، ولم يُعط حقه من الاحترام، ولم يقدر التقدير الذي يستحقه، لذا اعتزل الناس سوات طويلة بسبب ذلك الجفاء، ولم يلق التقدير إلا بعد موته كمعظم العباقرة والمفكرين العظام، وتوفي بشيرار عام 1050هـ، ومن مؤلفاته؛ مفاتيح الغيب، والمداد والمعاد، والأسفار الأربعة. (راجع: مقدمة التحقيق لكتاب "مفاتيح الغيب" للمولى علي البوري، ط1، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، لسان، 2008م).

(¹) حياتي في حكاياتي، ص283-28، و369.

(²) انظر: المصدر السابق، ص287-289.

الشافعي بكل مروياته. وفي إحدى زيارته الأخرى لإستانبول؛ أخذ عنهم فكرة الوقف البحوث والدراسات، فهي تشيع لديهم، وتزدهر بها مؤسسات كثيرة⁽¹⁾.

وعندما كان في إنجلترا سافر في رحلة جماعية إلى باريس، شاركت فيها زوجته، وبعض الباحثين وزوجاتهم، وزاروا كنيسة "نوتردام"، و"الكاتدرائية الكبرى"، و"برج إيفل" وصعدوه. وتعجبوا للمساكن والمطاعم المخصصة بأسعار مناسبة، خاصة للطلاب الوافدين المصريين الذين يدرسون في فرنسا، وهي إجراءات وتسهيلات لها أهداف ثقافية وسياسية، دالة على حسن رعاية الحكومة الفرنسية لهم. وزار فرنسا أخيرا بعد ثورة يناير سنة 2011م، واستضافته فيها "إذاعة فرنسا 24"، وحاضر في عدة مناطق لتجمعات الجالية المسلمة في باريس وما حولها⁽²⁾.

وزار إسبانيا بدعوة من جمعية سانت إيجيديو⁽³⁾، لمؤتمر في مدينة "برشلونة"، وبحول قليلا في المدينة، لقصر وقت الزيارة وشاهد بعض الآثار العربية والوطنية، وتذكر أياما مجيدة وأخرى أليمة ومهينة، مر بها أهل الأندلس قبل قرون⁽⁴⁾.

وقام بزيارة ألمانيا في مهرجان دولي ذي طابع ديني، في مدينة "ميونخ" مركز الاجتماعات قصرا تاريخيا مقر الحكام والأباطرة الألمان، وحضر حفلا بمنزل الكاردينال الألماني الكاثوليكي، وفي

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 289-290.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 7، و 11، و 171، و 173، و 291-293.

(3) منظمه سانت إيجيديو، منظمة كاتوليكية دولية بروما، يعود تاريخها إلى عام 1968م، أطلقتها مجموعة من طلاب المدارس الثانوية، وتقوم المنظمة بالإضافة لنشاطاتها الإنسانية من مساعدات وبرامج لتعليم الفقراء، ونأهيلهم بدور أساسي ولافت في السعي من أجل السلام والتوسط في النزاعات، وتسمى المنظمة للقيام بدور فاعل وحقيقي في التوسط بالنزاعات الدولية حيث شطت في جهود السلام وأثبتت نجاحات في عدد من الدول بينها لبنان والجزائر ودول إفريقية وفي أمريكا الجنوبية، وقام "بطرس عالي" الأمين العام السابق للأمم المتحدة بامتداح عملها. (رجمت إليه تاريخ 2017/3/1: https://www.orient-news.net/ar/news_show/116741/)

(4) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 293-294.

أحد أيام المؤتمر الذي نظمته مؤسسة سانت إيجيديو الكاثوليكية، حضرت الرئيسة الألمانية مسز ميركل، وأعجبت كثيرا عندما سمعت كلمة "الأزهر"، وأعجب - مؤلفنا - بمنظرها لأنها لبست "البلوزة الخضراء" التي لا تكاد تغيرها، وهي من البساطة على "جوب" مماثل، لا تختلف عن ملابس عاملة ألمانية عادية، ولا تتجاوز القيمة المالية لهذا الرداء كله مائة جنيه مصري⁽¹⁾.

زار مدينة روما مبعوثا من الأزهر الشريف، تلبية لدعوة من جمعية سانت إيجيديو أيضا، التي زار مؤسسها المفكر السياسي الإيطالي "السينيور أندريا" مصر، بعد ثورة يناير، وكان له فرصة الرد على خطابه في مركز المؤتمرات الأزهري⁽²⁾. وزار ماليزيا مرتين من إسلام آباد؛ لما بين الجامعتين الإسلاميتين في إسلام آباد وفي كولالامبور من علاقات وطيدة، وزارها مرة ثالثة من القاهرة بدعوة من الجامعة الإسلامية بماليزيا، في حضور مؤتمر علمي عن الوقف الإسلامي، وتكلم فيه عن "وقف النقود"⁽³⁾.

زار الرباط أكثر من مرة، وكانت المرة الأولى عام 1987م بدعوة من كلية الآداب، في مؤتمر بجامعة محمد الخامس، والتقى فيها بالمفكر المصري الكبير الأستاذ الدكتور عبدالرحمن بدوي، وقدم فيه بحثه عن: "الإمام الغزالي، المنهج وبعض التطبيقات"، ونشر في أعمال المؤتمر، ومرة ذهب لدروس رمضان بمحضور جلالة الملك محمد السادس، وألقى بحثه عن "القواعد الاعتقادية الشرعية" باعتبارها علما جديدا - حسب رأي المؤلف - من فروع علم الكلام⁽⁴⁾.

وقام بزيارة تونس مرتين؛ مرة في عهد ابن علي الذي كان حاكما دكتاتوريا، بدعوة رسمية للمشاركة في إحياء ذكرى الشيخ محمد الفاضل بن عاشور - نجل الشيخ الفقيه المفسر محمد الطاهر بن عاشور - وقدم بحثا، وزار الزيتونة، ولاحظ توقف حركة التدريس بها تقريبا، كما زار

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 295.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 296.

(3) انظر: المصدر السابق، ص 297.

(4) انظر: المصدر السابق، ص 298-299.

القرويين ومسجدها الكبير، وزار تونس مرة ثالثة بدعوة من الأستاذ الدكتور عبد الله حمد محارب، رئيس المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة، في "اتحاد المجامع العلمية واللغوية العربية" الذي احتضنته مصر أكثر من أربعين عاما، وصار له الآن مقره الخاص بضاحية 6 أكتوبر، جنوبي القاهرة⁽¹⁾.

وقام بزيارة عُمان عدة مرات، وأسهم في وضع المناهج الدراسية لكلية الشريعة، وأشرف بالصدقة مع كثير من مثقفيها ومسؤوليها، وبالأخص فضيلة المفتي الشيخ السيادي، كما قام بزيارة عمان، وراقته المدينة بنظافتها وهذوتها، وأحب مسئوليتها على النظام، وكذلك شارك في مؤتمر علمي بها⁽²⁾.

شيوخه: ومن شيوخه الذين درّسوه منهم والده أولا؛ الشيخ محمود عبد اللطيف الشافعي، والدكتور بدوي عبد اللطيف أستاذ التاريخ الإسلامي، الذي أجاز فيه من مصر ومن إنجلترا، وقد شغل لاحقا منصب "مدير جامعة الأزهر" وكان له الفضل في تأسيس مقرها الجديد بالمنصة⁽³⁾، والشيخ محمد الغزالي أستاذه في التفسير وعلوم القرآن والدعوة إلى الإرشاد، والدكتور محمود قاسم⁽⁴⁾ - الذي أشرف على بحثه في مرحلة الماجستير - والأستاذ مبروك نافع أستاذ مرموق في التاريخ، الذي قام بتعريب كتاب؛ تاريخ العرب للمستشرق بتلر عن الإنجليزية⁽⁵⁾، والإمام الأكبر الدكتور عبدالحليم محمود أستاذه في التصوف والفلسفة، والشيخ

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 300-301.

(2) المصدر السابق، ص 301-302.

(3) المصدر السابق، ص 29.

(4) تقدمت ترجمته في ص 154.

(5) حياتي في حكاياتي، ص 61.

حسن عبد الغني الصغير⁽¹⁾، والشيخ علي حسب الله⁽²⁾، أستاذه في أصول الفقه، والأستاذ الدكتور عبد الرحمن أيوب⁽³⁾، والشيخ أشهب القاضي⁽⁴⁾ والدكتور علي عبد المنعم⁽⁵⁾ والدكتور والدكتور محمد فتحي عبد المنعم⁽⁶⁾ والشيخ محمد السنوسي⁽⁷⁾ والشيخ محمد علي أحمددين⁽⁸⁾ والشيخ

(¹) هو من "النبا"، تعلم منه أمورا في غير مسائل العلم النظري، مثلا كان يقول: "من لم يزر المحاكم أو يتابع أخبارها، ولم يزر المستشفيات مريضًا أو بريئًا، لا يعرف محتمعه". (انظر: حياتي في حكاياتي، ص136)

(²) ولد في مدينة الإسماعيلية سنة 1895م، والتحق بالأزهر، ثم بمدرسة القضاء الشرعي، ثم بمدرسة العلوم. عمل مدرسا في المدارس الحكومية ومدرسة العلوم، وصار أستاذا، ووكيلا للكلية في جامعة القاهرة. وعمل بعد إحالته إلى المعاش أستاذا بجامعة الخرطوم ثم بجامعة الكويت، ثم مستشارا بشركة المقاولون العرب. وله من المؤلفات؛ الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الناس مناسكهم في حجة الوداع، وأصول التشريع الإسلامي، والزواج في الشريعة الإسلامية، والفرقة بين الزوجين وما يتعلق بها من عدة وسبب، وتوفي عام 1978م. (المستدرك على تنمية الأعلام لمحمد خير رمضان يوسف، ط1، دار ابن حزم، بيروت - لسان، 2002م، 75/1)

(³) تكلم صاحبنا عنه؛ أنه كان ممارا في مجال التأليف والمحاضرة، وله شخصية متميزة بالدكاء الحاد اللامع ودقة النظر، ويظهر ذلك في مؤلفاته التي تجمع بين الترجمة والإبداع في وقت معاً، ولم أجد له - حسب علمي المتواضع - ترجمة في كتب التراجم الحديثة. (انظر: حياتي في حكاياتي، ص163).

(⁴) ولد ونشأ في قرية "رملة الأنحب" بمركز منوف بالمهوية، وكان أستاذ النحو، درس في كلية دار العلوم، وأعيد إلى جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض، وفيها ألف كتابا في شرح ألفية ابن مالك وطبع. [لم أعتز على ترجمة حياته إلا هذه]. (انظر: حياتي في حكاياتي، ص165، و305)

(⁵) عاش في بلدته "شطورة" بمحافظة السوهاج، في القرن الماضي، وكان ذا أخلاقه المنيعة، وسماته الخدابة، وتأثر به الدكتور حسن الشافعي، وله إلمام بعلم المنطق والفلسفة الإسلامية، وأهدى إليه صاحبنا أول مؤلفاته في علم الكلام؛ "المدخل إلى دراسة علم الكلام". [هذا ما وجدته من ترجمة حياته] (انظر: حياتي في حكاياتي ص166، و303).

(⁶) حصل على درجة الدكتوراه من جامعة السوربون بفرنسا، ودرس آخر حياته في الأزهر الشريف. (انظر: حياتي في حكاياتي، ص304).

(⁷) كان أسادا، وغرا في علم الكلام، نكلة أصول الدين في الأزهر الشريف، وله حاشية على "شرح النسفية". (حياتي في حكاياتي، ص305)

(⁸) أستاذه في "علم الحديث"، ودرسه في عام 1953م، بكلية أصول الدين، وله كتاب مشهور بعنوان: ضوء القمر على نخب الفكر. [هذا ما وجدته من ترجمة حياته] (حياتي في حكاياتي، ص306)

والشيخ علي النجدي ناصف⁽¹⁾، ومن الأجانب؛ الدكتورة مس لاميتون⁽²⁾، والدكتورة أنا ماري ماري شميل⁽³⁾.

في طائفة العودة من إسلام آباد/ باكستان: عندما انتهت رئاسة الدكتور حسن الشافعي في الجامعة الإسلامية العالمية عام 2004م، ساءل نفسه في طائفة العودة من باكستان؛ ماذا ستفعل في مصر؟ سأعود إلى مهنتي، مهنة التعليم، أستاذًا للفلسفة الإسلامية في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة.

قام المؤلف ببعض المشروعات التي كان يتمناها منذ زمن بعيد، فقدر في بعضها نجاحا وفي أخرى مرجوا إلى سبيل النجاح؛ ومنها⁽⁴⁾:

(1) لعوي مصري من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ولد في قرية الصافين بمحافظة الشرقية سنة 1898م، وحفظ القرآن الكريم صغيرا، ودرس بالأزهر، ثم التحق بدار العلوم وتخرج فيها عام 1921م، واشتغل بالتدريس المدرسي، واحتير للفتيش، وورشته بحوثه اللغوية التي كان يعدها ويسرها في صحيفة دار العلوم، ليستغل وظيفة مدرس بكلية دار العلوم عام 1943م، حتى التقاعد، ثم احتير عضوا بلجنة إحياء التراث بالجلس الأعلى للشئون الإسلامية، كان عالمي الخلق عف اللسان طلق الوحه، توفي عام 1982م. وترك بعض المؤلفات، مثل: سبويه إمام النحاة، والقصة في الشعر العربي إلى أوائل القرن الثاني الهجري، وابن قيس الرقيات شاعر السياسة والغزل. (المحمبيون في خمسين عاما ص208، وإتمام الأعلام ص190، وذيل الأعلام ص141، ومعجم الأدباء من العصر الخاهلي حتى سنة 2002م، 342/4، وحياتي في حكاياتي ص363).

(2) كانت البروفيسور لاميتون آسة في ستيناتها لم تتزوج - عندما رآها المؤلف - متخصصة اللغات الشرقية وخاصة الفارسية، وكانت على ثقافة إسلامية، مع أنها كانت مسيحية ملتزمة، ورئيسة قسم الشرق الأوسط بالكلية SOAS بجامعة لندن، صارمة قوية الشخصية، وكان الأساتذة ينحسونها لشدة طبعها وسلوكها، وكانت مشرفة على رسالته للدكتوراه، وراجعت وناقشت كل ما يسجله من أحزاء البحث بالتفصيل، وزارت "الربوة" مقر القاديانية في النجابه، وتوفيت في أواخر تسعينات القرن الماضي. (حياتي في حكاياتي، ص61، و99-103، و364).

(3) تقدمت ترجمتها في ص69.

(4) انظر: حياتي في حكاياتي، ص345.

1. وقف مكتبته الشخصية المتخصصة في علم الكلام والفلسفة الإسلامية بالعربية والإنجليزية، لتكون في عون طلاب البحث غير القادرين على تحصيل ما يلزمهم من المراجع، فهي أكثر إفادة للطلاب والباحثين وخصص لها -لحسن حظها- زاوية في مسجد "الأزهر الشريف" بالقاهرة⁽¹⁾.
2. يهدف إلى إحياء النشاط العلمي في مساجد القاهرة التاريخية، وذلك بقيام شرح الكتب الأمهات في العلوم الإسلامية والعربية، حيث ألفت وقُدِّمت لأول مرة قبل حقبة من الزمن؛ على سبيل المثال⁽²⁾:

- أ. كتاب "الرسالة" في أصول الفقه للإمام أبي عبد الله الشافعي رحمه الله، قام أحد المتخصصين بشرح هذا الكتاب، في مسجده الذي به ضريحه، بحي الإمام بالقاهرة⁽³⁾.
- ب. وكتاب "أبكار الأفكار في أصول الدين" لسيف الدين الآمدي، قدمه وشرحه لأول مرة بمسجده الظافري - المعروف الآن بالفكهاني بشارع الغورية، قرب الأزهر الشريف - وشرح الدكتور حسن الشافعي بنفسه في مسجده، خلال عام 2013م⁽⁴⁾.
- ت. وكتاب "فتح الباري بشرح الجامع الصحيح للإمام البخاري" لابن حجر العسقلاني، في مسجده قرب باب الفتوح بشمال القاهرة التاريخية⁽⁵⁾.
- ث. كتاب "الحكم" لابن عطاء الله السكندري⁽¹⁾ بمسجده بمنطقة الإمام الشافعي في القرافة الكبرى⁽²⁾.

(¹) انظر: المصدر السابق، ص 346.

(²) انظر: المصدر السابق، ص 347.

(³) انظر: المصدر نفسه.

(⁴) انظر: المصدر نفسه.

(⁵) انظر: المصدر السابق، ص 348.

ج. كتاب "تاج العروس على القاموس" للزبيدي⁽³⁾، بمنزله التاريخي الذي ما زال قائماً بمنطقة الإمام الشافعي أيضاً⁽⁴⁾.

ح. حاشية الأمير⁽⁵⁾ على شرح "الجوهرة" بمسجده بقرافة المجاورين وراء الدراسة بالقاهرة، بشارع قايتباي، وقام بشرحه الدكتور حسن الشافعي، في مقر العشيرة المحمدية، قرب مسجده⁽⁶⁾.

خ. كتاب "تفسير الجلالين" للإمامين السيوطي والمحلي، بمسجد الإمام السيوطي بالمنيل⁽¹⁾.

(¹) هو أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله، من أهل الإسكندرية، ويتنسب إليها، وولد فيها، حيث كان جده مشغولاً بتدريس الفقه، ولم يذكر المترجمون له سنة ولادته إلا أنه نشأ في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وتوفي بالقاهرة سنة 709هـ / 1309م، وقد تلمذ على كبار عصره، وقد قضى فترة بصحة شيخه "أبو العباس المرسي" (ت: 686هـ)، وبعد وفاته، أصبح وارث عمله، وجلس بمقعد العلم، وقد تخرج على يديه جملة من الفقهاء والصوفية، من أشهرهم الإمام تقي الدين السبكي (ت: 756هـ)، ومن تآليفاته: "الحكم العطائية"، و"التنوير في إسقاط التدبير". (مقدمة التحقيق لكتاب "الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري" لعماد المقدود هيكمل، ص 25).

(²) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 348.

(³) هو محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، ينتهي نسبه إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، واشهر بـ"السيد المرتضى"، أصله من واسط في العراق، ومولده في الهند في بلدة بلكرام سنة 1145هـ، ومشأه في زيد باليمن، وعاش في الحجاز، وأقام بمصر، وتوفي بها بالطاعون سنة 1205هـ، خلف حوالي (107) عملاً أدبياً، بين رسالة وكتاب، أهمها وأضخمها شرحه على القاموس المسمى تاج العروس من جواهر القاموس، وشرح كتاب "إحياء علوم الدين للعزالي" الذي أملاه في أحد عشر عاماً. (الأعلام: 70/7).

(⁴) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 348.

(⁵) هو الشيخ العلامة عالم العربية وفتية المالكية محمد بن محمد بن أحمد بن عبد القادر بن عبدالعزيز السبائي الأهرري، المعروف بالأمير، لأن حده أحمد كانت له إمرة في الصعيد، وأصله من المغرب. ولد في ناحية سنو بمصر سنة 1154هـ، وتعلم بالأزهر، عاش حتى سنة 1232هـ، وأكثر كتبه حواشٍ وشرحاً أشهرها: "حاشية على معني اللبيب لاس هشام"، و"المجموع في الفقه وشرحه"، و"حاشية على شذور الذهب"، و"حاشية على شرح عبدالسلام لخويرة التوحيد"، (الأعلام: 71/7).

(⁶) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 348.

- كذا مؤلفات كبار العلماء المصريين: كشيخ الإسلام الأنصاري⁽²⁾ في مسجد الإمام الشافعي، والعلامة الدردير⁽³⁾، وأمثالهم في مساجدهم العامرة بالقاهرة⁽⁴⁾.
3. كما ينوي الدكتور الشافعي مشروعاً؛ هو إنشاء مجلة علمية ذات مستوى دولي، متعددة اللغات لإحياء وتطوير وتحريك البحث والدرس في العلوم الشرعية المتخصصة، وتوظيفها في إصلاح الواقع الإسلامي، واستشراف مستقبل الأمة الإسلامية⁽⁵⁾.
4. كذلك يأمل إنشاء مركز للدراسات، ولكن حتى الآن لم يوفق لذلك⁽⁶⁾.
- ومن مؤلفاته: "الأمدي وآراؤه الكلامية"، و"علم الكلام بين ماضيه وحاضره"، و"فصول في التصوف"، و"التيار المشائي في الفلسفة الإسلامية"، و"أبو حامد الغزالي..."

(¹) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 348

(²) زكريا بن نخذ بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، هو قاصي، محدث، فقيه، قارئ، ومفسر شافعي. ولد بقرية الخلمية، مركز أبو حماد، بمحافظة الشرقية عام 823هـ، ولاء السلطان قايتاي الجركسي (826-901هـ) قضاء القضاة، فلم يقبله إلا بعد مراعاة وإلحاح، ولما ولي رأى من السلطان عدولاً عن الحق في بعض أعماله، فكتب إليه يجره عن الظلم والطغيان، فعاد إلى انتعاله بالعلم إلى أن توفي سنة 926هـ، ومن تلمذته: شيخ الإسلام شهاب الدين المعروف بـ"ابن حجر العسقلاني" (ت: 852هـ)، والإمام كمال الدين محمد بن عبد الواحد السكندري المعروف بـ"ابن الهمام" (ت: 861هـ)، وجلال الدين المحلي (ت: 864هـ). (راجع: الأعلام 46/3)

(³) هو أحمد بن أحمد المالكي الأزهرى الحلقونى، الشهير بأحمد الدردير، ولد بقرية بنى عدي في أسيوط بمصر، سنة 1127هـ، ويتهي نسبته إلى عمر بن الخطاب، حفظ القرآن وحوّده، وحُتِبَ إليه طلب العلم، فقدم الجامع الأزهر وحضر دروس العلماء الأحناف. أخذ العلوم عن الشيخ الصعيدي ولازمه وانتفع به وأخذ عن الشيخ أحمد الصباغ وأخذ عن الملوي والحفي وأخذ طريق أهل التصوف عنه وصار من أكاثر أهل التصوف في الطريقة الخلوتية، ومن مؤلفاته: أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك، وتحفة الإخوان في آداب أهل العرفان في التصوف، ورسالة في المعاني والبيان في علوم البلاغة، توفي سنة 1201هـ. (راجع: "أبو البركات سيدي أحمد الدردير" لعبد الحليم محمود، ص 43-56، وحلقة الشر في تاريخ القرن الثالث عشر للشيخ عبد الرزاق البيطار، ط2، دار صادر، بيروت -1993م، 185/1-188)

(⁴) حياتي في حكاياتي، ص 348.

(⁵) المصدر السابق، ص 347، و 350.

(⁶) المصدر نفسه

دراسات في فكره وعصره وتأثيره"، و"الإمام مُحمَّد عبده وتجديد علم الكلام"، و"حركة التأويل النسوي للقرآن والدين"، و"تجديد الفكر الإسلامي ... المفهوم والدواعي والخطوات"، و"البيوتات العلمية بين مصر والقاهرة".



الباب الثاني

دراسة موضوعية للسير الذاتية المختارة

[ويحتوي على ثلاثة فصول]

- الفصل الأول: الصراع والألم
- الفصل الثاني: الصدق والصراحة
- الفصل الثالث: الحقيقة والخيال



الفصل الأول

مدخل:

سأتناول في هذا الفصل من الدراسة الصراع والألم في السير الذاتية المختارة، وسنلاحظ وجود هذا العنصر وتوظيفه لدى كتابنا في سيرهم الذاتية ليس بكثير لكنه مستخدم، ولقد وجدت بعض الأمثلة في هذه السير وحاولت أن أقوم بدراستها وتحليلها.

الصراع والآله

إنَّ حظ السيرة الذاتية من البقاء، يرجع في الغالب إلى مدى ما تنقله لنا من إحساس كاتبها بالصراع⁽¹⁾ الذي يثير في نفوسنا ألوانا من المشاعر تحفزنا على مشاركته تجاربه وخبراته، وعلى تعاطفنا مع مواقفه وأفعاله⁽²⁾.

يقوم فن السيرة الذاتية على عرض حياة أصحابها، والوقوف على أهم النقاط التي أثرت في حياتهم، ولا توجد نفس بشرية تخلو حياتها من الألم والصراع سواء أكان هذا الصراع داخليا بين الإنسان وذاته، أم مع العالم الخارجي المحيط به. والصراع في معظم الأحيان؛ إما أن تكون نتائجه إيجابية، فيكون ذلك حافزا لدفع صاحبه إلى التمرد على المعوقات التي تواجهه في حياته، والرغبة في التقدم إلى الأمام، وإما أن يكون سلبيا، فيقعّد صاحبه، ويفتّ في عضده، فيدفعه إلى اليأس والقنوط. والقارئ لفن السيرة الذاتية يلحظ اعتناء كُتّاب السير، أو لنقل

(1) الصراع لغة من مادة "صرع .. وتصارع الرجلان: حاولا أيهما يصرع الآخر، أي بطرحه أرضا، والصراع هنا يأتي بمعنى التصارع مع الذات أو الصراع بين رغبة الكاتب ورغبات الآخرين أيهما أقدر على الصمود في وجه الآخر، أو مدى تأثير هذا التصارع مع الذات والآخرين في رسم مستقبل حياة الفرد وماضيه، (انظر: فن السيرة: للدكتور إحسان عباس، ص104، والترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: يحيى عبد الدائم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1985م، ص150).

(2) انظر: الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: يحيى إبراهيم عبد الدائم، ص150.

معظمهم؛ بتصوير هذا الصراع الذي يعدونه إما مقدمة للنجاح الذي أصابوه، وإما مقدمة للفشل الذي ألمَّ بهم⁽¹⁾.

ويؤدي الصراع دورا بارزا في بناء السيرة الذاتية، فهو من أهم مظاهر الحياة الشخصية للكاتب؛ وما يمر فيها من مواقف متباينة، وآراء متناقضة، فحظ "السيرة الذاتية من البقاء منوط بحظ صاحبها نفسه من عمق الصراع الداخلي مع ذاته، أو شدة الصراع الخارجي مع الآخرين"⁽²⁾.

نماذج من الصراع والألم عند كتابنا

1. الصراع والألم في سيرة بنت الشاطي الذاتية

يتجلى الصراع عند بنت الشاطي في مستهل سيرتها الذاتية، فقد مرت بصراع عنيف مع أبيها وبيئتها التقليدية، وذلك عندما أخذت تفكر في الالتحاق بالمدرسة. وهي تحكي قصة صراعها وألمها، فتذكر أنه بعد رجوعها من قريتها التي مكثت فيها الفترة الصيفية. أرادت رؤية صديقاتها فسارعت إلى ملعب الأطفال على شط النهر، فلم تجد أثرا لهن، وكانت تتساءل في نفسها: "ومضى النهار كله ... دون أن ألمح لأترابي أثرا، وكأنما ابتلعهن الماء أو سحبتهم جن النهر إلى القاع"⁽³⁾، وعادت أدراجها إلى البيت، ثم خطر لها أن تخرج لعلها تقف على أثر لهن: "وسعيثُ في الأصيل إلى دُور الحي، أسأل عن الخير، ففوجئتُ بأن الصغيرات قد بدأن

(1) انظر: صفوة الكتاب في اللغات والآداب: لمجموعة من الأساتذة بإشراف: الدكتورة فورية عساسلة، ط1، كلية اللغات والآداب - الجزائر، 2017م، 51/2.

(2) دراسة في سيرة الأمير عبد الله بن لقيش آخر ملوك بني زيري في عرناطة، رائد مصطفى عبد الرحيم، المنارة للبحوث والدراسات، مجلة علمية متخصصة، مح10، عدد5، كانون الأول 2004، ص95.

(3) على الجسر بين الحياة والموت، ص33.

الدراسة المنتظمة في مدرسة اللوزي الأميرية للبنات"⁽¹⁾. وعندها حزنْتُ صاحبتنا كثيرا لأن زميلاتها قد سبقنها في الالتحاق بالمدرسة، أما هي فما زالت تتعلم داخل البيت، ولم تعبر عتبه بنية الدراسة. وزاد حزنُها عندما رجعت أولئك الزميلات وعرضن عليها أزياءهن المدرسية الأنيقة، والكتب المصورة التي بدأن يدرسن فيها: "وتطوعن جميعا فعرضن علي، أزياءهن المدرسية الأنيقة، والكتب المصورة والكراسات المتنوعة والأدوات المدرسية التي وزعت عليهن"⁽²⁾. وزاد ألمها، وكادت نبضات قلبها تقف عندما أخذن يسردن على مسمعها أحاديث النعم المتنوعة التي أخذن يتقلبن فيها داخل جدران المدرسة. "الأبلوات (أي المدرسات) اللطيفات، وقاعات الدرس المزينة جدرانها بالصور، وقاعة المائدة الفسيحة المنسقة، وعن «داده أم حبيبة» التي تباع لهن الحلوى في فترات الفسح"⁽³⁾.

دخلت بنت الشاطئ إلى البيت وهي مشغولة البال بكل ما شاهدت وسمعت، ولاحظ ذلك عليها أبوها أثناء تلقينها بعض الدروس في المساء، وأنها لا تعيره سمعا. "فلما سألني عما بي، تشجعت فصارحته بما يشوقني من الذهاب إلى المدرسة مع بنات الجيرة ... فكأنني انطلقت كفرا ... وجاءني الرد، حازما حاسما: «ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن»، وأمرني بتلاوة سورة الأحزاب فبدأت أقرأ حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لَسْتُكَ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ اتَّقِيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (32) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 43.

(2) المصدر السابق، ص 43-44.

(3) المصدر نفسه.

الرَّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (33) وَاذْكُرْنَ مَا يُنَالِي فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (34) ﴿١﴾ (2).

وزاد كرب بنت الشاطيء بذلك المنظر الذي كانت تراه يوميا فتتألم لأجله أكثر، ويشدد صراعها مع بيئتها التقليدية الصارمة، فسجلت شعورها؛ "ومضت أشهر ذات عدد، وأنا أتبع بنات الحي بصري وقلبي في رحلتهم اليومية إلى المدرسة، ثم أخلو في ليالي المسهدة الطوال إلى الهم والحسرة" (3).

وشعرت والدة بنت الشاطيء بما تكابده ابنتها، فحاولت أن تجدها لها مخرجا من هذا المأزق، ف"تفرغ إلى جدها - الشيخ محمد الدهوجي - تلمس منه النصيحة والرأي، في موقفها الحائر الصعب بين حرصها على ألا تتدخل فيما يريد لي أبي، وفزعها من عواقب ما أكابد من قهر وحرمان. وتدخل الجدة لحسم الموقف ... " (4)، فرضخ أبوها أخيرا لخروج ابنته من البيت للدراسة، ولكن لفترة معينة. وسُرَّت بنت الشاطيء كثيرا لتحقيق حلمها.

ولما انتهت تلك الفترة المعلومة منع خروجها من البيت، واحتجزت في البيت مع بقية الحريم. فانغلقت أبواب الخروج إلى المدرسة في وجه بنت الشاطيء، وكانت مصرة على مواصلة الدراسة بأي ثمن حتى لا تتخلف عن زميلاتها، لكن أباهما لم يقبل أي كلام حول «خروجها» من البيت. تقول؛ "وكننت في بداية الطريق أنصور أنني قد أكتفي من التعليم المدرسي بتلك

(١) سورة الأحراب، الآية رقم: 32-34.

(٢) على الجسر بين الحياة والموت: ص34.

(٣) المصدر السابق، ص45.

(٤) المصدر نفسه.

المرحلة الأولى، غير أنني لم أكد أجتازها حتى كرهت أن تواصل زميلاتي تعليمهن في المدرسة الراقية، وأتخلف عنهن واقفة عند ذلك الشوط القصير⁽¹⁾.

بدأت بنت الشاطي تصارع قدرها من جديد تريد أن تستمر في الدراسة لكن أباهما وقف في طريقها. فأرادت أن تستجد بما استجدت به في المرة الأولى فلجأت إلى جد أمها الشيخ نحمد الله هوجي، تستعين به على إقناع والدها ليسمح لها بمواصلة التعليم في المدرسة الراقية، وحاول الجد أن يثنى صهره عن عزمه من غير جدوى، ولما سئم الشيخ من إقناعه، فذهب إلى جامع البحر يستعين بشيوخ المعهد على عناد أبيها، وإصراره على حجزها في البيت، وهي لم تبلغ بعد سن الحجاب...⁽²⁾.

غير أن والدها ظل متمسكا بموقفه، ولم يتزحزح عنه قيد أنملة مما أغضب الشيخ وتسبب في تعرضه لحادث: "وطالت المجادلة بينهما حتى صارت إلى خصومة حادة، دون أن يتزحزح والذي عن موقفه. وخرج جدي منفعلًا بالغيظ والغضب، فلم يلتفت إلى دابة كانت تعبر الطريق مسرعة أمام الجامع لحظة انصرافه، فألقت به على الأرض المرصوفة بحجارة صخرية، فلم ينهض على ساقيه بعد ذلك قط!..."⁽³⁾، وهنا زاد الطين بلة، وتفاقت معاناة بنت الشاطي فقد وجدت نفسها في دائرة لا تدري أين طرفاها. إلا أنها لم تستسلم للأمر، ولم تترك خيط الأمل يفلت من يدها، وتشبثت بحلمها.

ولقد تأملت كثيرا لمصاب الشيخ، وشعرت بأنها كانت سببا في ما جرى له، فلزمت غرفته تساعدته وتقوم بخدمته وتلبية حاجاته لعلها تحو بذلك زلتها، "وعشت معه محنته،

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص53.

(2) انظر: المصدر نفسه.

(3) انظر: المصدر السابق، ص54.

وأرهقني الشعور بعقدة الذنب أن كنت السبب المباشر لتلك الإصابة التي لا تجبر، فلزمت غرفته ... حتى إذا حان موعد افتتاح الدراسة بالمدرسة الراقية، أصر على ذهابي إليها ... ورق والدي للشيخ الكسيح في محنته ... وسكت على مضض ... وكأنه كره في أن يتصدى لمعارضة الشيخ المقعد، في الرغبة الوحيدة التي تعلق بها، وزادته المحنة إصرارا عليها وتشبثا بها⁽¹⁾.

وهكذا انتظمت في الدراسة وواصلت تعليمها حتى اجتازت مرحلة الثانوية، ووصلت إلى باب الجامعة، حتى حصلت على شهادة البكالوريا. تحكي قصتها فتقول: "وهكذا مشيتُ على الدرب الوعر، فكلَّما قطعْتُ شوطًا منه تقدمتُ إلى امتحان شهادته خفية عن التقاليد الساهرة على حراستي كيلا أنحرف عن الاتجاه المرسوم لي. وخفية كذلك عن الأوضاع الطبقية والنظم التعليمية، واللوائح المدرسية، التي أقامت الحواجز والسدود، في طريق مثلي إلى الجامعة، حتى وصلت بعد سبع سنين من المكابدة والعذاب، من الباب الموصد لمدرسة المعلمات بالمنصورة، إلى باب الجامعة أحمل شهادة البكالوريا"⁽²⁾.

لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق فالطريق الذي قطعته كان مليئًا بالأشواك، غير أنها واصلت مسيرتها بعزم وثبات حتى حققت ما كانت تطمح إليه، تقول: "لم أكن أدري كنه هذه القوة القاهرة التي تدفعني إلى أن أحميد عن الطريق الذي حدده لي والدي وأعدتني له بيئي، إلى ذلك الطريق المضاد الذي يصل إلى الجامعة ... في ذلك الجو النفسي المشحون بهواجس القلق والخوف، المثقل بعقدة الإحساس بالذنب، وتابعت خطواتي إلى الجامعة، وأنا أحاول أن أستجلي كنه تلك القوة الخفية التي تسيّرني وتوجهني، فلا أجد لها تفسيرًا إلا أنها إرادة الله

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 54-55.

(2) المصدر السابق، ص 103.

الغالبية ومشيتته النافذة، وطال بي الوقوف على باب الجامعة دون أن يتخلى عني إيماني بأن ﴿اللَّهُ بَالِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾⁽¹⁾ (2).

2. الصراع في سيرة جلال أمين

أ. صراع الأستاذ جورج

يحكي الدكتور جلال أمين عن زميل له في كلية الحقوق؛ هو الأستاذ جورج الذي تعرف إليه على نحو عابر أثناء الدراسة، وتخرج قبله بعام. ولما سافر جلال أمين لاستكمال دراسته العليا في لندن، تجددت علاقته بزميله القديم (جورج) في لندن، وكان يتردد عليه في فترات متباعدة.

وقد كان صديقه هذا في صراع مستمر منذ أن كان طالبا في كلية الحقوق بجامعة عين شمس. وكان متفوقا بين زملاء الدراسة إلى درجة أنه كان يقرأ الموضوع قبل أن يحضر إلى المحاضرة، ويعرف مسبقا معظم ما يقدمه الأساتذة في المحاضرات، ويناقش أساتذته في بحوث نشرها، أو يُثني على بحوثه أساتذة كبار أمام الطلاب. فكانت سمعته بين الأساتذة والطلاب طيبة. لكن حدث مرة وقد خانه الحظ هذه المرة؛ إذ جلس في الامتحان الشفوي واختلف مع أحد الأساتذة أثناء الامتحان في السنة النهائية، وقد اعترض الأستاذ على إجابته، ولكنه أصر عليها، وبدأ الأستاذ يفقد أعصابه ويرفع صوته دون أن يهتز الطالب أو يحيد عن رأيه، حتى اضطر الممتحن الآخر المشترك في الامتحان إلى أن يؤيد الطالب ضد الممتحن المعارض، ولكن كانت النتيجة محزنة إذ حصل جورج في الامتحان على تقدير أقل بكثير مما يستحق بسبب

(1) الآية الكريمة من سورة الطلاق: 3.

(2) على الجسر بين الحياة والموت، ص 113-115.

إصرار الأستاذ المجروح في كرامته على نقص درجته، وربما كان من أسباب نقص درجته أيضًا أن اسمه "جورج". وقد ترتب على ذلك أنه فقد المكانة اللائقة به في ترتيب التخرج، كما لم يتم تعيينه معيّدًا في الكلية، وهي الوظيفة التي كان يطمح إليها، فإذا به يقرر أن يبحث لنفسه عن مكان آخر غير مصر⁽¹⁾.

ب. محاولة زينب التسلط على زوجها

يُلاحظ من حياة زينب⁽²⁾ (والدة جلال أمين) أنها كانت في صراع دائم مع زوجها المفكر الكبير أحمد أمين والد الدكتور جلال أمين، لأنها كانت تنتمي - في زعمها - إلى أسرة مرموقة ومحترمة للغاية بزاوية البقلي في محافظة المنوفية، وأن جدها كان طبيبًا ماهرًا وجراحًا شهيرًا. وتظن أن أسرة زوجها لم تكن تتمتع بهذه العراقة والمكانة الرفيعة في المجتمع، ولو لم يكن كاتبًا ومؤلفًا لما اشتهر أمره، وما كانت له تلك المكانة. وكانت تريد دومًا أن تفرض رأيها عليه. وكانت تطمح أن يكون لها منزل تشتريه بحُرّ مالها حتى تحقق حلمها في النفوذ على زوجها، وقد نجحت في ذلك بعد أن أخذت تدخر قرشًا قرشًا حتى استطاعت تحقيق رغبتها في شراء منزل، ثم أخذت تطالب زوجها بدفع الإيجار مقابل عيشه معها في منزلها، وكانت امرأة مشاكسة لا تني تُظهر تفوقها عليه⁽³⁾، وقد رأت مرة في أحد المحلات التجارية لوحة معدنية صغيرة كتبت عليها الآية الكريمة: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾⁽⁴⁾، ففرحت بها، واشترتها وعلقتها فوق سريرها، وكانت تردد هذه الآية إثر كل معركة تنتهي بانتصارها على

(1) رحيق العمر، ص 190.

(2) مرت ترجمتها في ص 34.

(3) كما سجل ابنها الدكتور جلال أمين في سيرته الذاتية. (انظر. ماذا علمتني الحياة: ص 339).

(4) انظر: سورة آل عمران، الآية: 160.

خصمها اللدود الذي كان في السنوات الأخيرة من حياته، وقد تدهورت صحته واضطر إلى التنازل عن الكثير من سلطاته. وحصلت زينب على ما كانت تتوق إليه من الحرية والنفوذ. فقد أصبح لديها ممتلكاتها الخاصة بها، وصارت لها الحرية في أن تطرد هذا الخادم أو تستبقيه، وتؤجر أحد أدوار البيت أو لا تؤجره. هذه العلاقة الزوجية المشحونة بالاختلافات والمشاكسات الكثيرة كانت دائما تعكر صفو حياتهما الزوجية. مما يمكن أن يثير التساؤل عما إذا كانت العلاقة الزوجية هي دائما علاقة بين شخصين متحابين، أم كثيرا ما تكون أشبه بالعلاقة بين متصارعين؟⁽¹⁾.

(¹) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 338-339.

الفصل الثاني

الصدق والصراحة

مدخل:

إذا أردت الكلمة المؤثرة، فاجعلها صادقة من القلب، وعشها بكل جوارحك حتى تعبر عما بداخلك فتمتلي حسناً وحرارة وصدقاً وإخلاصاً ... فكم من كلمة أو قصيدة بلا روح، فتكون أشبه بجثة هامدة لا تتحرك ولا تحرك ساكناً، لأنها قدمت بلا معاناة ولا معاشة ولا صدق، فخسرت قيمتها وتأثيرها ووقعها.

الصراحة هي شفافية الفرد لكل مواقف الحياة تتمثل كمرآة لشخصك وجوهرك الحقيقي وما تبوح به النفس البشرية لكل فعل.

والصراحة يشترط فيها الصدق والجرأة بنفس الوقت، الصدق مع النفس ومع الناس لكي يتحمل مسؤولية صراحته مع الناس، لكن ممارسة الصدق تبقى أصعب من ممارسة الصراحة. إذن فالصراحة والصدق يمثلان كنزا لا يفنى إذا وجده الإنسان في شخص ما فقد كسب الدنيا وإذا أيقن وامثل هو الآخر فقد فاز بنعيم الآخرة ...

لقد اعتبر منظرو السيرة الذاتية أن الصدق والصراحة من أهم الشروط الواجب توافرها عند كتابة السيرة الذاتية، إذ ارتبطا بميثاق السيرة بشكل وثيق، فتميزت بهما عن باقي الأجناس الأدبية الأخرى كالقصة والرواية. لذا فإن على كاتب السيرة أن يبني ما يكتبه على أساس متين من الصدق التاريخي، فإذا ضعُفَ عنصر الصدق في السيرة لم تعد تسمى سيرة ...

فالصدق التاريخي يكبح جماح الخيال، ويدعه يقف عند الحقائق يعرضها ويرتبها ترتيباً خاصاً ... فالقاص حر في الخلق والبناء ... أما كاتب السيرة فلا بد له من مذكرات ورسائل وشواهد يعتمد عليها في كل خطوة⁽¹⁾.

فقضية الصدق والصراحة نجدهما عند الأدباء القدامى في سيرهم الذاتية، وبها ترتفع منزلة الكلام حسناً وجمالاً، وإذا كانت الصراحة في الإطار الفطري لا يكون فيها نوع من الفحش، لأن الفحش والفجور يهديان إلى النار، وهكذا نرى أن الدكتور جلال أمين صادق في ما يقول ويفعل، فلا يكتفم سرا من أسرارهِ بل يبوح به بلا خوف، كما نجد لديه بعض الصور التي تخدش الحياء سجلها في سيرته وأنا أترك الحديث عنها في هذا البحث، لكن سأختار بعض المقتطفات المفيدة منها؛ فيما يلي:

1. إنه يُعنونُ الباب الأول من سيرته بـ"ولادة متعسرة"، ويفتخر فيه بمقاومة أمه عندما تحكي قصة حملها به، وكم كانت فخورة بمقاومة زوجها (أي؛ أحمد أمين) بما لجأت إليه من حيل والأعيب حتى تحتفظ بجنينها في أحشائها وتتيح له الفرصة ليصل إلى هذا العالم الجديد. ويحكي: "أن أبي كان يريد من الأولاد اثنين أو ثلاثة"⁽²⁾، لكن العدد وصل إلى تسعة، وعندما علم أبوهم بمجيء العاشر - وهو كاتبنا هذا - لم يطق صبراً، وقرر أن تضع زوجته هذا الحمل قبل أن يصير وليداً رضيعاً بعد أن يتم حياته في الرحم، لم يكن الإجهاض في ذلك الوقت أمراً

(1) انظر: فن السيرة، لإحسان عباس، ص74-77، بتصرف. وفن السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992 - 2002م، ص109.

(2) ماذا علمتني الحياة للدكتور جلال أمين، ص21.

سهلاً لكن كان أحمد أمين يستعين بطبيب إيطالي، وأخذ الموعد منه ورتّب أمر الحضور إليه بزوجته، وهي لم تعص أمره - لأنه كان مستبداً في سيطرته على أمور البيت، وبينهما علاقة حب وود في بعض الأحيان، وبغض وغضب في معظم الأحيان - ولكن مع هذا حاولت الهرب عدة مرات، مرة إلى بيت أخيها ومرة إلى بيت أختها في قريتهما بالمنوفية، وفي النهاية رضخت لتهديدات الزوج فخضعت لأمره وذهبت معه إلى الطبيب، وفي الطريق إلى المحطة كان أحمد أمين كعادته يتقدم زوجته ببضع خطوات، إذ لم يكن من المألوف أن يسير الرجل في الشارع بمحاذاة قرينته، حتى وصلا إلى المحطة، فلما جاء القطار استقل هو بالعربة الأمامية وظن أنها صعدت إلى عربة السيدات، أما الزوجة فقد تركت زوجها في المحطة يصعد وحده إلى القطار وعادت إلى المنزل، فإذا به لدى محطة الوصول، يجد نفسه - في ذلك الموقف المضحك - ينتظر نزول حريمه من العربة فلا تنزل، ويكتشف أنها خدعته ولم تتركب أصلاً. ومع ذلك لم يهدأ أحمد أمين، وأخيراً بعد التهديدات ذهباً إلى الطبيب بالفعل، والأم قاومت كثيراً حتى أتى "جلال أمين" إلى هذا العالم في 23 يناير من سنة 1935م⁽¹⁾.

ومثل هذه القصة لا ييوح بها أحد لأنها من أسرار الأسرة وفوق ذلك أنها أسرار الأم لكنه ييوح بها بكل صراحة وطمأنينة لا يستحي فيها من أحد، وأعتقد أنه لا يناسب في المجتمعات الشرقية، والكاتب عندما يصرح بقضية ما يتلذذ بصراحته ويتحدث عنها بكل تفاصيلها، ويدخل أحياناً إلى مجالات بعيدة.

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة للدكتور جلال أمين، ص 21 وما بعدها.

2. وقصة أخرى يصرح فيها المؤلف أنه لما كان صغيراً شعر بإحساس غريب عندما اهتمت به ابنة الجيران اهتماماً بالغاً وكاد الأمر أن يقف في طريق دراسته، ويؤخره في بعض الأنشطة الأخرى كنشر المقالات، وصراحته هذه ربما تضر الأسرتين لأن قضايا البنات في الثقافة العربية والإسلامية من أخطر القضايا الأسرية، ومن أساء إليها ينظر إليه نظرة احتقار وامتهان. ثم هذه القضية متعلقة ببيت الجيران، وللجيران حق مقدس وحرمة كبيرة.

3. وكذلك صرح بقصة المرأة التي كانت تدرس معه في الجامعة، عندما كان يحضر الدكتوراه بإنجلترا، وعاش معها أوقاتاً مميزة، ونشأت بينهما علاقة حميمة، وكانت السيدة معجبة به إلى أقصى حد، وتطمع في الزواج به، وعندما عرف بأنها تنوي الزواج منه، صرح برفضه لها، وغضبت منه في أول وهلة ولكنها رضخت للأمر بعد فترة ضئيلة. هكذا نجد المؤلف في هذه القصة يصرح بكل تفاصيلها، ولا يستحي من ذكر مغامراته العاطفية التي خاضها، أو على الأقل يشير إليها بكل صراحة، ولا يخاف في ذلك لومة لائم⁽¹⁾.

4. وفي قصة أخرى يذكر أن فاطمة أخته أرسلت رسالة من لندن، تخبر إخوتها فيها بأن زوجها الدكتور عبدالعزيز عتيق⁽²⁾ بدأ يتلقى دروساً في الرقص الغربي، وإن كان يجد مشقة كبيرة في تعلم خطوات التانجو (Tango). كان الرقص الغربي الشائع في ذلك الوقت، هو الرقص الثنائي حيث يحيط الرجل بذراعه خصر المرأة التي يراقصها، فاعتبرت بعض الأوساط في

(1) انظر: رحيق العمر، ص124.

(2) ولد الدكتور عبدالعزيز عتيق عام 1906م في محافظة القليوبية، عاش في بلده وإنجلترا ولسان، التحق بالتعليم الديني الأزهرى، ودرس في مدرسة القضاء الشرعي، ثم التحق بدار العلوم، وتخرج سنة 1932م، ثم سافر إلى إنجلترا وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن عام 1948م، عمل مدرساً بالمدارس المصرية، ثم موظفاً في وزارة الثقافة، وفي إنجلترا عمل مدرساً للغة العربية، ثم ملحقاً ثقافياً بالسفارة المصرية بها حتى 1955م، ومديراً مساعدًا لإدارة الثقافة بوزارة التربية، تولى عمادة كلية الآداب بجامعة بيروت العربية (فرع جامعة الإسكندرية) وكان أول عميد لها، وله مؤلفات؛ منها: ديوان عتيق، وأحلام الليل، وعلم العروص والفاوية. (اطلعت عليه بـ12 ديسمبر 2017م: <http://shamela.ws/index.php/author/1573>).

المجتمع المصري أن الرقص يجب أن يكون هكذا، وكان الناس يتعلمونه كمظهر من مظاهر التمدن والعصرية، نجد الصراحة في هذا الكلام إلى حد بعيد، ويظن المؤلف بأن الرقص هو فن من الفنون الأدبية وليس فيه أي عيب، ثم يعتبره مظهراً للتمدن والتقدم الحضاري، وكذلك نجده يُنحي باللائمة على أولئك الذين يعدّون الرقص حراماً ومنافياً للأخلاق والفضائل: "إذ كيف يظن أن مجرد أن يمسك الرجل بيد المرأة، ولو كانت غريبة عنه، أو أن يحيط خصرها بذراعه خروج عن الأدب، أو وقوع في الفاحشة؟". ثم لا يستر المؤلف زوج أخته رغم أنه رجل ولا يليق به كل ما ذكره صاحبنا من هذا الكلام، فيقول: "لا بد أن زوج أختي كان قد اقتنع بذلك عندما ذهب لأخذ دروس في الرقص أثناء إقامته بإنجلترا، ولم يمنعه من الاستمرار في ذلك أي شك في أخلاقية العمل، بل منعه فقط أنه لم يكن يمتلك أي حس موسيقي فعجز عن التحرك الطبيعي مع الموسيقى، وأعلنت مدرسة الرقص بأسها التام منه"⁽¹⁾، معنى هذا؛ أن المؤلف يهمله الفن لا الحياء، ولكن نحن ننتمي إلى مجتمع إسلامي ولا بد أن نراعي عاداته وتقاليده، ولا نتخلى عنها في أية حال من الأحوال، ولا يجوز الاستهزاء بها.

5. ويذكر في قصة أخرى أنه فاز بـ(جائزة أحسن كتاب)، وزعت الدعوات على

"الفائزين" من الكُتّاب لحضور الاحتفال لتوزيع الجوائز والأوسمة - وذلك في شهر يناير 1999م - وقد كتب عليها أن الاحتفال يبدأ في الساعة العاشرة، والمطلوب من المدعوين الوصول قبل ذلك بساعة. وجلس المؤلف في مقعده ينتظر وصول الرئيس حسني مبارك رئيس الجمهورية في ذلك الوقت، ولكن الساعة بلغت العاشرة والنصف ولم يكن الرئيس قد وصل بعد. فخطر ببال المؤلف "فكرة ذكية"، وهي: أن من الحكمة أن يذهب الآن إلى دورة المياه

(1) رحيق العمر، ص 279-280.

قبل أن يصبح ذلك مستحيلا، وعندما رجع بعد ظافرا، سأله مرشح آخر - من الجالسين على المنصة معه - عن مكان دورة المياه، فأخبره وشجعه على الذهاب فورا إذ لا يمكن التكهن بما سيحدث بعد حين، فأسرع الرجل إلى دورة المياه ولكنه عاد وقد ارتسمت عليه علامات الحزن... لأن دورة المياه الخاصة بالرجال قد تم تنظيفها وإغلاقها بالفعل، لكي تكون معدة لاستخدام الرئيس إذا شاء استخدامها. وأن دورة المياه المفتوحة هي فقط تلك الخاصة بالسيدات، ولكن من المسموح للرجال استخدامها في هذه الظروف الاستثنائية، وتلك أيضا أغلقت مؤقتا حتى يجلس الرئيس في سيارته عند مغادرته الحفل. وهنا يعرض للأساليب الغريبة التي يعامل بها المثقفون مثل هذه في الحفلات الكبيرة الرسمية وغير الرسمية، إذ يُفرض عليهم الجلوس في مكان خاص وعدم مغادرته حتى وهم في أقصى حاجة إلى المغادرة . لكنهم يتحملون ذلك بهدوء وصبر ويلتزمون الصمت ولا ييوجون بما لاقوه من المعاناة ... ومعظمهم من كبار السن ممن لا يستطيعون بسهولة تأجيل مثل هذه الحاجات الأساسية. ويُعرض على الجمهور في شاشة التلفزيون أنهم من أعظم البشر في القطر المصري كله، ولكنه ليس كباقي المثقفين الذين يلتزمون الصمت وإنما يصرح بما يمر به أمثاله من المعاناة⁽¹⁾.

6. ويحكى أنه لما كان طالبا في كلية أصول الدين كان يسكن مع بعض أصدقائه في حي "روض الفرج" بالقاهرة، فداهمهم رجال مباحث الأمن في شقتهم وألقوا القبض عليه وعلى رفاقه ... وانطلقت بهم السيارة، وكان من حسن حظهم أن عدد الجنود لم يكن كافيا في

(1) انظر: رحيق العمر، ص 380-381.

السيارة فتمكنوا من الهرب والإفلات من أيدهم، واستطاع الدكتور حسن الشافعي أن يدخل بيت أحد أقاربه في نفس المنطقة. ولم يعثر عليه رجال الأمن مع أنهم تعبوا كثيرا في بحثهم عنه. فلم يترك هذا الكلام حين قص على الجمهور قصة فراره من مباحث الأمن، وعنون هذا الحادث بـ"الشيخ ييجري"، ولم يُخفِ ما حدث له في ذلك اليوم بل صرّح به في سيرته كما أكد على ذلك مرارا في سيرته قائلا: "في هذه الحكايات أعاهدك - صديقي القارئ - في اتفاق ملزم، على الصدق والشفافية، والمصارحة"⁽¹⁾.

7. ومثال آخر للصدق والصراحة من سيرته، إذ يحكي؛ أن كان له ابن عم صغير لم يصل إلى سن الرشد، فاختار له الدكتور الشافعي سكنا إلى جوار أقارب له في القاهرة، فاستغل بعض زملائه ظروفه وزعموا له أنهم سيستضيفون عنده قرية لهم ...، وحين جاءت "الضيقة" كانت معها أخرى، وتناوب الذئاب عليهما، وأما ابن العم فأسقط في يده - كما زعم - أو لعل الشيطان قد لعب به مع صحبة السوء، لكن الجيران جعلوا تلك الواقعة، في حارة شعبية مصرية، يعرف أهلها كل منهم الآخر، سُبَّةً في جبينهم، فاستدعوا الشرطة التي قبضت على الجميع؛ الفتاتين والولدين، وابن العم⁽²⁾.

وأخبر الدكتور حسن الشافعي بالقضية المخزية، وأن صاحبه سيعرض صباح الغد على المحكمة، فاستحيا من هذا الموقف الحرج، ولا يريد أن يعتقد الناس عنه أنه كان متواطئا مع

(¹) حباتي في حكاياتي، ص 49-52، و83.

(2) انظر: حباتي في حكاياتي، ص 53 وما بعدها.

المتهم (ابن العم)، لا في المحكمة ولا في أي مكان تثار فيه هذه الفضيحة، ولكن ماذا يفعل؟ يجب عليه أن يذهب إلى الشرطة والمحكمة للإفراج عن ابن عمه، فالتقى بمحامٍ وحكى له القصة. فطمأن المحامي الدكتور الشافعي بأن القضية سهلة جداً، وظهر اليوم التالي رجع المحامي وقد نجح في الدفاع عن ابن العم، وبشره بصدور قرار الإفراج عنه، وهنا وجد الدكتور نفسه في موقف لا يُحسد عليه ليستلم ابن عمه في محطة قسم الشرطة، كما نصَّ على ذلك، "ودخلتُ بخطي مترددة"⁽¹⁾.

فالكاتب هنا صريح وصادق فيما يتناوله من الأمور ولا يخفى شيئاً لأن الشرطة كانت تبحث عنه، ولكن الله سلم منها، لم يترك حادثة في سيرته الذاتية، بل ذكرها بالتفاصيل اللازمة، ولكنه رغم ذلك يحاول أن يستر الجناة، فلم يُفصح عن أسمائهم ولم يدل بمعلومات عنهم وعن أسرهم وهويتهم، حتى لا يفضحهم بين الناس لأن هذا من حقوقهم في المجتمع، والشعب المصري شعب مسلم يتمسك بالأخلاق الفاضلة، ولا يمكن أن يقبل مثل هذه الفضائح، فالصراحة هنا لدى المؤلف في إطار فطري، وفي حدود الأخلاق الحميدة، ويراعي عادات البيئة وتقاليدها. ولا يخرج عليها في أية حال من الأحوال.

8. كما نرى عنصر الصدق والصراحة عند "بنت الشاطئ" في سيرتها، مثلاً؛ عندما أرادت أن تلتحق بالمدرسة التي بدأت بها زميلاتها دراسة منتظمة، وصرحت برغبتها أمام والدها... فوبَّخها والدها قائلاً بأن؛ "ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس

(1) المصدر نفسه.

الفاسدة المُفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن"⁽¹⁾. إلا أنها واصلت المضي في تحقيق رغبة الالتحاق بالمدرسة، ثم صرحت برفض والدها - في سيرتها الذاتية - قائلة: "فكأنني نطقْتُ كفرا !!! وجاءني الرد، حازما حاسما"⁽²⁾... رغم كل هذا لم تجلس مكتوفة الأيدي ولم تُدعن لمشية الوالد، بل حاولت بكل ما أوتيت من قوة حتى استطاعت الالتحاق بالمدرسة، فلم يكن أمام الوالد خيار غير أن يقبل بالأمر والتسليم به وذلك بعد أن تدخّل جدها - لأمرها الشيخ الدمهوجي الكبير - في القضية فتم الأمر. فالمؤلفة لم تنس تلك الكلمات اللاذعة التي وجهها إليها والدها عندما أفصحت له عن رغبتها في الدراسة، ومازالت تذكرها بكل صدق وصراحة، ولا تخفي شعورها بالخيبة والمرارة حينها. مع أن من خالفها في تحقيق أمنياتها هو أبوها، لأن التقاليد القديمة كانت قد سيطرت عليه فلم يكن يسمح بحق البنات في التعليم. أو ربما لم يكن يريد الخروج على تقاليد المجتمع ومخالفتها، وكى يكون في مأمن من قالة الناس.

9. ومثال آخر للصدق والصراحة من سيرتها الذاتية؛ فهي تذكر أنها لما التحقت بالجامعة، لم تكن تلتزم بحضور كافة المحاضرات في السنة الأولى، وفي السنة الثانية لما سمعت أن الأستاذ أمين الخولي⁽³⁾؛ لا يقبل إلا بالالتزام الكامل بالحضور إلى المحاضرات، ودروسه صعبة يتطلب استيعابها من التلاميذ الالتزام الكامل بالحضور وإلا يكن الرسوب لهم بالمرصاد. كما أن طريقة تدريسه كانت مختلفة عن المدرسين الآخرين. فشق عليها ذلك، وأرادت أن تستأذنه

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 44.

(2) المصدر نفسه.

(3) تقدمت ترجمته في ص 25.

حتى لا تضطر إلى حضور المحاضرات، وتستريح في البيت مع الحريم طوال السنة الدراسية، وتأتي في نهاية العام الدراسي تقدم الامتحانات كدأها في العام المنصرم. واستعدت طوال الصيف لمواجهة هذا الأستاذ، وعكفت بضعة أشهر على مراجعة كتب علوم القرآن والتفسير والبلاغة، فقد صوّرها غرورها بأنها قادرة على استيعاب تلك الكنوز، وأن الذي عنده أو عند التلاميذ - من العلم في المادة - لا يرقى إلى ما لديها ... وزعمت لنفسها بأنها ستكون ندا للأستاذ في المادة إن لم تكن أفضل منه⁽¹⁾.

لقد صرحت المؤلفة بالموقف الذي وقفته من أستاذها بصراحة تامة، رغم أن الأستاذ نفسه سيصبح فيما بعد شريك حياتها.

وعندما تحكي قصة حبها للأستاذ الذي أرادت يوماً ما مواجهته تحكي ذلك بكل صدق وصراحة، فتقول مثلاً: إن أول ما أثر في نفسها نبرة صوته المتميزة قبل أن ترى وجهه، وخيل إليها أن الصوت معهود لديها فتساءل: "أين ومتى يا ترى سمعت هذا الصوت؟"⁽²⁾، وظلت تردد هذه العبارة كلما خطر ببالها الأستاذ أو التقت به وجهاً لوجه وتردد: "أين ومتى يا ترى سمعت هذا الصوت؟"، وتحكي بكل صدق وصراحة شعورها نحو الأستاذ، وتعقبها خطاه، وتصويب نظراتها إليه كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وتصف علاقتها بالأستاذ بأنها كانت محتومة عليهما وكأن القدر هو الذي هيأ أسباب ذلك وأراد لهما أن يرتبطا برابط

(¹) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 127، و 158.

(²) على الجسر بين الحياة والموت، ص 118، و 152، و 171.

الزواج، فتقول: "إن لقاءاتنا كانت ليس من إرادتنا، بل هي رتبَت في ضمير الغيب منذ خلقنا الله من نفس واحدة، وخلق منها زوجها. وكأنها تجيب على هذين السؤالين؛ أين ومتى يا ترى لقيتِه، وسمعتِ صوته من قبل؟"⁽¹⁾.

ويتجلى من كل ذلك بوضوح صدقها وصراحتها فيما سطره يراعها لأنها بينت بوضوح تجربة الحب عاشته وما مرت به خلال ذلك من الأحوال والأهوال.

10. ونحن نرى نفس العنصر (الصدق والصراحة) عند "الدكتور شوقي ضيف" في سيرته الذاتية، فهو يقص أن أخته طلبت منه أن يذهب معها إلى مزرعة أبيه، وكانت تبعد عن القرية بنحو كيلومترين أو أكثر قليلا، فقال لها: "إني أخشى كلاب الحراسة في الطريق أن تخرج علينا من بعض الدور أو من بعض الحدائق وتعصّنا"، فقالت: لا تخف مادمتُ معك، وما كادا يتقدما في الطريق حتى سمع الصبي (المؤلف) نباح كلب، فوضع ذيل ثوبه بين أسنانه وأطلق ساقيه للريح، فأسرعت أخته خلفه وأمسكت به وأقنعته أن الكلاب لن تتعرض له مادامت قد سلمت منه ولم يرمها ولا قذفها بطوبة أو حجر أو نحو ذلك⁽²⁾. فلم يترك المؤلف هذه القصة في محفظة ذكرياته لكنه صرح بذكرها، وذكر القصة بكل تفاصيلها.

(¹) على الجسر بين الحياة والموت، ص 118، و 171.

(²) انظر: معي للدكتور شوقي ضيف، 25/1.

الفصل الثالث

الحقيقة والخيال

مدخل

سأدرس خلال هذا الفصل لغة السيرة الذاتية بين الحقيقة والخيال، لدى هؤلاء الكتاب، وسيكون تركيزي على الخيال لا الحقيقة، فمن يتحدث عن نفسه بملك حقيقة ما يتحدث عنه، فهو أكثر إلماما بدقائق حياته ونوازع تفكيره وموقفه من العالم المحيط به، والحقيقة في السيرة الذاتية تكون الأصل، فالذي يصف حياته يكون أميناً في وصفه مخلصاً في نقل الحقيقة دقيقاً في بيانها، كي يعطينا صورة صادقة للحياة التي عاشها والتجارب التي خاضها، والأحوال التي تقلب فيها والحوادث التي حكماها، لأن السيرة غالباً ما تكون حقائق واقعية مر بها وعاشها كاتب السيرة، أما الخيال فقلما يلجأ إليه الكاتب وهو يتذكر ويقلب صفحات حياته الماضية.

يلعب الخيال دوراً في الفصل بين الأجناس الأدبية، والتمييز بين حدودها، والحرية فيه "هي التي تضع الحد الفاصل بين القصة والسيرة، فالقصصي حرّ في الخلق والبناء، يملك أن يتخيل مواقف ومحاورات، وله الحق في أن يصف التيار الداخلي في أنفس الشخصيات التي يرسمها"⁽¹⁾، أما كاتب السيرة الذاتية فيستلهم الأحداث من واقع عاشه، معتمداً في ذلك على مصادر متنوعة كالرسائل، والمذكرات، والذكريات، وشهادات الأحياء وغيرها، فالسيرة الذاتية؛ "يجب أن تتصل اتصالاً كبيراً بالواقع، وتبتعد البعد كله عن الخيال، فشخصية البطل

(1) في السيرة لإحسان علس، ص 71.

والشخصيات الثانوية ينبغي أن تكون قد عاشت الأحداث فعلاً، وأُحسَّت بها⁽¹⁾، وهذا يعني أن القصصِيَّ يَخْتَلِق أحداثاً تشبه الواقع، أما كاتب السيرة فيدون واقعه مع شيء من التلوين. وسأحاول فيما يلي الوقوف على بعض ما يمكن إيرادَه تحت الخيال ومن ذلك: الأحلام، أيام الطفولة، تحليل دواعي الشخصيات وغيرها. أما الأحداث والشخصيات والأماكن وغيرها فالكاتب يعتمد فيها على الواقع والحقيقة.

وسأعرض فيما يلي نماذج من السير الذاتية المختارة

تُقدم بنت الشاطي قصة جدتها لأُمها بأنها كان من عادتها أن تجلس على شاطئ النيل تتأمل في صفحته لساعات طويلة، فقد كان بيتها بمحاذاة الشاطئ، وذات يوم نزلت إلى الشاطئ لتتوضأ لصلاة الفجر فلا أقامت صلاتها ولا لدارها عادت، فقد سحبتها أذرع الموج الهادر، تذكر بنت الشاطي هذه القصة وإن لم تكن من شهودها، وتذهب بخيالها بعيداً فتزعم أنه باستطاعتها أن تسمع في هدير الموج إلى صدى بعيد من صوت إنسي يتصاعد من قاع النهر وأن تميز في مياهه تلك الدموع التي ذرفت أُمها حين وقفت على الشط تنادي والدتها الغريقة، وتضرع إلى النهر أن يردها لها⁽²⁾. لقد تخيلت بنت الشاطي النيل عفريتاً يمد ذراعيه ليسحب نحوه فريسته، وتخيلت أن بإمكانها سماع صرخات جدتها بين هدير الموج، وبإمكانها تمييز دموع والدتها في ماء النيل إثر هذه المفاجعة التي نزلت بالأسرة فهزت كيانها.

ويذكر الدكتور جلال أمين ما حدث في بلده أثناء حرب أكتوبر؛ وهو حادثة وقعت في 6 أكتوبر سنة 1973م، وقد سمع المصريون نبأ عبور الجيش المصري لقناة السويس ونجاحه

(1) دراسة في سيرة الأمير عبد الله بن لائق آخر ملوك بني ربري في غرناطة: عبد الرحيم رائد مصطفى، المارة للبحوث والدراسات، مجلة علمية متخصصة، مج10، عدد5، كانون الأول 2004، ص326.

(2) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص25.

الباهر في تحطيم خط بارليف⁽¹⁾. كان شعور المصريين عند سماع الأخبار مزيحًا من الفرح وعدم الاطمئنان، بالإضافة إلى القليل من الخوف والتساؤل؛ هل وراء هذا الحادث اللطيف أشياء أخرى مخفية وأقل بحجة؟ ولكن كانت لهفتهم إلى أي تغير مفرح، في تلك الحالة البائسة التي يعيشها الناس، تدفعهم إلى طرد أي شك من الذهن وإلى الانغماس مع الآخرين في الفرح والتفاؤل.

وينقل لنا الدكتور جلال أمين ما كان يتخيل حيثذ: "وقد تخيلت وقتها هنري كيسنجر⁽²⁾ وزير الخارجية الأمريكية في ذلك الوقت، وهو جالس إلى مكتبه في واشنطن ويرسل إلى السادات أولاً بأول ما يرى أن على السادات أن ينطق به بالضبط، جملة جملة.

(¹) خط بارليف؛ سلسلة من التحصينات الدفاعية التي امتدت على طول الساحل الشرقي لقناة السويس. قامت إسرائيل ببناء هذا الخط عند احتلالها لسياء بعد حرب 1967م. كان الهدف الرئيسي من بناء الخط هو تأمين الضفة الشرقية لقناة السويس ومنع أي قوات مصرية من العبور إليها. تم تسمية الخط على اسم القائد العسكري الإسرائيلي حاييم بارليف (ت: 1994م). تمير خط بارليف بساتر ترابي بارتفاع كبير - من 20 إلى 22 مترًا - وانحدار 45 درجة على الجانب المواحه للقناة. كما تميز بوجود 20 نقطة محصنة تسمى "دشم" على مسافات تتراوح من 10 إلى 12 كم، وفي كل نقطة حوالي 15 حديًا مسؤوليتهم الإبلاغ عن أي محاولة لاجتياز القناة وتوجيه المدفعية إلى مواقع القوات التي تحاول العبور، كما أن لديها صواري ثابتة للدبابات. (رجعت إليه بتاريخ 2017/2/9م:

https://ar.wikipedia.org/wiki/خط_بارليف

(²) هنري ألفريد كيسنجر دبلوماسي أمريكي وحائز على جائزة نوبل للسلام عام 1973م، ومن ألمع السياسيين ومهندسي السياسة الخارجية الأمريكية. ولد عام 1923م في مدينة فورث الألمانية لعائلة يهودية هاجرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام 1938م. درس كيسنجر المرحلة الثانوية في مدرسة واشنطن الثانوية، ثم التحق بجامعة هارفارد حيث درس فيها البكالوريوس والماجستير وحصل على درجة الدكتوراه عام 1954م. درّس هناك لفترة. ثم أصبح مستشار الأمن القومي الأمريكي في عام 1969م، وشغل أيضًا منصب وزير خارجية الولايات المتحدة من عام 1973 إلى عام 1977. لا يزال كيسنجر شخصية مثيرة للجدل في السياسة الأمريكية. لديه بعض الكتب. منها: "الدبلوماسية"، و"الشعوب تحكم بالخير لا بالسلح"، و"السياسة الخارجية ليست عملاً تبشيريًا". (اطلعت عليه بتاريخ 15 يوليو

2017م، https://ar.wikipedia.org/wiki/هنري_كيسنجر

أذكر مدى حزني واكتئابي وأنا جالس إلى مكتبي في الجامعة الأمريكية وعازف عن تبادل الكلام مع أي شخص، وأفكر في طبيعة المؤامرة التي لم يكن لدي أي شك في أنها تُحاك لنا⁽¹⁾. فقد زعم الدكتور جلال أمين أن أمريكا أخذت تُملي على السادات ما يجب فعله إثر هذا الانتصار العظيم. ولعل شيئاً من هذا لم يحدث مثل ما رسمه الدكتور جلال أمين في سيرته ولكن خطر بباله كل ذلك فكتبه.

وحيثما كان يدرس جلال أمين في «روضة الأطفال» لم يكن قد تجاوز عمره الثامنة، اشترك مع إخوته حسين وأحمد في كتابة مجلد يتكون من تسع صفحات ويحتوي على ثلاث قصص قصيرة، يكتب كل منهم إحداها. "كانت قصتي التي تقع في نحو ثلاث صفحات، تحمل هذا العنوان التراجيدي «دنيا»، وكانت مأساوية بالفعل، إذ كان موضوعها حلماً زعمت أني حلمته، وتعرضت فيه لأحداث مأساوية متتالية، منها تعرضي للتعذيب القاسي من مختلف الأنواع، على يد سيدة غليظة القلب بشعة المنظر، دون أن يتبين في الحلم أي سبب واضح لهذا التعذيب. وتنتهي القصة بأن أسأل عن اسم هذه السيدة فأكتشف أن اسمها «دنيا»، فأقول في نفسي نعم كم أنت قاسية يا «دنيا». وبهذه الجملة تنتهي القصة، وأستيقظ من نومي، وأكتشف أن كل هذا لم يكن أكثر من حلم. وللقارئ أن يتصور الحالة النفسية التي يمكن أن تدفع طفلاً في الثامنة من عمره إلى أن يكتب قصة كهذه، وأن يصف «دنيا» على هذه النحو. وأنا أميل إلى تفسير تلك الحالة النفسية بموقعي كأصغر طفل في العائلة وتعرضي المستمر لمضايقات أخوي اللذين يكبرانني مباشرة: حسين وأحمد⁽²⁾.

(1) ماذا علمتني الحياة: ص 200.

(2) المصدر السابق: ص 87.

لقد حكى الأستاذ جلال أمين في هذه الفقرة بعض ما كان يمارسه في صغره برفقة أخويه، فقد اتفقوا أن يكتب كل واحد منهم قصة فكتب صاحبنا هذه القصة المأساوية التي اعتلى فيها جناح الخيال وزعم أن سيدة قاسية القلب قبيحة المنظر تظلمه وتقسو عليه من دون أن يعرف سبب هذه القسوة. ويتفاجأ في نهاية القصة أن هذه السيدة ما هي إلا «دنيا»، فيتأوه ويقول: كم أنت قاسية يا «دنيا».

زار الدكتور شوقي ضيف إسبانيا

وما إن وضع قدمه في الطائرة المتجهة إليها حتى أخذ يرتسم في خياله فتح طارق بن زياد وموسى بن نصير لها في أواخر القرن الهجري الأول للقرن السابع الميلادي بجند لا يزيدون عن ثلاثين ألفا إلا قليلا وقد استطاعا أن يرفعا علم الإسلام على جميع بقاعها حتى خليج بسكاي وجبال البرنيه في الشمال الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا، واستحال الشطر الأكبر من الجزيرة عربيا في لغته وأدبه إسلاميا في دينه وروحه في سرعة مذهلة.

فقد تذكّر الدكتور شوقي فتح المسلمين لأسبانيا قبل ثلاثة عشر قرنا والأعجاد التي حققها المسلمون في تلك الديار النائية، عرض كل ذلك وهو يتجه إلى الطائرة التي تأخذه إلى إسبانيا الحديثة بعدما زال عنها حكم الإسلام.

الباب الثالث

دراسة فنية للسير الذاتية المختارة

الفصل الأول

اللغة بين السرد والحوار والوصف

الفصل الثاني

أسلوب السخرية

الفصل الثالث

دلالات الزمان والمكان

الفصل الأول

اللغة بين السرد والحوار والوصف

مدخل:

بما أن السيرة الذاتية جنس أدبي فإن اللغة تعد من عناصرها الأساسية، لأنها العنصر الأساس الذي يظهر من خلاله ما يريد كاتب السيرة إيصاله إلى القارئ، فاللغة هي القلب الذي يصب فيه الكاتب أفكاره، ويجسد رؤيته في الحياة، وثمة تشكيل معين لهذه اللغة في أدب السيرة الذاتية، هو استعمالها للسرد والوصف والحوار.

ومن الجوانب الشكلية اللافتة في هذه السير؛ لغتها الفخمة حيث إن الكتاب قد أبدوا مقدرة لغوية فائقة في سرد كثير من فصول سيرها الأمر الذي بات عاملا مهما في تميزها، ويمكن توصيف اللغة المستعملة في السيرة على النحو التالي: السرد والحوار والوصف.

مفهوم السرد⁽¹⁾:

السرد هو الطريقة التي تحكي بها القصة، ذلك أن الحكيم يقوم على دعائمين: أولاهما أن يحتوي على قصة تضم أحداثا، وثانيهما أن يعين الطريقة التي تحكي بها تلك القصة، وهذه الطريقة هي السرد. فالقصة لا تتحدد بمضمونها فقط ولكن أيضا بالطريقة التي يُقدم بها ذلك المضمون.

(1) السرد لغة: سرد: السرد في اللغة: تقديم شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في أثر بعض متابعا. سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه، وفلان يسرد الحديث سردا إذا كان جيد السياق له، وفي صفة كلامه ﷺ: لم يكن يسرد الحديث سردا أي يتابعه ويستعجل فيه، وسرد القرآن: تابع قراءته في حذر من هو السرد: المتتابع. (تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المباحث النقدية الحديثة دراسة في نقد النقد الحديث، من منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق، 2003م، ص 317).

والسرد فعل لا حدود له، يتسع ليشمل مختلف الخطابات سواء كانت أدبية أم غير أدبية، يبدعه الإنسان أينما وجد وحيثما كان⁽¹⁾. يصرح رولان بارت⁽²⁾ قائلاً: "يمكن أن يؤدي الحكيم بواسطة اللغة المستعملة شفاهية كانت أو كتابية، وبواسطة الصورة، ثابتة أو متحركة، وبالحرارة، وبواسطة الامتزاج المنظم لكل هذه المواد. إنه حاضر في الأسطورة والخرافة والأمثلة والحكاية والقصة، والملحمة والتاريخ والمأساة والدراما والملهة، والإيماء، واللوحة المرسومة، وفي الزجاج المزوق، والسينما والأنشوطات، والمنوعات والمحادثات..."⁽³⁾.

علاقة السرد بالسيرة الذاتية

يعد السرد أهم مكون من مكونات النص في السيرة الذاتية كما يعتبر من الأدوات الأساسية التي يستخدمها القاص أو الكاتب لتحميل نصه بالمضامين والدلالات، وتصوير معالم العصر الذي يعيش فيه.

يتحدد مفهوم السرد في كونه الطريقة التي يروي بها الكاتب أحداث سيرته ونقلها من صورتها الواقعية إلى صورة لغوية. وبما أن السرد وظيفة مشتركة بين فن السيرة الذاتية وغيرها من الفنون التعبيرية التي تخضع لمنطق الحكيم والقصص الأدبي. فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف تتشكل عملية السرد في خطاب السيرة الذاتية؟

(¹) انظر: الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) لسعيد يقطين، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1997م، ص19.

(²) ولد (Roland Barthes) في 12 نوفمبر 1915م، بشاريير بفرنسا، فيلسوف فرنسي، ناقد أدبي ودلالي، ومفكر اجتماعي، درس في بوحارست برومانيا، كما درس في مصر، ثم حصل على شهادة في الدراسات الكلاسيكية من جامعة السوربون عام 1939م، وأصبح أستاذا للسميولوجيا عام 1976م في الكولج دي فرانس، وفي 25 مارس 1980م تعرض لحادث فتوفي على إثره. (انظر: السيرة لمؤيد عباس حسين، ط1، رند للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق 2010م، ص83)

(³) الكلام والخبر (مقدمة للسرد العربي) سعيد يقطين، 1997م، ص19.

هناك طريقتان أساسيتان:

الأولى : تتعلق بالسرد المتصل الذي يتتبع فيه الكاتب مختلف مراحل حياته وما مر به من أحداث ووقائع.

والثانية : تتعلق بالسرد المنفصل أو المتقطع وهو ذلك الذي يظهر فيه الكاتب من حين إلى آخر إما معلقا على حادثة ما، أو مفسرا لها بحيث يتدخل في عملية السرد بوصفه راويا مسجلا لتجربته الحياتية الخاصة.

مكونات السرد ووظائفه التقنية:

تشكل البنية السردية للخطاب من تضافر ثلاث مكونات:

الراوي: قد يكون غير ظاهر في النص، وقد يكون شخصية من شخصيات النص.

المروي: هو الرواية نفسها والتي تحتاج إلى راوٍ ومروي له.

المروي له: وقد يكون اسما معيناً ضمن البنية السردية، أو مجتمعا بأسره، وقد يكون قضية ما يخاطبها الروائي على سبيل التخيل الفني⁽¹⁾.

لقد تفاوت كتابنا في مدى لجوئهم إلى استعمال الضمير في سردهم فبينما نجد الدكتور شوقي ضيف يستخدم ضمير الغائب، ونجد بقية الكتاب يفضلون ضمير المتكلم، ولكل من الاستخدامين طرق وأهداف.

وتتوثق علاقة ضمير المتكلم برؤية العالم بنحو أقوى عندما يكون هذا الضمير السبب المباشر لجلاء مغزى النص بربط الموضوع بصاحب الضمير وجعله مركزا لما يجري من حوله،

(1) البنية السردية والخطاب السردى في الرواية: للدكتور سحر شبيب، [ستر في] مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد: 14، صيف 2013م، ص105-106، والوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية للذكورة نداء أحمد منعل، ص333.

والسرد بضمير المتكلم وسيلة من الوسائل المهمة التي تعين الكاتب على نقل مشاعره وإحساساته إلى القارئ.

في السيرة الذاتية يستخدم ضمير المتكلم (أنا) مثل ما هو الحال في سيرة ذاتية بنت الشاطي وجلال أمين وحسن الشافعي، لأن المؤلفين هنا يسردون وقائع حقيقية حدثت في حياتهم، فلقد نشأ ضمير المتكلم فنيا في السيرة الذاتية أي عن شكل سردي ذاتي له صلة وثقى بالواقع الخارجي، والحق أن استعمال ضمير المتكلم نشأ متواكبا مع ازدهار أدب السيرة الذاتية، فكأنه امتداد لها، أو كأنها امتداد منه. كما نشأ عن ازدهار حركة التحليل النفسي التي كان تأثيرها عميقا في الفكر الغربي، إن ضمير المتكلم القريب مع الأنا، نشأ في الغالب، ليتضاد مع البعد التاريخي الذي يجسده ضمير الغائب. ومن أشهر من كان سباقا إلى اصطناع ضمير المتكلم في فرنسا، "بروست" و"سيلي"⁽¹⁾، من أجل الارتقاء بالعمل السردى إلى مستوى الشهادة⁽²⁾.

كما أن كتابة السيرة الذاتية التي تتعامل مع الحميمية الذاتية روجت لهذا الضمير في الانتشار، ولفتت انتباه النقاد إلى جمالية ضمير المتكلم الذي يمكن استعماله في مواقف لا يمكن أن يُستعمل فيها ضمير الغائب.

وفيما يلي سأعرض بعض النماذج من السير الذاتية المختارة في استخدام أصحابها للسرد:

السرد عند الدكتور حسن الشافعي

تميل اللغة السردية عند الدكتور حسن الشافعي إلى المباشرة فلا نلمح في تراكييها صورا بيانية من التشبيه والمجاز والكناية إلا نادرا. وهذه البساطة المباشرة أدت دورا إخباريا ناقلا

(1) لم أعتز على ترجمة لهما.

(2) الكلام والخير (مقدمة للسرد العربي) لسعيد يقطين، ص 111.

للحدث كما هو، وهي وسيلة إيصال المعلومة السردية إلى القارئ بأيسر ما يمكن من خلال جمل قصيرة. ويمكن ملاحظة ذلك في ما حكاه الأستاذ حسن الشافعي.

يحكي الدكتور حسن الشافعي عن عطلة عيد الأضحى التي قضاها في بيته مع والديه في بني ماضي، حينما كان طالبا بالسنة الأولى الابتدائية في معهد القاهرة الديني بالقاهرة. فيقول: "انتهت عطلة عيد الأضحى 1944م، التي جاءت بعد نحو شهرين قضيتهما في معهد القاهرة الديني، بالسنة الأولى الابتدائية، مقيما مع أخي الأكبر في "درب الحجر"، وكانت السنة الدراسية الأزهرية تبدأ دائما عُقيب عيد الفطر، وتتوقف الدراسة شهري شعبان ورمضان من كل عام، وقد لا يعلم قارئ هذه السطور أن هذه الأجندة ما زالت متبعة، في ترتيب السنة الدراسية، بجميع المدارس الدينية بشبه القارة الهندية، بأقطارها الثلاثة، حتى اليوم"⁽¹⁾.

ويكاد هذا الأسلوب المباشر طاغيا على معظم صفحات سيرة شيخنا الدكتور حسن إذ يحاول أن يوصل المعلومة إلى القارئ بأيسر الطرق حتى لا تحدث الصور الخيالية حجبا بين القارئ والحدث، فيحكي عن دخوله المستشفى مريضا: "كانت أول مرة أدخل المستشفى مريضا، مستشفى جامعة عين شمس بالعباسية، عام 1953م، بعد انتهائي من امتحان «الثانوية الأزهرية» مباشرة؛ لاستئصال «الأعور» كما تسمى الزائدة الدودية المغلقة الطرف ... ويقول عنها الأطباء إنها بداية الأمعاء الغلاظ ... وكنت أسكن في أول شبرا «شارع السبتية» ... وبعد أيام برئت «وكتبوا لي خروجاً»، وليس في جيبى إلا قرش واحد ... فحملت بقية ملابسي، وتحاملت على نفسي، وخرجت فعلا. ومن أمام الكنيسة المرقسية وكان الشارع عندئذ اتجاهين ركبت الأوتوبيس المتجه إلى شارع شبرا، ونزلت في أول محطاته، وسرت أتعكز على نفسي وأمسك بيدي اليمنى جنبي الذي ما زال جريحا، ويسراي لفة

(1) حبابي في حكاياتي، ص 11.

هدومي وذقت ضعف المرض حقاً، والذي لا أنساه في هذه التجربة الباكورة هو الدكتور الشاب نائب القسم أفتح عيني أحياناً لأجده واقفاً فوق رأسي، كأنما ينتظر لا يريد أن يوقظني؛ كان يقدر ظروفي الأزهرية ... وكلما مررت على «مستشفى الدمرداش» أحن إلى تلك الأيام، وإلى ذلك الإنسان^(١).

أما شكل السرد الذي يسرد به الدكتور حسن الشافعي حكاياته للقارئ فقد جاء من خلال استعماله ضمير المتكلم لأنه مناسب لها ولأنق بها وأكثرها تداولاً بين كتاب السيرة الذاتية وأيسرها استقبالا وأدناها إلى الفهم ويؤكد به كاتب السيرة حضوراً مباشراً في معابنته للأحداث، وفي علاقته بها، لأنه يتولاها بنفسه، وهو وسيلة من الوسائل المهمة التي تعين الكاتب على نقل مشاعره وإحساساته ومعايشته للأحداث دون مواربة.

وأما أبرز الظواهر السردية عند أستاذنا الشافعي فتتمثل في ظاهرة التكرار السردية، وهي عبارة عن عودة السرد تكررًا إلى حدث واحد. وتوفر هذه الظاهرة السردية التعبير عن حالات كثيرة تكمن في اختلاف وجهات النظر تبعاً لاختلاف المواقف، مما يساعد على توضيح الفكرة وجلاء الحدث بأوضح ما يكون، وسواء في ذلك تكرار سرد الحدث أو تغير أسلوب التعبير أو اختلاف يسير في المضمون. ويمكن الوقوف على هذه الظاهرة في حديثه عن ما كابده الشيخ ورفاقه من المحن والآلام على أيدي السلطات المصرية، ففي مواضع مختلفة من سيرته الذاتية، يسرد الدكتور حسن الشافعي صوراً مما لاقاه في السنوات التي قضاها في سجون مصرية مختلفة وما مر به هو ورفاقه من المحن والآلام وما تجرّعوه من الكؤوس المريرة وراء القضبان. فقد نُقشت تلك الآلام في ذاكرته ولا يستطيع نسيانها، ومثال ذلك ما حكاها في حكاية بعنوان: (في سجون مصر) قائلاً: "قد كان موكب المساجين يسلك طريقاً محددًا معزولاً

(١) حياتي في حكاياتي، ص 136-137.

عن الناس، تحرسه خيول الشرطة وعلى ظهورها الضباط، مزودين بالكراييج⁽¹⁾ والسلاح، وحوالينا جنود الشرطة، الذين ينهرون من يلتفت يمينا أو شمالا: انظر إلى الأرض يا «مُذنب»، ونظرًا لأن بعض من سبقونا من «المذنبين» الحقيقيين، المعتادي الإجرام، كان قد نجح في الهرب من هذا النظام المحكم، الذي لم يتغير منذ أنشأ الإنجليز «الليمان»، وكانت هذه الخيول «العربية» مطية للضباط الإنجليز، بل كان «التوتر الشرطي» ... على أشده، في رحلة الجبل ذهابًا وعودة⁽²⁾.

وما حكااه في حكاية رقم 34 كذا بعنوان: (في سجون مصر - مرة أخرى) قائلا: "ورُحِّلنا من القاهرة إلى سجن قنا الشديد المعاملة، وإن كنا لم نذق فيه إلا «السجن الانفرادي» قرابة ستة أشهر ولا نأكل إلا شطف الطعام الرسمي للسجن"⁽³⁾.

السرد عند الدكتور شوقي ضيف

اختار الأستاذ شوقي ضيف في سيرته الذاتية (معي، ومعى ذكريات ومشاهدات) ضمير الغائب وسيلة للإفضاء بما في نفسه ومع أنه تابع الدكتور طه حسين في الاعتماد على هذا الضمير إلا أنه يبدو غريباً أن لا تعتمد سيرة ذاتية على ضمير المتكلم فهو الشائع المعتاد، واستخدام ضمير الغائب يتيح للراوي الحديث عن نفسه وعن العالم وكأنه شخص آخر، "ومن فضائل استخدام ضمير الغائب في الأعمال السردية أنه يحمي المؤلف من الغرور والادعاء

(¹) الكُرايح جمعها الكراييج: أي سوط، ساطه بالكرايح؛ أي بالسوط الذي يُضرب به، وكذلك يستخدم لترويض الحيوانات للتوحشة. (المعجم الوسيط، المادة، ك ر ب، ص 833).

(²) حياتي في حكاياتي، ص 143-144.

(³) للمصدر السابق، ص 149.

والابتذال والتعالي، ويجول دون الطعن به، وربما يرسم له وقارا في كونه يحرك شخصياته كالدمى دون أن ينخرط في مشاركتها أفعالها ... " (1).

ولعل الدكتور شوقي ضيف كان موفقا في اختياره لضمير الغائب لأنه صالح للاستعانة به من طرف مؤلف موسوعي تبحر في شعاب الأدب كيفما أراد بدون حدود أو قيود. كما أن ضمير الغائب يحمل القارئ على تصديق ما يحكيه الكاتب، وما ينقل له من أخبار، ويجعل السيرة الذاتية تجسيدا لتاريخ الأحداث التي يرويها الكاتب.

وأسلوب الدكتور شوقي ضيف في سيرته الذاتية هو أقرب إلى الأسلوب المباشر منه إلى الأسلوب الأدبي الفني، بمعنى أنه قلما يأتي بصور بيانية من التشبيه والمجاز والكناية، ويحاول إيصال المعلومة للمتلقي بأقصر الطرق وبعبدا عن استخدام المحسنات اللفظية التي قد تشكل عائقا بين القارئ والحدث. ويمكن ملاحظة ذلك فيما يرويهِ الدكتور شوقي ضيف عن زيارته في صحبة وفد من اتحاد كتاب مصر إلى رومانيا وروسيا: "وكان اتحاد الكتاب في رومانيا وروسيا وجه دعوة إلى اتحاد كتاب مصر كي يرسل وفدا منه لزيارة البلدين، ووقع الاختيار على صاحبي مع أربعة تألف منهم جميعا الوفد، وبارحوا القاهرة في الحادي عشر من شهر سبتمبر متجهين إلى روما. وفوق جبال أبنين في جنوبي إيطاليا أبعدت الطائرة في الارتفاع صاعدة في السماء، وسمع موسيقى بديعة ... فتذكر الأسطورة الإغريقية عن جزيرة السيرينات في البحر المتوسط جنوبي بلاد اليونان ... ونزل روما مع رفاقه، وأمضى بها يومين شاهد فيهما أهم معالمها من المتاحف والملاعب، وزار قصر الفاتيكان وجاس خلاله يتأمل في آيات التصوير والفن الرائعة. .. ورأى على بعض تلال روما هرما قزما أقيم محاكاة لأهرامات مصر الشائخة، وغادر صاحبي مع رفاقه في الوفد روما إلى فيينا ونزلها في المساء وتجول في بعض شوارعها،

(1) ضمير الغائب في كتاب الأيام للدكتور طه حسين، محمد بكري ثلاثاء، [نشر ني] موقع اللغة والثقافة العربية | مارس 2016م.

وتناول العشاء مع رفاقه في أحد مطاعمها، وفي الصباح توجه معهم إلى المطار ليأخذوا طائرة شرقية تنقلهم إلى رومانيا ... ونزل مع رفاقه بوخارست عاصمة رومانيا ووجدوا في استقبالهم مندوبين عن وزارة الثقافة الرومانية وعن اتحاد الكتاب هناك، وصحب هؤلاء المندوبون الوفد إلى فندق أثينا المطل على ميدان الجمهورية والمحفوظ بقصور الأسرة الملكية السابقة. وقد استحال متاحف للجمهور، ليشاهد - تحت بصره - مدى استغلال تلك الأسرة له⁽¹⁾.

ولا يعني هذا أن الدكتور شوقي ضيف لا يلجأ إلى استخدام الصور الخيالية في سيرته، فقد ظهر الأسلوب الأدبي بكامل بھائه ورونقه في مواضع مختلفة من سيرته كما نرى ذلك في الفقرة الآتية التي يقارن فيها بين الورود والأزهار التي كان يراها في القرية في صباه، وبين الورود والرياحين في محلات الأزهار بالمدينة. "وهذا نفسه ما لاحظته الصبي فيما بعد حين رأى الورود والرياحين في محلات الأزهار بالمدينة وما كان يراه منها في القرية، فالوردة المزهوة التي كان يبصرها في صباه رافعة الرأس على ساقها أو مائلة ميل خيلاء تختلف من كل وجه عن الوردة الغريبة المنكسة في واجهات محلات الأزهار، فتلك وردة نابضة بالحياة دافقة بالنضرة، وهذه وردة فارقت منبتها وموطنها، قُطفت من شجرتها عنوة لتوضع في زهرة فهي تعطي اللون والشذى إلى حين، ولكن لا تعطي الحيوية ولا مجموعة الألوان البراقة التي تعطيها الوردة حين تشرق عليها الشمس وحببات الندى تلمع على أوراقها، وفي الظهيرة حين تنسكب فيها أشعة الشمس، وفي المساء حين تفضي الشمس إلى الغروب وتستقبلها ألوان الشفق الزاهية ... والوردة في كل هذا النعيم للطبيعة تتمايل على أغصانها والنسيم من حولها يداعبها طوال الليل والنهار، وماء القنوات يجري منسابا متدفقا من تحتها، والطير تغني وتشدو، وتملأ الحقول شدوا وغناء"⁽²⁾.

(1) معي، ذكريات ومشاهدات ص 44-45.

(2) معي: ص 27-28.

السرد عند الدكتورة بنت الشاطي: استخدمت الدكتورة بنت الشاطي في سيرتها الذاتية ضمير المتكلم، مانحة نفسها مساحة من البوح، ولأن ضمير المتكلم مناسب لمثل هذا النوع من الفنون النثرية، وأكثرها تداولاً بين كتاب السيرة الذاتية. وقد أكدت به الدكتورة بنت الشاطي حضورها في معاشة الأحداث، واستطاعت أن تنقل لنا مشاعرها وأحاسيسها وما مرت به من الأهوال والأحوال في حياتها.

"وفي محطة بنها، نزلنا من القطار الكبير ولبشنا على الرصيف فترة طالت، حتى جاء قطار آخر ضئيل زري المنظر سار بنا متعثراً وثيداً حتى حطنا في بلدة «ميت بره» حيث كان أخوال أبي في انتظارنا ... وقد استرحنا في ضيافتهم بقية النهار، وفي المساء أسرجوا لنا حمارين، حملانا عبر درب ضيق مترب وسط الحقول، إلى دار أبي في القرية"⁽¹⁾.

ومن الظواهر السردية الموجودة عند الدكتورة بنت الشاطي استخدامها تقنية الاقتصاد السردية، أي التعبير بكلمات موجزة عن أفكار ومعاني كثيرة. فتكتفي الكاتبة بكلمات قليلة تمثل خطوطاً عامة لإيصال الفكرة إلى القارئ معتمدة على ما تكتنز به اللغة من طاقة إيحائية فنجدها تعبر أحياناً بالإشارة والتلميح بدل التصريح والتفصيل.

ومن الظواهر السردية لدى بنت الشاطي مراعاة الترتيب الزمني، فالمشاهد الواردة فيها تتابع في القص، حسب ترتيبها الزمني في الواقع، لكن الذي يفصل بين المشاهد تلك يظل في أغلب الأحيان مسكوتاً عنه وكأن المؤلفة أرادت حذفه من سيرتها الذاتية.

ويلاحظ ذلك في حديثها بدءاً بأسرتها، وولادتها، وأيام صباها، مروراً بمراحل دراستها المختلفة في كتاب القرية، وتنقلها في المدارس المختلفة، ودخولها الجامعة، وتعرفها على الأستاذ أمين الخولي، وزواجها منه، والأيام التي عاشت في كنفه، ثم وفاته، وبقاؤها وحيدة على جسر الحياة تواجه عواصف الحياة العاتية، وتتجرع كأس الحياة المريرة بعده.

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص33.

وينت الشاطيء من خلال المستوى اللغوي للسيرة الذاتية تبدو ناثرة شاعرية الأسلوب، لا تلهيها الحكاية وسرد الأحداث عن جمال الصياغة، وانتقاء المفردات، والتداعي الشعري واللجوء إلى بعض الصور التعبيرية الخيالية كقولها:

ولمدي شهور الصيف الأربعة، كانت ساعات الصباح تحبسنى في الكتاب، وبقيت لي سويغات الأصيل أنطلق فيها إلى الحقول، وقد أحبيت القرية وأهلها، وطاب لي العيش فيها على خشونتته، فكان ذلك مما هون عليّ، وحشة فراقى لبلدي دمياط⁽¹⁾.

وتكررت رحلتنا إلى القرية فيما تلا من عطلات الصيف، حيث أتممت حفظ القرآن الكريم ... أثناء المواسم الدراسية لمعهد دمياط في الخريف والشتاء⁽²⁾. كما سجلت: "وأذكر أنني لبثت أياماً أطيل التفكير في تعبيره عن حياتنا في دمياط بالغربة! فمبلغ علمي حتى ذلك العهد، أن موطني الأصلي هو هذه البلدة الساحلية الجميلة التي كانت لمولدي مهداً ولطفولتي ملعباً. وفيها ولدت أختي، وأمي، وكل أهلها من قبل. وبها مقر المستديم لعمل والدي منذ بدأ التدريس. وليست القرية إلا منطقة اصطيف لنا، بديلاً عن رأس البر⁽³⁾ مصطفى أهل بلدي. ومهما يكن ارتباطي الوثيق بالقرية، فلن يبلغ مبلغ حيي وولائي لأول أرض مس جلدي ترابها الطيب"⁽⁴⁾.

(1) انظر. على الحسر بين الحياة والموت، ص36.

(2) انظر: المصدر السابق، ص37.

(3) رأس البر هي مدينة مصرية تقع بمحافظة دمياط، وتبعد عن شمال القاهرة بنحو 250 كم، وتشكل شبه مثلث من اليابسة يطل صلبه الشرقي على بحر النيل والعربي على البحر المتوسط وقاعدته على القناة الملاحية لماء دمياط، ويلتقي عند قمته مياه المتوسط المالحة بماء نهر النيل العذبة. يتسم مناخ المدينة باعتدال الجو وحفاقه، فيما يمتاز تخطيطها العمراني بالإنفاذ والتنظيم، فضلاً عن كثرة الحدائق والأشجار. عرفت المدينة قديماً قلع الفتح العربي باسم «جيرة دمياط»، أي «ناحية دمياط». تشتهر المدينة حالياً بكونها مصيف المنطقة الوسطى من المصريين نتيجة لأسعار الإقامة بها التي تعد في مناول أيدهم. (رجعت إليه تاريخ 2018/11/11م، رأس البر/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>).

(4) على الحسر بين الحياة والموت، ص39.

السرد عند الدكتور جلال أمين

اللغة السردية عند الدكتور جلال أمين تنحو إلى المباشرة فنادرًا ما يصادف القارئ في تراكيبها صورًا خيالية واسعة، وهذا النوع من الأساليب السردية تؤدي دورًا إخباريًا ناقلًا للحدث فقط، وهو وسيلة إيصال المعلومة السردية إلى القارئ بأيسر الطرق.

انظر مثلاً ما قاله الدكتور عن (مباهج الصبا) "ما أجمل الكتب التي قرأتها بين سني العاشرة والعشرين. كانت هذه هي السنوات العشر التالية للحرب العالمية (1945-55). وعندما أسترجع في ذهني ما كنت أقرأه في تلك الفترة لا تدهشني كميته بقدر ما تدهشني جودته. وأتساءل بأسف: كم هو صعب في أيامنا الحالية أن يصادف صبي في مثل هذه السن، لا في مصر وحدها بل وفي غيرها أيضًا، هذه الفرصة الرائعة التي أتاحت لي منذ خمسين عامًا"⁽¹⁾.

ومن الظواهر السردية عند الدكتور جلال أمين في سيرته الذاتية ظاهرة التكرار السردية، وتوفر هذه الظاهرة السردية التعبير عن حالات كثيرة تكمن في اختلاف وجهات النظر تبعًا لاختلاف الأحوال والمواقف، مما يساعد على توضيح الفكرة وجلاء الحدث بأوضح ما يكون. ومن الظواهر السردية عند الدكتور جلال أمين أنه يعتمد على عنصر التحليل من عناصر السرد، والتحليل أقرب إلى أن يكون من صفات الكتابة المقالية ولكن صاحبنا يفيد منه بطريقة لا يقل أهمية عن باقي العناصر الفنية في سيرته الذاتية، وهذا يهيئ للقارئ فهم الأحداث والأفعال والدوافع والغايات بطريقة واضحة. وقرأ له التحليل التالي الذي يحاول فيه أن يُطلع القارئ على الأسباب الكامنة وراء أحداث 11 سبتمبر سنة 2001م في أمريكا.

(1) ماذا علمتني الحياة، ص 77.

فالدكتور جلال أمين لا يكفي بسرد الحادثة، ولا بيان صعوبة الموقف، ولكنه يحلل الحادثة في السرد ليقوي الفكرة ويعطيها بعداً عميقاً. ولذلك توقف الزمن هنا تماماً، وأخذ الكاتب القارئ في رحلة إلى كوامن الأشياء وطبائعها.

الحوار

الحوار هو إحدى الصيغ التعبيرية التي يعتمد عليها الروائي في صياغة عمله؛ لذا يكتسب أهمية كبيرة في العمل السردي، فهو وسيلة الشخصيات للتعبير عن نفسها، والناطق بما لديها من مشاعر وأحاسيس وتناقضات ... كما أنه يشكل مع السرد والوصف أدوات الخطاب الأساسية إذ إن السرد حكاية الأعمال، والوصف يختص بالسّمات والأحوال، والحوار حكاية الأقوال⁽¹⁾.

ويتم وصف المكان أو الشخصية أو الحدث من خلال حوارات الشخصيات فيما بينها؛ إذ يُمثّل الوصف بالحوار تعددية الأصوات، سواء أ كان داخلياً أم خارجياً، مجرداً أم تحليلياً ... فما هو الحوار؟ وكيف استخدمه كُتّاب السيرة الذاتية؟

تعددت تعريفات الحوار، فهناك من عرّفه بأنه عبارة عن "صفة عقلية تمنح الشخصيات هويّتها الفكرية والنفسية المنفردة التي تميزها عن غيرها من الشخصيات داخل العمل الواحد"⁽²⁾، أو هو "وسيلة يستخدمها القاصّ في تكوين الشخصية والتعبير عن آرائها ونظرتها إلى الحياة، وهذا أيضاً عامل مهم في تصارع الشخصيات"⁽³⁾. وغير ذلك من التعريفات التي تصبّ في خانة واحدة، وهي تقسيم الحوار إلى نوعين: خارجي وداخلي؛ ليقدم مجموعة من

(¹) انظر: الحوار القصصي: تقنيات وعلاقات السردية لعبد السلام فاتح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،

1991م، ص21، والوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية للدكتورة نداء أحمد مشعل، ص360.

(²) الرواية العراقية وقصية الريف، لباقر حواد الرجاسي، دار الرشد للمستتر - بغداد، 1980م، ص167.

(³) المصدر السابق، ص168.

الوظائف في السرد، فهو أحد أهمّ الخيارات لوصف الشخصية بشكل ديناميكي، بمعنى؛ أنه قد يترك المجال أحيانا للشخصية بأن تصف نفسها بنفسها⁽¹⁾.

والحوار الذي يكون غالبا في السيرة الذاتية؛ هو "ينشأ بفعل الموقف الذي يضع المتحاورين في وضع معيّن داخل المشهد ليقترّب في تكوينه إلى حدّ كبير من المحادثة اليومية بين الناس، فهو حديث إجرائي متأسس على ردّ فعل سريع أو إجابة سهلة أو تبادل كلمات لا يحتمل التأويل المتعدد لأنها إجابات متوقعة عن أسئلة عادية ليس فيها رؤية خاصة"⁽²⁾.

يعتمد أدب السيرة الذاتية اعتمادا أساسيا على السرد ونادرا ما يلجأ كاتب السيرة إلى الحوار الذي يُضفي على المشهد واقعية ويتوهم القارئ أنه يعيش تلك اللحظات ويراها بعينه ويسمعها بأذنيه.

ولذلك لم أجد نماذج كثيرة من الحوار في السير الذاتية المختارة وفيما يلي سأعرض لبعض هذه النماذج التي تيسر لي الوصول إليها:

نماذج للحوار في سيرة بنت الشاطئ: ويلاحظ بعض الحوارات التي وجدتها في السير الذاتية المختارة لهذه الدراسة. فمنها الحوار الذي دار بين بنت الشاطئ وأبيها حول قضية تعليمها بعدما صارحته برغبتها في الالتحاق بالمدارس العصرية، وإنكار أبيها للفكرة ورفضه الحاسم. زاعما بأن هذه المدارس العصرية فاسدة مفسدة.

- فكأنني نطقْتُ كفرا.

- وجاءني الرد، حازما حاسما:

(¹) انظر: الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية للدكتورة نداء أحمد مشعل، ص360.

(²) الحوار القصصى، تقنياته وعلاقاته السردية لفاتح عبد السلام، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 1999م. الرواية العراقية وقضية الريف، لياقر حواد الزجاحي، دار الرشيد للنشر - بغداد، 1980م، ص167.

- ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الفاسدة المفسدة، وإنما يتعلمن في بيوتهن.

وأمرني فتلوت سورة الأحزاب إلى قوله تعالى: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَثْقَيْنَ فَلَاحُضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * وَادْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا *﴾

- وهل أكون من بيت النبوة ؟ ...

لعلمي أنه كان يعتز بنسبه الشريف، ويحتفظ بسلسلة آبائه إلى جده الإمام حسين، ولد الزهراء عليها السلام. وإنما أردت لأسأله:

- وهل بلغت مبلغ النساء؟

ثم تهيت، فلذت بالصمت⁽¹⁾.

يصور هذا الحوار تلك الرغبة الجارحة التي وجدتها بنت الشاطي في نفسها كي تلتحق بالمدارس مثل زميلاتهما وإنكار والدها الحاسم زاعما بأن بنات المشايخ والعلماء يتعلمن في البيوت، فهذه المدارس لا تليق بمنزلتهن. ورضوخ بنت الشاطي لرأي أبيها رغم عدم ارتياحها له.

وثمة حوار آخر في سيرة بنت الشاطي تصف فيه ما دار بينها وبين الممتحنين في قاعة الامتحان لشهادة المعلمات، وكان الممتحنون قد ضاقوا بتعثر الطالبات في تلاوة السور القرآنية والنصوص الشعرية المقررة عليهن في المرحلة، فحينما جاء دورها وتلت مجودة ما اختاروا لها من السور القرآنية، ثم سألوها عن النصوص الشعرية إذا كانت تحفظها، فكان جوابها:

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 44-45.

- من أي عصر؟

وعجب المتحنون بسؤالي، ثم طلبوا نصا من العصر الجاهلي فأنشدتهم أبياتا من معلقة طرفة بن العبد، ومرثية لمهلهل بن ربيعة التغلبي في أخيه كليب.

- قالوا: أسمعينا شيئا من شعر صدر الإسلام.

- فبادرت أنشد لامية كعب بن زهير «بانت سعاد»

ثم ما زالوا يتنقلون بي من عصر إلى عصر وهم في دهشة من حفظي، حتى إذا وصلنا إلى العصر الحديث فاجأتهم بسؤالي:

- من شعري أو من شعر سواي؟

ولم ينسني مر السنين، ما بدا عليهم من عجب، وقد قال أحدهم:

- إن كنت شاعرة فأسمعينا إحدى قصائدك.

وأنشدتهم قصيدة لي «في الحنين إلى دمياط» مطلعها:

دمياط حبك حركت أشجانه آلام قلب في الغرام مصفد⁽¹⁾

ثم أتبعته أخرى: صورة شعرية لزوجة صياد خرج إلى البحيرة في ليل عاصف..⁽²⁾

يصف هذا الحوار وذلك اللقاء العلمي الذي جمع بنت الشاطئ وأساتذتها يطرحون عليها عددا من الأسئلة وإجابة بنت الشاطئ لها، وإعجاب الممتحنين بذكائها وفطنتها وتميزها على زميلاتهما في تلك المرحلة. كما أن كلمات مثل: «عجب»، و«دهشة» و«فاجأهم» تشي بشيء من شعورها بالتميز والجرأة الزائدة.

(¹) انظر. على الجسر بين الحياة والموت، ص76، وديوان بنت الشاطئ الدكتورة عائشة عبد الرحمن جمع ودراسة نقدية، للدكتورة مديحة حابر السايح، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة. [نشر في] مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم - جامعة المنيا، العدد: 37/8، الخريف - الربيع 2018م، ص4808.

(²) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص76.

وبعدما دخلت بنت الشاطي إلى السنة الدراسية الثانية بكلية دار العلوم، كانت تتردد على الكلية في مستهل الدراسة فلمحت الأستاذ أمين الخولي يتحدث إلى عدد من تلاميذه وقد تحلقوا حوله يصغون في انفعال ظاهر. ودنت منه لتسمع ما يقول، وكانت دهشتها بالغة حين ميزت في صوته العميق نبرة مألوفة، جعلتها تفكر متسائلة: "أين ومتى يا ترى سمعت هذا الصوت؟"، وحين همَّ الأستاذ بالانصراف، "سأله سائل من طلاب فرقتي عن موعد درسه الأول لنا، فكان جوابه":

- ليكن الموعد في مثل يومنا هذا من الأسبوع المقبل.
- وأذهلتني المفاجأة، فما تمالككت أن رددت بصوت خلته مسموعا:
- أحسبه السادس من نوفمبر!
- السادس من نوفمبر؟ واعجبا! إنه يوم مولدي ..⁽¹⁾. (تُتَمِّم في نفسها)

رسمت بنت الشاطي في هذا الحوار الصغير أول يوم ترى فيه أستاذها المفضل أمين الخولي في ردهات الكلية وقد تحلق حوله تلاميذه يستمعون إليه باهتمام بالغ. ويسأله بعض التلاميذ عن موعد درسه لهم، فيحدده الأستاذ.

وفي حوار آخر تعرض بنت الشاطي لأول لقاء حصل لها مع أستاذها أمين الخولي قاعة الدرس، وكان يعطيهم مادة علوم القرآن، ومن عادة الأستاذ أنه يعطي كل تلميذ مبحثا من مباحث المادة المقررة عليهم، يُعده ويعرضه للمناقشة في الوقت الذي يحدده التلميذ. فتقول بنت الشاطي: "وبادرت فأعلنت اختياري للمبحث الأول، في «نزول القرآن». وعند نهاية توزيع الموضوعات، عاد الأستاذ يسأل كل تلميذ عن الوقت الذي يحتاج إليه في إعداد بحثه وتقديمه في الفصل، فتقول بنت الشاطي: "فأجبت في عناد وشموخ":

(1) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 152-153.

- يكفيني يوم أو بعض يوم؟

قال الأستاذ الخولي في نبرة إشفاق وتحذير:

- كذا ؟ فكري مليا، فرما بدا لك أنك في حاجة إلى مزيد من الوقت.

وأبيتُ أن أراجع!

ولماذا أراجع، ومبلغ علمي أن المادة مبدولة جاهزة، ومصادرها الأصيلة في متناول يدي، فلن يحتاج الأمر معي إلى أكثر من بضع ساعات للمراجعة، وبضع ساعات أخرى للتنسيق والكتابة!.

ويبدو من هذا الحوار وما سبقه من الحوارات أن لدى بنت الشاطئ اعتدادًا بنفسها ورأيها وما تتخذه من القرارات كما أن في طبعها شيء من الجموح والعناد والمعارضة.

أمثلة الحوار لدى الدكتور حسن الشافعي

وأسوق هذا الحوار من سيرة الدكتور حسن الشافعي الذي رسم فيه ما دار بينه وبين والده من الكلام حول أحواله الدراسية في ليلة من ليالي الشتاء الباردة خلال عطلة العيد الكبير بالقرية، "كنا قد آوينا إلى غرفة «الفرن» طلبا للدفء، ويسألني أبي في حضور الأسرة كلها، عن أحوالي الدراسية ... ويسألني أبي، ونحن في الغرفة الدافئة:

- وماذا أخذتم أخيرا من دروس؟

- دروس كثيرة في علوم متعددة: نحو وصرف وفقه وتجويد.

- في النحو مثلا.

- آخرها "فاء السببية واو المعية".

- ما حكمهما أو تأثيرهما؟

- ينصب الفعل المضارع بأن مضمرة بعدهما، إذا سبقا بأحد تسعة أمور، وسردت الأمور التسعة التي يجمعها النظم:

مُر وادع وانه وسَلْ واعرض لحضهم تَمَنَّ، وارج كذاك النفي قد كمالاً⁽¹⁾

ويتجلى من هذا الحوار أمران: أولهما: شدة حرص والد الدكتور على تعليم ولده وما يتلقاه من دروس. وهو أمر كاد ينعدم في زماننا هذا. والثاني: ذكاء الدكتور حسن الشافعي واهتمامه بدروسه فيما يلقي عليه من دروس في مختلف العلوم والفنون. فلم يتلکأ ولم يتردد لحظة فيما ألقى عليه من الأسئلة⁽²⁾.

الوصف

يلعب الوصف إلى جانب السرد والحوار دوراً أساسياً وفعالاً في إكمال بنية العمل الأدبي السردى، وتشبيده بطريقة فنية، صحيح أن الوصف: "قد يبلغ من الأهمية والمهارة ما به يغني عن سائر الأدوات القصصية الأخرى، عندما يمكن من تقديم قصة في شكل صور أدبية، أو حتى في شكل رسوم أو لوحات"⁽³⁾. إلا أنه لا يقدمها في معزل عن السرد والحوار، فهو يرتبط بكل الجزئيات: الشخصيات، والزمان، والمكان، والسرد، واللغة...⁽⁴⁾.

(1) اليبب المذكور من نحر السبب، وهو كالبالي:

مُر، وانه، وادع، وسَلْ، واعرض، لحضهم تَمَنَّ، وارج، كذاك النفي. قد كمالاً

وهو بيت مستقل جمع فيه بعض السبوح أنواع الطلب والنفي، التي يُنصت بعدها الفعل المضارع، (أن) مقدرة بعد الفاء، كما في قولك: (زُري فأكرمك). وفي ذلك يقول ابن مالك في ألفيته: وبعد "فا" جواب نفي أو طلب *** محصي: "أن"، وستزها حتم، نصت.

(2) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 16-17.

(3) باء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نخب محفوظ للذكورة سيزا قاسم، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، ص 120.

(4) انظر. الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية للذكورة بداء أحمد مشعل، ص 327.

نجد في السير الذاتية المختارة أوصافاً عديدة، وهذه الأوصاف قد تكون لشخصيات وقد تكون لأمكنة أو لأعمال، وأقدم بعض الأمثلة منها:

نماذج من الوصف في سيرة الدكتورة بنت الشاطي

1. تصف أثاث البيت

تصف بنت الشاطي أيام طفولتها فتذكر أنها كانت منكبة في ألعاب مع أطفال في سنّها، إذ نادتها أمها وكانت في الدور الثاني من المنزل: "ونادتنّي أمي من فوق، فأسرعت إليها لأراها قد أخرجت من أمتعتنا ملاءاتٍ نظيفةً بيضاء، فرشتها على سرير من حديد أسود باكر من نحاس صديء، في قاعة فسيحة مفروشة بحصير يبدو جديداً. وفي قاعة جانبية، أعدت لنا حشايًا جلسنا فوقها حول صينية عشاء يحملها كرسي قصير من الخشب، وفي زاوية من القاعة كان هناك طست وإبريق من نحاس للاغتسال. وفوق قاعدة النافذة البحرية، وضعت صينية مستديرة فيها ثلاث قلال للماء، غطتها أمي بقطعة من شاش أبيض"⁽¹⁾. ولقد أضفى هذا الوصف التفصيلي على البيت والأثاث الموجود فيه لونا من الجمال الذي وضع القارئ في حالة من التخيل كأنه يعيش هذه اللحظات مع الكاتبة في بيتها في ذلك الزمن البعيد.

2. وصف السفر ووسائله

تصف بنت الشاطي رحلتها نحو قرية أبيه بصحبة أسرته والقطار الذي كانوا يسافرون به والمناظر التي وقع عليها بصرها وما شعرت به طوال هذه الرحلة، تقول: "ركبنا قطار الصباح، وانطلق يجري بنا وأنا مفتوحة العينين، أطل من نافذته على ما بدا لي يومئذ من عجيب المشاهد وطريف المناظر، وكأني أتفرج من الثقب السحري لصندوق الدنيا، أو صندوق العجب كما كنا نسميه ... وفي محطة «بنها»، نزلنا من القطار الكبير ولبثنا على الرصيف فترة

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 34.

طالت، حتى جاء قطار آخر ضئيل زري المنظر، سار بنا متعثرا وثيدا حتى حطنا في بلدة «ميت بره» حيث كان أحوال أبي في انتظارنا ...»⁽¹⁾.

تصف بنت الشاطي منظر الدار وما حولها، وتلقي الضوء على ما رآته في دار أبيها في القرية: "وخطوت في بطاء إلى فناء الدار، حيث لمحتُ أكداس الحطب مكومة قرب فرن عجبت لموضعه داخل البيت، ثم ازداد عجبي وأنا أرى المواشي في زريبة مفتوحة على الفناء، وإلى جانب الزريبة صف من القاعات المظلمة، سألتُ عنها ف قيل لي إنها مخصصة لنوم العائلة في الشتاء"⁽²⁾.

3. وصف مشاهدة الأستاذ أمين الخولي ونشاطه في الكلية

تصف بنت الشاطي ذلك المنظر الذي رأت فيه أستاذها وزوجها - فيما بعد - الأستاذ أمين الخولي: "وكنت في المرات القليلة التي ترددت فيها على الكلية خلال العام الأول، ألمح «الأستاذ الخولي» من بعيد بين حين وآخر، في ردهات الكلية وأبوابها، بزيه اللافت وسمته المهيّب وملاحه المتفردة، يحفُّ به دائما عدد من تلاميذه شبه مسحّرين، وقد أخذوا معه في حوار متصل ..."⁽³⁾.

يصف الدكتور حسن الشافعي حالته

يصف المؤلف حالته عندما خرج من المستشفى؛ "وبعد أيام برئت «وكتبوا لي خروجاً»، وليس في جيبي إلا قرشا واحدا ... فحملت بقية ملابسي، وتحاملت على نفسي، وخرجت فعلا ... وكان الشارع عندئذ اتجاhein ركبت الأوتوبيس المتجه إلى شارع شبرا، ونزلت في أول

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص33.

(2) المصدر السابق، ص34.

(3) المصدر السابق، ص119.

محطاته، وسرت «أتعكز» على نفسي وأمسك بيدي اليمنى جنبي الذي ما زال جريحًا، ويُسراي «لفة» هدومي، وذقت ضعف المرض حقًا⁽¹⁾.

وصف بعض ما يلاقيه السجناء داخل السجون في مصر

يصف الدكتور حسن الشافعي بعض ما مر به هو والسجناء الآخرون من الأهوال والعذابات في سجون مصر المختلفة، ويصف أحد السجناء الشباب وكان مدرسًا بمدرسة ابتدائية يسمى «حسين السيد» من حي الإمام الشافعي، "ضرب حتى تورم جسمه وتسهم لعدم العلاج ورأيته عشية موته، يحاول غسل فائلته الداخلية غير مستطيع، فألقى بجسمه على الحوض، وحمل مع الفائلة إلى «زنزانه» في الدور الأعلى. وكنتُ حينئذ في الدور الأرضي بسجن رقم 4 بالسجن الحربي. في زنزانه الركن الجنوبي الشرقي⁽²⁾.

أنواع التعذيب في السجن

يصف المؤلف جزءًا من التعذيب الوحشي على السجناء في سجون مصر المختلفة، والدكتور دخل السجن مرات أمضى فيه قرابة عشر سنوات، اکتوى خلالها بلهيب من هذا التعذيب، وقد أشار إلى ذلك في حكايات متعددة من سيرته الذاتية: "... وأخذ الرجل يضربني بنفسه طوال الليل، في عدة جولات، لا يتوقف إلا عندما يناله التعب ... وقد أمر أكثر من مرة بإحضار الملح، ومسح ظهري الدامي، الذي نالت منه هذه الآلة الشعبانية المسماة «بالكُرباج»، وهي طريقة - أعني المسح بالملح - تُحدث ما يشبه تطهير الجروح، وإن كانت تلهب ما بقي من الجلد، وتجعل للضرب اللاحق بما أثرًا صاعقًا، وألما مضاعفًا ... ولا أدري كيف تحملت الضرب وأنا الضعيف البنية إلا من أنينٍ خافت، وكيف غلب على شعوري احتقار هذا «البنّي آدم»، الذي كان أحيانًا يسخر مني ... وأنا أعجب لقوله: «ما هو يا

(1) حياتي في حكاياتي، ص 137.

(2) المصدر السابق، ص 147.

إحنا يا أنتم»⁽¹⁾، وسبب عجيبي أنه آلة في دولة، وأنا شاب مسكين في الرابعة والعشرين، مع فتية قلائل، في الجولة الثانية من «محاكمات الشعب»، بعد الأولى التي حصدت العدد الأكبر بين قتيل وسجين، إلى جوار آلاف المعتقلين فيما يسمى بالسجن الكبير، وهو القسم الأكبر من هذه المؤسسة البغيضة في تاريخ مصر الحديث، التي حرفها الطغاة من هدفها في حفظ النظام والقانون بين أفراد القوات المسلحة إلى تعذيب المدنيين. والتي جعلت التعذيب منهجا وحرمة: من الضرب والوقوف ساعات طويلة، والتعليق منكسًا، والتعذيب بالثلج في الثلجة، والحرمان من النوم ومن قضاء الحاجة الضرورية، والضغط على الرأس بجهاز دائري يكاد يفكك الدماغ، والتعليق على «العروسة»، والصعق بالكهرباء وفي أماكن حساسة، وخلع الأظافر، والتعطيش والتجويع، والتهديد بالعدوان الجنسي، وإخراج المحكوم عليهم بالإعدام إيهاما بتنفيذه ثم إعادتهم إلى زنازينهم، والإهانة النفسية بطواير الأغاني في مرمى نيران المدافع، مدحا للطاغية الذي ألقى بهم في هذا السجن، ليعانوا ألوان الأذى النفسي والبدني، والمهانات التي تضيق عن روايتها المجلدات، ولا حول ولا قوة إلا بالله⁽²⁾. هكذا يصف الدكتور حسن الشافعي أنواع التعذيب المختلفة في سجون مصر الحديثة وكيف حوله النظام من هدفها الحقيقي وهو الحفاظ على الأمن والقانون ومؤسسة تعمل لخدمة الشعب إلى تعذيب المدنيين بطرق وحشية وبطرق لا تعرف الرحمة.

ويصف دخوله السجن وكيف كان يقضي الليل خلف القضبان، يقول: "ووضعت مع المحجوزين بالقسم في غرفة مليئة بهم، وإن كانوا، حين أحسوا بأني معتقل سياسي، أفسحوا لي المكان شيئًا ما، ولكني لم أتم، وبقيت يقظًا، بيدلتي الكاملة وحقيبة ملابسي في يدي، حتى الفجر. ويعلم الله أن البق كان ينزل من سطح الغرفة، وعلى حيطانها، سلاسل متصلة لا

(1) جملة في لغة عامية.

(2) حباتي في حكاياتي، ص 59.

تنقطع. وهؤلاء «الغلابة» يقضون ليلهم أيقاظاً وهم رقود، وقد ينام البعض من شدة التعب⁽¹⁾.

وصف الشيخ محمد متولي الشعراوي

بدأ الدكتور حسن الشافعي يصف الشيخ محمد متولي الشعراوي⁽²⁾؛ "لقد ظهر بمصر داعية جديد، يخلب ألباب سامعيه، ومشاهديه في وسائل الإعلام ... وقد ملأ الدنيا وشغل الناس ..."⁽³⁾. وعندما يتحدث عنه في فقرة أخرى يصفه بقوله: "وجاء رجل نحيف الجسم خفيف اللحية، يلبس «البدلة» الأوروبية، عاري الرأس، وهو إلى الكهولة أقرب منه إلى الشيخوخة ... ولم أشعر أن هذا هو الشيخ الشعراوي، وزير الأوقاف المصري، الذي أدهش الجميع وخلب ألبابهم"⁽⁴⁾.

امتحانان في يوم واحد

كان الدكتور حسن الشافعي يدرس في كليتين مختلفتين - مر ذكر ذلك في الباب الأول - في آن واحد، هما كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وكلية أصول الدين بالأزهر الشريف، فاتفق أن تصادف امتحانان في الكليتين في يوم واحد وزمن واحد، كما قال: "ليس فقط في يوم واحد، وأظنه كان يوم الأحد أيضاً، بل في وقت واحد أيضاً. كيف كان ذلك؟ وهو يشبه «التناقض» عند أهل الاصطلاح: ... أن يظهر المرء في مكانين مختلفين في وقت واحد! فذلك أمر محال"⁽⁵⁾.

(1) حياي في حكاياتي، ص 121.

(2) تقدمت ترجمته في ص 67.

(3) حياي في حكاياتي، ص 159.

(4) المصدر نفسه.

(5) حياي في حكاياتي، ص 46.

ويقول الدكتور حسن بأن: "ما يشغلني هو أداء الامتحانات «المزدوجة»، ولكني والفضل لله وحده: قضيت أربع سنين دراسية في الكليتين، وكأني أصنع بنفسني «جدول» الامتحانات؛ يوما هنا ويوما هناك، بانتظام دون تداخل أو تعارض. اللهم إلا يوما واحدا، هو يوم الأحد العجيب ... كان عليّ أن أؤدي فيه امتحانين: في اللغة الإنجليزية «بالتزم» الثاني للسنة الأولى بكلية دار العلوم بالمنيرة، قرب دار الهلال، الساعة التاسعة صباحا حتى الثانية عشرة، وأن أؤدي أيضًا امتحان المنطق بكلية أصول الدين السنة الثانية، وكانت عندئذ في أقصى شارع شبرا «بالخازندارة» من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة؛ أي في الوقت نفسه" (1).

يصف المؤلف الملك فيصل

يذكر لنا الدكتور حسن منظر دخول الملك فيصل بن عبد العزيز رحمه الله (2)، إلى الحرم المكي وإعجاب الناس بمنظره المهيّب في أيام الحج، يقول: "إذا بقادم مهيب من جهة المسعى متوجهاً إلى الكعبة، في ملابس الإحرام، طويل القامة، رقيق الجسم، أبيض الوجه، خفيف اللحية، «منفردا» وخلفه بخطوات كوكبة من المرافقين، فلما أمعنا النظر تبين لنا أنه «الملك فيصل بن عبد العزيز» وكان حولي طائفة من الناس انطلقوا في حركة تلقائية يصفقون جميعا له" (3).

الحنين إلى البيت

يحكي الدكتور حسن الشافعي عن ذلك الموقف الشاق على قلبه الصغير عندما خرج - وهو طفل صغير - برفقة أبيه إلى القاهرة للدراسة فيها غير أنه لم يكمل طريقه لأنه رأى أمه

(1) حياتي في حكاياتي، ص 47-48.

(2) تقدمت ترجمته في ص 75.

(3) حياتي في حكاياتي، ص 87.

وإخوته الصغار من النافذة الخلفية للدار، فرق قلبه وثقلت خطواته واغرورقت عيناه وأخذ يكثّر من الالتفات إلى نافذة الدار، فرق له قلب والده وأعادته إلى حيث خف منه محمله، يقول: "لبستُ ملابسي، وزودتني أمي بما يلزم، وخرجت مع أبي من باب الدار، بعد أن ودعتني هي وإخوتي الصغار، وانتنينا يمينا مع «داير الناحية» أو بلغة اليوم «الدائري»، لنصبح في ظهر بيتنا تماما ... لاحظ أبي أنني لا أنظر إلى الأمام، وأن عينيّ معلقتان بالنافذة الخلفية لدارنا، حيث أمي وإخوتي، وقال لي، بحنان مكبوت: ما بالك؟ وكان ردّي كلمة واحدة: أمي. فغير الرجل - وهو معلم خبير وملتزم - اتجاه السير تمامًا، وعدنا أدراجنا إلى البيت، حيث فوجئ أهله بعودتنا، وتركني أعيش في أحضان الأسرة أسبوعًا آخر ..."⁽¹⁾.

وصف مدينة ستالينجراد

يصف الدكتور شوقي ضيف مدينة «ستالينجراد» فيدخل أولاً إلى تاريخها في الحرب العالمية الثانية: "مدينة ستالينجراد التي صمدت للألمان، وكان صمودها مؤذنا بهزيمتهم في الحرب العالمية الثانية"⁽²⁾. ثم يصف ما فيها من زينة وجمال مشيراً إلى "بعض المصانع وبعض المتاحف ... كما شاهد - المؤلف - فيلماً في سينمائها يصور مقاومة المدينة الباسلة للألمان"⁽³⁾.

يصف الدكتور شوقي ضيف طقس الكويت في شهر سبتمبر

يصف الدكتور شوقي ضيف طقس الكويت؛ وهو عندما اقترب إلى الكويت، فيصف المنظر: وكان الوقت مساء فرأى من نافذة الطائرة اللهب الصاعد من آبار البترول، وهبطت الطائرة في المطار، ولم يكد يدنو من بابها للنزول حتى أحسن بما يستقبله من وقْدَةِ الحر

(1) حياتي في حكاياتي، ص 11.

(2) معي، ذكريات وملاحظات، ص 80.

(3) المصدر السابق، ص 75-76.

الشديد، وهو عادة يكون خانقا هناك في شهر سبتمبر لتشبع الجو بالرطوبة، أما في الشتاء فيكون جو الكويت شبيها بجو القاهرة في اعتدال حرارته⁽¹⁾.

وصف الدكتور شوقي ضيف لباس الكويتيين

لاحظ الدكتور شوقي ضيف في الكويت لباس النسوة في زمنه الراهن فبدأ يصف لباس المرأة والرجل في مراحل العمر المختلفة، فيقول: "السيدة تنزّي دائما بالنقاب، وتسربل بالملاءة، وابنتها تلبس الفساتين والملابس الأوربية ولا تنتقب، والأم تلبس العباءة، والفتاة تلبس الجونلة أو التنورة. ويلبس الرجال جلابيب بيضاء فضفاضة، ويزين العقال رءوسهم، ولكل إمارة ودولة في الجزيرة عقال ذو هيئة خاصة يميزها عن عقال شقيقاتها القريبة والبعيدة"⁽²⁾.

وصف الدكتور شوقي ضيف لمدينة فرانكفورت الألمانية

يصف الدكتور شوقي ضيف ما شاهده في رحلته إلى ألمانيا وتأثره بفن العمارة في مدينة فرانكفورت، ويتذكر حينئذ تاريخ المسلمين وزمن نهضتهم في الماضي، وأخذ يقارن هذا بذلك ويتأسف على ما آل إليه حال المدن العربية في العصر الحديث: "زار بعض المدن الصغيرة بالقرب من فرانكفورت، ولاحظ أن شوارع السوق لا تدخلها سيارات حفاظا على الأطفال والمشاة من النساء والرجال، وهو نظام كان سائدا في المدن العربية قبل العصر الحديث ولا تزال منه بقية في بعض تلك المدن مثل دمشق وسوقها المشهور باسم الحميدية، وهو سوق مسقوف. وكذلك كانت الأسواق مسقوفة في المدن المصرية الكبيرة وتخلّت عنها سواء من حيث السقوف أو من حيث قصر السوق على المازة وحدهم، وكأنما أخذت المدن الألمانية أو بعضها - على الأقل - بنظام الأسواق العربية القديمة وما أحرانا أن لا نبحره ولا ننساه. ورأى

(1) انظر: معى، ذكريات ومشاهدات، ص122.

(2) المصدر السابق، ص123، وما بعدها.

في زيارته السريعة بإحدى تلك المدن ساحة واسعة ليستريح بها الجمهور على مقاعد مرصوصة⁽¹⁾.

وصف لبنان

عندما كان يدرّس الدكتور جلال أمين في الجامعة الأمريكية معاراً من جامعة عين شمس لمدة عامين، حصل منحة من «مؤسسة فورد» لمدة سنة لكتابة بحث في أي موضوع من اختيار المؤلف، والسفر خلال ذلك إلى أي مكان يختاره، إذا كانت كتابة البحث تستلزم هذا السفر، فرح المؤلف بالمنحة واختار موضوعاً لكتابة البحث بعنوان: "التطور الاقتصادي في البلاد العربية خلال ربع قرن (1945-1970م)"⁽²⁾. ثم اختار بأن يقضي نصف السنة في بيروت والنصف الثاني في كامبردج بإنجلترا، فوافقت «مؤسسة فورد» على ذلك. ويسجل الدكتور جلال أمين ما حدث له في تلك الأيام: "كان لبيروت في ذلك الوقت سحر قوي في أعين المصريين. كانت كل السلع الممنوعة في مصر، متاحة وبمختلف الأصناف في لبنان، وكان المصري إذا سئل من أين أتى بهذه الألعاب الرائعة لأطفاله، أو من أين له هذا الجبن المدهش، أو التفاح الذي لا يُرى له مثيل في مصر، يجيب في الغالب بأنه من لبنان. كانت بلدًا مفتوحاً على العالم، ليس فقط فيما يتعلق بالسلع، بل أيضاً بالكتب والصحف التي كان استيرادها يخضع لقيود شديدة في مصر"⁽³⁾. فيزيد في وصف لبنان: "كنت قد زرتُ لبنان ... في رحلة جامعية ثم في رحلة خاصة مع بعض الأصدقاء، ووجدتها بلدًا ساحراً بجباله وشواطئه وخضرتها ومناخه ونظافته وموسيقاه وطعامه ..."⁽⁴⁾. كانت فرصة قضاء ستة أشهر في لبنان تبدو رائعة.

(1) معى، ذكريات ومساهمات ص 155-156.

(2) رحيق العمر، ص 260.

(3) المصدر السابق، ص 260-261.

(4) المصدر السابق، ص 261.

وصف كامبردج في سيرة الدكتور جلال أمين

أما مدينة كامبردج البريطانية فيصفها الدكتور جلال أمين بكلمات يشع منها غرامه بجمالها الساحر الساكن والمتحرك، فيقول: "فكنت لازلت أتذكر جمالها وسحرها منذ كنا، نحن الطلبة المصريين في لندن، نزورها من حين لآخر لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. كنت قد وقعت في غرام كامبردج منذ رأيته، ولازلت حتى الآن أعتبرها أجمل مدينة وأظرفها في الوجود، أو على الأقل أحب المدن التي رأيته إلى قلبي. إذ أين هي المدينة الأخرى التي تستطيع فيها أن تقطعها كلها من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر، سائراً على الأقدام، فلا ترى أثناء سيرك إلا حدائق غناء يجري في وسطها نهر هادئ؟ على جانبي النهر بيوت صغيرة يندر أن يزيد ارتفاعها عن ستة أمتار، فلا يشعرك السير جوارها بضالتك وتفاهتك، حتى تصل إلى مباني الجامعة رائعة الجمال، والتي تُركت في حالة لا تكاد تختلف عما كانت عليه عندما بنيت منذ خمسة أو ستة قرون. وفي تلك المدينة الهادئة والجميلة، تجد كل ما يمكن أن تحتاج إليه من ضروريات وكماليات، المسارح ودور السينما والمطاعم والمكتبات... إلخ"⁽¹⁾.

الوصف والحوار معا

وصف الدكتور حسن الشافعي الشيخ ياسين الجندي

يصف الدكتور حسن الشافعي الشيخ ياسين الجندي⁽²⁾ ذلك الشيخ الوقور الذي كان يمشي إلى الأزهر الشريف يوميا، وقد تعرف عليه الدكتور، وأثنى الشيخ على والد الدكتور حسن الشافعي وحثه على الاجتهاد في الدروس والمثابرة في طريق العلم كما كان دأب والده. فيقول: "كنت كل يوم أرى في «حارة الكحكيين» شيخاً كبير السن هادئاً، أنيقاً على نحو

(1) رحيق العمر، ص 261.

(2) لم أعثر على ترجمة حياته.

لافت، يجمع أطراف ثيابه، ويتلو ورده، ساعيا نحو الأزهر، وشيء خفيّ يشدني إليه. وفي أحد الأيام كأنه لاحظ ارتياحي إلى طلعتة، ناداني بإشارة، فسرت نحوه، لكي يسألني:

- ما اسمك؟ فأجبتة كذا.

- من أي البلاد؟ من بني سويف.

- أي بلادها؟ مركز بيا.

- أي قرية في بيا؟ بني ماضي.

- هل تعرف الشيخ محمود عبد اللطيف؟

- وأجبت: إنه أبي.

انفجرت أسارير الرجل عن ابتسامة جميلة في وجه أبيض وسيم، تُزينه لحية خفيفة، ودعا لي وأوصاني بالانكباب على الدرس "كما كان أبوك"⁽¹⁾.

وصف الدكتور ما جرى له مع والده في عطلة العيد :

وقد وصف الدكتور حسن الشافعي ليلة شتوية خلال عطلة العيد «الكبير» بالقرية؛ "كنا قد آوينا إلى غرفة القرن طلباً للدفء، ويسألني أبي في حضور الأسرة كلها، عن أحوالي الدراسية، ثم يسألني أبي، ونحن في الغرفة الدافئة:

- وماذا أخذتم أخيراً من دروس؟

- دروس كثيرة في علوم متعددة: نحو وصرف وفقه وتجويد.

- في النحو مثلاً.

- آخرها فاء السببية [و] واو المعية.

- ما حكمهما أو تأثيرهما؟

(1) حياتي في حكاياتي، ص15.

- ينصب الفعل المضارع بأن مضمرة بعدهما، إذا سبقا بأحد تسعة أمور، وسردت الأمور التسعة التي يجمعها النظم:

مُرَّ وَاغُ وَأَنَّهُ وَسَلَّ وَاغْرَضَ لِحَضْهِمْ تَمَنَّ، وَارْحُ كَذَاكَ الْنَفْيِ قَدْ كَمَلَا⁽¹⁾
ومثلتُ لكل حالة من التسع، فشعر الجميع في غرفة الفرن بسعادة الأب، وأمله في ولده الناشئ، الذي يعيد إنتاج حياته هو الأزهرية بطعم جديد، وحسَّ علمي واعد⁽²⁾.

(¹) تقدم تخريج البيت، في ص 208.

(²) حباتي في حكاياتي، ص 16-17.

الفصل الثاني

أسلوب السخرية

مدخل:

السخرية أسلوب من أساليب النقد، وهي تعبر عن رأي معين للساخر أو نظرة خاصة له، أو إحساس خاص تجاه حالة أو ظاهرة، أو منظر لا يتفق مع الظواهر الطبيعية المألوفة في نظره. وإذا كانت السخرية تتناول فقط الجانب السليبي من الأمور لتسلط عليه أضواءها ولذعاتها فإن هذا يعني أنه تميز بين صورتين للظواهر؛ الصورة الطبيعية المقبولة، والصورة الشاذة التي تثير روح المقاومة، وبهذا تستكمل خصائص النقد وتزاحمه في مهمته⁽¹⁾.

تقدّم السخرية صورة هجائية عن الجوانب القبيحة والسلبية للحياة كما تصوّر معايب المجتمعات ومفاسدها وحقائقها المرة بإغراق شديد حيث تظهر تلك الحقائق المرة أكثر قبحا ومرارة، لتظهر خصائصها وميزاتها بشكل أكثر وضوحا، وليتجلّى التناقض العميق بين الوضع الموجود، والحياة الكريمة المرجوة⁽²⁾.

مفهوم السخرية ودلالاتها الأدبية: وفي المعجم اللغوي العربي ألفاظ كثيرة تأتي بمعنى السخرية، وتدل على الاستهزاء مثل: التهكم، والاستهزاء، والاستخفاف، والتندر، والضحك، والإهانة، والاحتقار كلها ألفاظ تدور حول معنى معين، لكن دلالتها على هذا المعنى ليست بدرجة واحدة، فالألفاظ الأربعة الأولى تفسر في المعاجم بمعنى واحد؛ وهو ما نسميه

(¹) انظر: السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري الدكتور نعمان محمد أمين طه، ط1، دار التوفيقية، القاهرة، 1978م، ص239

(²) انظر: السخرية؛ لغتها، أشكالها، ودوافعها للدكتور أبي القاسم رادفر، جامعة آزاد الإسلامية جيفرت. راجع الموقع على الشبكة العنكبوتية: ديوان العرب، مبر حر للثقافة والفكر والأدب. (اطلعت عليه بتاريخ: 2017/02/22م، السخرية/لغتها/ <https://www.diwanalarab.com/>)

"السخرية". أما بقية الألفاظ، مثل: التندر والضحك قد تستعمل بمعنى السخرية وغيرها، أما "الإهانة والاحتقار" فقد اكتسبتا دلالتيهما على السخرية من الاستعمال الغالب الذي شاع في كتب الأدب والنقد والبلاغة وغيرها⁽¹⁾.

وقد اخترت لفظ "السخرية" لأنها كما يبدو أقرب الألفاظ للدلالة على المعنى، ولكثرة دورها على ألسنة الأدباء والنقاد حتى صارت علما لا تجاه أدبي معروف يسمى بالاتجاه الساخر أو الأدب الساخر، وكثيرا ما يوصف شاعر أو أديب بأنه "شاعر ساخر"، أو "أديب ساخر"، ولو ذهبنا نعرف السخرية لوجدنا صعوبة كبيرة؛ لأن السخرية فن، والفنون أعمال نابضة بالحياة، لا يمكن تعريفها والإحاطة بها ببعض ألفاظ قاصرة، ثم إن السخرية انفعال، وأصعب الأشياء محاولة تعريف الانفعالات أو وصفها⁽²⁾.

يقول الدكتور حامد عبده الهوال: "وتثير السخرية بالكلام وطريقة تركيبه ضحكا أو ابتسامة، كما تثير ذلك بالألوان والصور والرسوم والحركات، وحين تسخر فإنما تصور وتنقد تصلبا شادا، أو ذهولا عن الحياة وما فيها من نظم وأساليب، أو تنافرا مع قوانين الطبيعة، وتبرزه بطريقة خاصة كاللعب بالألفاظ، أو المبالغة، أو المقارنة بين عامل ما ونتيجة له لم تكن

(¹) راجع المصطلحات المذكورة في: خزانة الأدب لابن حجة الحموي: ص 56، 98، ومعجم البلاغة العربية للدكتور ندوي طبانة، ط 3، (مزينة ومنقحة) دار المنارة - جدة، 1988م، ص 274، و 694، وأساليب السخرية في البلاغة العربية (دراسة تحليلية تطبيقية) رسالة ماجستير: شعيب بن أحمد الغزالي، في كلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، [نوقشت سنة] 1414هـ، ص 1.

(²) السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ص 13، وأساليب السخرية في البلاغة العربية، شعيب بن أحمد الغزالي، ص 8.

متوقعة أو غير ذلك، وحين نسخر بهذه الطريقة الفكاهة التي نجدها كثيرا عند المصريين، فإننا بذلك نرسم صورة مضحكة فيها لَدَع، وفيها تهكم شديد أو ضعيف"⁽¹⁾.

الشعب المصري شعب ساخر بطبعه، ومرح يحب الفكاهة، ويرسل النكتة في أخرج المواقف، وهذه قدرة طبيعية في هذا الشعب الذي عاصر الزمن في كل ظروفه. حقا أن لكل شعب من الشعوب فكاهاته ومواقفه الساخرة، وتحمل لنا الصحافة والمطبوعات الأجنبية الوافرة صورا ومواقف، يقوم فيها الرسم والكلمة والصورة الأدبية بدور نقدي ساخر له أغراضه الاجتماعية والسياسية وقد لا يخلو شعب أو قوم من ذلك لأنه انعكاس طبيعي للحياة على نفس الإنسان⁽²⁾.

نماذج من أسلوب السخرية لدى الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

1. بنت الشاطئ تسخر من بعض زملائها في الفصل:

نرى أن بنت الشاطئ تستخدم هذا الأسلوب في سيرتها الذاتية، ونلاحظ ذلك عندما تصف بعض زملائها الذين يدرسون معها في الجامعة بسخرية لاذعة، وذلك لأنهم لم يحصلوا على معرفة وثقافة مثل ما حصلت هي، وكانت عندهم مشكلة في القراءة، فمنهم يقرأ نصا على أستاذ في المحاضرة فيخطئ في أبسط الكلمات المتداولة، "وفيهم حقا من لا يعرف كيف يقرأ!"⁽³⁾، فلذلك كانت بنت الشاطئ تتحير منهم، وتتساءل في نفسها؛ كيف وصل هؤلاء إلى مرحلة الدراسة الجامعية؟ لكن هكذا يكون حال بعض التلاميذ في الفصول، وقد عرضت

⁽¹⁾ انظر: السخرية في أدب المازي للدكتور حامد عبده الموال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م، ص 18-19.

⁽²⁾ انظر: المصدر السابق : ص 175.

⁽³⁾ على الجسر بين الحياة والموت، ص 160.

لنا بنت الشاطي سخرتها منهم قائلة: "فيهم من ينطق العربية بلكنة أعجمية، وفيهم من يقع في حيص بيص، إذا ما سئل أن يكتب بضعة أسطر باللغة الفصحى!"⁽¹⁾. (2)

2. تذكر المؤلفة سخرية زملائها منها

جلست بنت الشاطي في أول محاضرة للأستاذ أمين الخولي، وكان من العادة أن يوزعوا المواضيع على طلابهم في المحاضرات الأولى في الفصول، لكي يقوم كل تلميذ بعمل منفرد وربما مبتكر، ويقدمه أمام زملائه وأستاذه في الفصل، وهكذا شرع الأستاذ أمين الخولي توزيع الموضوعات على تلاميذه، فكل طالب يختار مبحثا منها، يعده ويعرضه للمناقشة أمام الأستاذ في الوقت الذي يحدده، وفي بداية التوزيع تقول بنت الشاطي: "وبادرتُ فأعلنُ اختياري للمبحث الأول؛ في نزول القرآن"⁽³⁾. فضحك بعض التلاميذ من تسرعها. وقد سجلت ذلك في العبارة الآتية بـ "وعندئذ سرت في القاعة هممة"⁽⁴⁾ ساخرة من هذه المبادرة الحمقاء"⁽⁵⁾

نماذج من أسلوب السخرية لدى الدكتور جلال أمين

1. يسخر من الرئيس أنور السادات:

يتجلى أسلوب السخرية في كتابات الدكتور جلال أمين بوضوح، فإن من يقرأ في كتاباته يلاحظ سخرته من بعض الشخصيات الذين يتناولهم، وقد ينتمي بعض هذه

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 148.

(2) ولا شك أن أساس هذه المعرفة التي تتأهم بها وتفتخر، وترى نفسها أفضل من زملاء دراستها والدها الشيخ الذي اهتم بتعليمها وتربيتها في منزلها غير أنها حالت إرادته وخرحت من بيتها للدراسة دون إذن منه، وصورت هذا الوالد الذي أراد لها الأفضل بالمتزمت المنتدب الرجعي النظرة.

(3) المصدر السابق، ص 159.

(4) انظر: هم الرحل: تكلم كلاما حفيا يُسمع ولا يُفهم معراه، هممة: مصدر، (المعجم الوسيط: ص 995)

(5) على الجسر بين الحياة والموت، ص 159.

الشخصيات إلى مكانة مرموقة في البلاد فنراه مثلاً: يسخر من الرئيس أنور السادات عندما قام بتوقيع "اتفاقية السلام" مع إسرائيل في مارس 1979م، ويسخر أيضاً من أولئك الذين مجدوا هذه الاتفاقية أيما تمجيد وهللوا لها وطبلوا وزمروا لها، ويرى الدكتور جلال أمين أن كلمة "السلام" أصبحت فجأة من أكثر الكلمات تداولاً في مصر حينئذ. وأضحى رئيس الجمهورية الذي قام بتوقيع الاتفاقية يوصف بأنه "بطل السلام"، وأحياناً "بطل الحرب والسلام". وأعلن أن تُرعة جديدة ستشق لتوصيل مياه النيل إلى سيناء وأطلق عليها "ترعة السلام"، وشاع استخدام "السلام" كاسم للمحلات والمطاعم والفنادق الجديدة، حتى دخلت الكلمة إلى مجال التعليم أيضاً، ففي أسئلة امتحان الشهادة الابتدائية الذي يجلس فيه أكثر من 600 ألف تلميذ وتلميذة - عام 1980م - جاء ذكرها؛ كان الامتحان يحتوي على عشرة أسئلة، وكانت أربعة منها تتعلق بالسلام، فسؤال المحفوظات يبدأ بالعبرة الآتية: "أشرقت يا يوم السلام"، وسؤال النحو يطلب إعراب "رفرت راية السلام"، والفعل المضارع المطلوب استخراج من القطعة هو "يشيد العالم بحب مصر للسلام"، والموضوع المختار من موضوعات القراءة المقررة يتكلم عن استرداد مصر لقناتها "لثبت للعالم رغبتها في السلام". بل ولم يجد واضعو الامتحان في القرآن الكريم ما يطلب من التلاميذ شرحه إلا ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾⁽¹⁾، ولم يجدوا في السيرة النبوية إلا أن مولد النبي ﷺ كان يوم السلام⁽²⁾.

2. ويسخر المؤلف من الرئيس أنور السادات عندما كان يظهر على شاشة التلفزيون الوطني وهو يحتفل في مناسبات مختلفة، وفي كل مرة يرتدي ملابس جديدة ومتنوعة حسب المكان والموقف، كما يُخبرنا المؤلف: "كنا نشاهد صورته وهو يغير ملابسه بحسب المكان الذي

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

(2) انظر: ماذا علمتني الحياة: ص 293-294.

يوجد فيه أو المناسبة التي يحتفل بها، فهو مرة يرتدي زيا عسكريا يبدو فيه فخورا بما يزينه من نياشين وأوسمة، دون أن نعرف له تاريخا لأداء عسكري يستحق عليه مثل هذه النياشين والأوسمة⁽¹⁾.

"ومرة يرتدي العباءة ويحمل السبحة إذا كان في قريته "ميت أبو الكوم" خلال شهر رمضان، متظاهرا بالورع والتقوى"⁽²⁾.

"ومرة أخرى في بدلته الأوروبية الأنيقة التي تجعله يستحق، في نظر بعض المجلات الأمريكية، لقب "أشيك"⁽³⁾. وهو يُجري حديثا مع مذيعة تلفزيونية يتكلم فيه عن نفسه كلاما يثير النفور الشديد لكثرة ما يحتويه من فخر لا مبرر له بنفسه وتاريخه. فإذا سئل مرة عن أهم ما قرأه من كتب ذكر كتاب أبي «فيض الخاطر»، الذي يضم مقالات أبي في مختلف الموضوعات والتي سبق نشرها في مجلات غير أكاديمية. ويذكر اسم الكتاب خطأ فيسميه «خواطر»، ويقول أيضا لكي يدلل على سعة اطلاعه: إنه قرأ المراجع التي ذكرها أبي في نهاية كتاب «خواطر»، والكتاب بحكم طبيعته لا يذكر اسم أي مرجع على الإطلاق"⁽⁴⁾.

3. وقد يسخر المؤلف من بعض الاقتصاديين المشهورين في مصر، وذلك عندما حضروا مؤتمرا بالكويت ليلقوا بحوثهم فيه أو يشاركوا في مناقشات تجري أثناء جلسات المؤتمر. فيتحدث المؤلف عن عملهم في أيام المؤتمر قائلا: "تقتصر مساهمتهم خلال أيام المؤتمر على الهجوم على موائد الطعام، وخاصة أكثر الأطباق ندرة في مصر، كالجميري وسمك السالمون

(1) ماذا علمتني الحياة: ص 201.

(2) المصدر نفسه.

(3) أي أكثر الرجال أناقة.

(4) ماذا علمتني الحياة: ص 201-202.

المُدخّن، ثم لا تراهم في جلسات المؤتمر، ولكنك تراهم عائدين إلى فندقهم من السوق وفي يد كل منهم كل ما ثقل وزنه وارتفع ثمنه مما يندر أيضا وجوده في مصر من مأكولات"⁽¹⁾.

4. يسخر المؤلف من دولة الكويت والحياة فيها بطريقة هزلية، فقد قابل شخصا مصريا أمضى أكثر من عشرين عاما فيها، وأوشك على مغادرتها والعودة نهائيا لمصر، فكان رأيه في الحياة في الكويت بعد هذه الإقامة الطويلة والتجربة الكبيرة التي عاشها، هو: "الدخول إلى الكويت كدخول فأر صغير في زجاجة رأى بها قطعة كبيرة من الجبن، أسالت لعابه، وجرى إليها دون أن يفكر فيما إذا كان سيستطيع الخروج من الزجاجة بعد أن يلتهم قطعة الجبن!"⁽²⁾.

وأحيانا لا يسلم من سخريته أشد الناس قرباً منه فقد سخر من بعض عادات أمه، ووصفها بأنها كانت "بخيلة"، ويسخر من هذه العادة وهي موجودة في معظم مجتمعاتنا، لكن عندما يعرض لذلك يصوره بطريقة هزلية، يقول: "كان حصول أحد منا على بضعة قروش من أمي أشبه بمحاولة استخراج الماء من الصخر، فقد كانت دائما تتظاهر بأنها لا تملك قرشا واحدا، حتى يأتي تصريحها المفاجئ هذا، [بعد] كل بضعة سنوات؛ بأنها تعتزم شراء هذا البيت أو ذاك"⁽³⁾.

(¹) ماذا علمتني الحياة: ص 125.

(²) المصدر السابق: ص 239.

(³) المصدر السابق: ص 26.

5. يسخر المؤلف من بعض الأطباء:

أصيب الدكتور جلال أمين باكتئاب شديد ولبث فيه سنتين، ولم يكن من طبيعة المؤلف أن يذهب إلى الطبيب، لكنه هذه المرة ذهب إليه وفحصه الطبيب، وذكر المؤلف أنه التقى أطباء مشهورين في مصر وخارجها لكن لم يحاول أي من الأطباء الذين لجأ إليهم أن يعرفوا السبب، ولا مجرد محاولة، إذ اكتفوا، طبقاً للنظرية الحديثة في العلاج النفسي، بإعطائه الأدوية، ومع الأسف الشديد لم تكن لهذه الأدوية فائدة؛ لأنها في غير محلها⁽¹⁾. وقد مل من لقاءات الأطباء، وتناول الأدوية المختلفة، وسئم من حمل الملفات والوصفات الطبية وصور الأشعة السينية وغيرها.

وعندما شفي وزال عنه الاكتئاب شعر بأن الأطباء الذين ذهب إليهم لم يكونوا قد فهموا المرض أصلاً، فبدأ يسخر منهم: "خطر لي بعد زوال الاكتئاب خاطر أصابني بالفرع: هل من الجائز أن يكون كل هذا العذاب نتيجة سبب تافه لا علاقة له بكل ما ذكرت من أسباب؟"⁽²⁾، وأن كل الأطباء الذين قابلتهم طوال هذين العامين عجزوا عن اكتشافه لمجرد أن أحداً منهم لم يخطر بباله أن يسألني سؤالاً واحداً بسيطاً؟"⁽³⁾. وكأنه يستهزئ بهم وأنهم لا يتعبون أنفسهم حتى يسألوا المريض أسئلة يعرفون من خلالها أسباب ما يعانیه من الأمراض.

6. يسخر من ولع الجنود العراقيين بأجهزة الفيديو

يرى المؤلف منظراً شوهد أكثر من مرة على قناة "CNN" والتلفزيون المصري، وهو؛ أن الجنود العراقيين لا يهتمهم الحرب مثلما يهتمهم أجهزة الفيديو، فسيخر من ولعهم الشديد هذا

(1) انظر: ماذا علمتني الحياة، ص 343.

(2) رحيق العمر، ص 343.

(3) المصدر السابق، ص 353.

ويقول: "لَقَّت نظري وأنا أتابع أحداث غزو الكويت، كثرة تردد الإشارة إلى جهاز الفيديو في مناسبات مختلفة. فقد كان هذا الجهاز في ذلك الوقت (1990م) اختراعا جديدا يخلب اللب وتطمح إليه القلوب. ففي الأيام الأولى، تضمنت الأنباء إشارات متناثرة إلى أن الجنود العراقيين كانوا يستولون على أجهزة الفيديو التي يجدونها فيما يقتحمونه من بيوت. ثم دلت التقارير الواردة من الكويت والعراق، والتي تصف أحوال الهاربين من الكويت، على أن الشيء الذي يتكرر ظهوره في أمتعتهم هو جهاز الفيديو، وأنهم كانوا أحيانا يخبئونه في داخل أحشية السيارات لمنع وقوعه في أيدي الجنود العراقيين، وأن الجنود العراقيين الواقفين على الحدود كان أول ما يسألون عنه هؤلاء المتلهفين على عبور الحدود هو ما إذا كان هؤلاء الهاربون يحملون جهازا للفيديو. فإذا عبروا الحدود، كانوا كلما مروا بمدينة أو قرية عراقية استوقفهم الناس يعرضون عليهم شراء أجهزة الفيديو منهم؛ مقابل تقديم ما يحتاجونه من غذاء أو ماء"⁽¹⁾.

ويبدو أن تكرار هذه المشاهد التي تومئ إلى ولع الجنود العراقيين بأجهزة الفيديو أخذت تتراكم في عقل الكاتب الباطني حتى إنه كلما استسلم للنوم، كان يحلم أحلاما تدور كلها حول جهاز الفيديو ونكبة الكويت وأسبابها⁽²⁾.

7. يسخر المؤلف ممن يحصلون على «جائزة أحسن كتاب»

يتساءل الدكتور جلال أمين عن طريقة اختيار هؤلاء الفائزين لمنحهم «جائزة أحسن كتاب»، ويسخر من تلك الملابس التي لها دور كبير في اختيار الظافرين بهذه الجوائز، ويتحدث عن الإجراءات التي تتخذ لذلك.

(1) رحيق العمر، ص 361.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 362.

وقد كان المؤلف من ضمن أولئك الكتاب الذين تم اختيارهم لهذه الجائزة، وهي: «أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب»، وذلك عن كتابه المشهور: «ماذا حدث للمصريين»؛ فقد أخذ الكتاب شهرة واسعة في أوساط الأدباء الصحفيين، فيذكر الكتاب في التلفزيون الوطني صباحا ومساءً، وتغطي وسائل الإعلام هذا الخبر تغطية واسعة مفصلة لاقتراح رئيس الجمهورية بالأمر. فالجائزة - في رأيه - لا تزيد في الواقع على قيام رئيس الجمهورية بمصافحة الحاصل على الجائزة، ثم قيام وزير الثقافة في اليوم التالي بمصافحته مرة أخرى وتسليمه تمثالا صغيرا، ذهبي اللون، كتب عليه اسم الجائزة، واسم الحاصل عليها، واسم الكتاب الذي أعطى الجائزة من أجله⁽¹⁾.

ويذكرنا الدكتور جلال أمين أن هناك بعض الملابس المرتبطة بهذه الجائزة لا تبعث على الاغتراب على الإطلاق. أهمها وأسوأها أنه من بين عشر جوائز تعطى كل عام، تعطى الجائزة لنحو ستة أو سبعة كتب يمكن اعتبارها من أسوأ ما ظهر من كتب خلال العام. كتب لا يقرأها أحد، ولا يريد أحد أن يقرأها، ولكن مؤلفيها يحتلون مناصب كبيرة في ميدان الإعلام، كرئيس مجلس إدارة هذه الصحيفة الكبرى أو تلك، أو بعض المقربين جدًا من رئاسة الجمهورية، بل لقد شاع الاعتقاد أيضا أن هؤلاء الستة أو السبعة ليسوا مؤلفين حقيقيين لهذه الكتب؛ إذ إن انشغالهم بأعمال العلاقات العامة، يمنعهم من توفير الوقت اللازم للكتابة، فيكلفون بعض مساعديهم بكتابتها مقابل مزايا مالية معينة. شاع مثلا وصف أحد هؤلاء، ممن تعطى لهم هذه الجائزة في كل عام تقريبا، بأن «عدد كُتَّابه أكثر من عدد قرائه»، إذ يظهر له في الأسبوع الواحد، وأحيانا في اليوم الواحد، أكثر من مقال وأكثر من عمود في مختلف الموضوعات، من آخر التطورات الاقتصادية في الصين، إلى المعنى الحقيقي للحب ... إلخ.

(1) انظر رحيق العمر، ص 378.

ليس إذن، من المشرف أبداً أن يحصل المرء على جائزة "أحسن كتاب"؛ إذا حصل عليها أمثال هؤلاء في نفس الوقت⁽¹⁾.

ومن الملابس البغيضة - في نظره - في ما يتعلق بمنح هذه الجائزة، وإن كانت لا تخلو من طرافة، أن اللجنة التي تقرر أسماء الكتب الفائزة، لا تقرأ أصلاً أيّاً من هذه الكتب. فيُمنح الكتابُ الجائزة بناءً على اسم الكاتب، على النحو الذي بينه الدكتور جلال. أو بناءً على درجة إلحاح الناشر الذي يطمح إلى بعض الرواج لكتبه ونفوذه، ثم يضاف إلى هذه الكتب بعض الكتب التي يتمتع مؤلفوها بسمعة طيبة نسبياً بين جمهور المثقفين. وإعطاء هذه الجائزة لأمثالهم يحقق هدفين مهمين: الأول هو إضفاء بعض القيمة على تلك الكتب السيئة التي يعرف الجميع سبب حصولها على الجائزة، ومن ثمَّ الإمعان في تكريم أصحابها الذين لا يستحقون التكريم في الحقيقة. والسبب الثاني هو ألا يصبح أمر الجائزة برمته أضحوة لا تثير إلا السخرية. وبإضافة بعض الأسماء المقبولة، يصبح الأمر كله «معقولاً» بعض الشيء، وإن كان يخلق بلا شك بلبلة وحيرة لدى جمهور المثقفين والقراء، لا تختلف على أي حال عن البلبلة والحيرة التي تخلقها كثير من التصرفات الأخرى⁽²⁾.

نماذج من أسلوب السخرية لدى الدكتور حسن الشافعي

1. سخريته من مقولة الطبيب:

سجل الدكتور حسن الشافعي في سيرته الذاتية قصة مرضه وعلاجه في إحدى مستشفيات مصر، والطبيب الذي قام باستخراج حصاة من الحالب الأيمن من ذات الموضع الذي كانت فيه فتحة «المصران الأعور» (الرائدة الدودية)، وبعد العملية قال الطبيبُ للدكتور

(1) انظر: رحيق العمر، ص 380-381.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 181.

حسن الشافعي وهو يتندر أرجو منك الحفاظ على صحتك ومنظر بطنك حتى لا تواجه مشاكل من جديد. فسخر الدكتور حسن الشافعي من مقولة الطبيب قائلاً: "أعدك أنني لن أرقص". فانفجر الطبيب ضاحكاً⁽¹⁾.

2. تنذر المؤلف من سذاجة فلاحه مصرية ساذجة ذهبت لزيارة روضة النبي ﷺ.

يتندر الدكتور حسن الشافعي من قصة فلاحه مصرية ساذجة، ذكرها في حكاية بعنوان: «مناجاة العوام لمولاهم عز وجل»، ويسجل فيها شعور بعض الناس عندما يتصلون بربهم ويدعونه ويطلبون مغفرة من الله العزيز الغفار، ويتضرعون لله عز وجل، كل عبد بطريقته يدعوه، ثم يحكي لنا قصة فلاحه مصرية ساذجة ذهبت لزيارة الحرمين الشريفين، ويذكر أنها جلست تدعو أمام روضة النبي - ﷺ - في حرمة الشريف بالمدينة المنورة، وتحاول أن تُلصق صدرها بمشوى الحبيب، ولكنها تجد على رأسها من يمنعها، وربما تعنف في منعها خشية الابتداع، وهي لا تفهم في لغة محبتها معنى «البدعة» لما يردده الرجل مرارا وتكرارا، فاتجهت بقلبها إلى الحبيب، وإذا بها تقول: "لِمَ تصبر على هؤلاء، من أمثال هذا الحارس الجافي؟ ... تعال عندنا بمصر، وسوف نفرش لك المكان ونهيئ المزار ... ونجعل في نافذته البحرية نافذة للقلل نعطرها بماء الورد، ونغطيها بأغطية النحاس اللامعة ... دعك منهم وتعال إلينا، فإننا والله لأعرف بقدرك وحقوق زوارك من هؤلاء"⁽²⁾.

(1) انظر: حياتي في حكاياتي، ص 139.

(2) حياتي في حكاياتي، ص 89.

3. سخرية بعض الأولاد من منظر الدكتور حسن الشافعي، وهو يجري في ثيابه الأزهرية

يحكي الدكتور عن سخرية بعض الأولاد من منظره عندما حاول الهروب من رجال الأمن وعنون هذه الحكاية بـ: «الشيخ بيّجري» وذكر فيها قصة هروبه من رجال الأمن عندما اعتقلوه في عام 1954م - كما مر ذكرها في الباب الأول-، فيحكي أنه عندما غادر سيارة رجال الأمن هاربا باحثا عن ملجأ آمن يلجأ إليه، دخل حارة لكنه فوجئ بانسداده، يقول: "عدتُ مهرولا بشيبي الأزهرية، فلفت منظري صبيان الحارة، وتصايحوا «الشيخ بيّجري ... الشيخ بيّجري» وحاولوا أن يتبعوني، فتخلصت منهم لأعود إلى موقع الهرب من جديد، وأصطنع الوقار لأدخل حارة أخرى"⁽¹⁾. فاستخدم الدكتور نفس التعبير الذي استعمله صبيان الحارة «الشيخ بيّجري» للسخرية منه، ومن هيئته وهو يجري في ثيابه الأزهرية.

(¹) حياتي بي حكاياتي، ص51.

الفصل الثاني دلالات الزمان والمكان (الزمكانية)

مدخل:

لقد كان للمكان في حياة الإنسان قسمته الكبرى، وهو يلعب دوراً رئيساً في حياة أي إنسان، فمنذ أن يكون نطفة يتخذ من رحم الأم مكاناً، يمارس فيه تكوينه البيولوجي والحياتي، حتى إذا حان المخاض وخرج هذا الجنين ينسُم أول نسمة للوجود الخارجي، كان السهم هو المكان الذي تفتح فيه مداركه وتنمو فيه حواسه من بصر وشم وذوق وسمع ولمس. وتتلور الأبعاد المكانية للإنسان بصورة أوضح في البيت والمدرسة والقرية والمدينة، وقد يكون القبر هو المحطة الأخيرة⁽¹⁾.

ويُعرّف المكان (Space) بأنه: الحيز من الفضاء الذي تقع فيه المواقف والوقائع المختلفة، والذي تَحْدُث فيه اللحظة السردية. ويطلق البعض على المكان في النص السردى مصطلح الفضاء الجغرافي، باعتبار أن المؤلف يورد فيه عدداً من الإشارات الجغرافية التي تشكل تصوراً يمكن مُخَيِّلَةَ المتلقي من التحليق والوصول إلى مخطط منهجي للأمكنة، والتعرف على خصائصها وصفاتها⁽²⁾.

ومن الجدير بالذكر هنا أن السرد قد يتم بدون الإشارة إلى مكان الأحداث المروية، ومكان اللحظة السردية والعلاقة بينهما، إلا أن المكان في حال التأكيد عليه يمكن أن يلعب دوراً مهماً في السرد، وأن السمات أو الوصلات بين الأماكن يمكن أن تكون هامة، وتؤدي وظيفة موضوعية

(¹) انظر: جماليات المكان لأحمد طاهر حسنين، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1988م، ص5، (بتصرف بسيط).

(²) انظر: المكان في السيرة الذاتية - دراسة لعمر منبى إدلي، [مقال نشر على الشبكة بعنوان: متديات ستار تايمز] واطلعت عليه في 18 ديسمبر 2018م، (<https://www.startimes.com/?t=21066943>).

كوسيلة للتشخيص، ولا سيما في نصوص السيرة الذاتية، حيث يلعب المكان دوراً هاماً ومحورياً في تكوين مرجعيات الذات التي تحكي تجربتها، إضافة إلى دوره في جعل أحداث النص ومواقفه ووقائعه ممكنة الحدوث، وتشي بواقعيته وقربه من المعقول⁽¹⁾.

إن أهمية دراسة المكان في السيرة الذاتية تنبع من ضرورة الوصول إلى تحديد طبيعة الفضاء السردية فيها، لأن الفضاء أكثر شمولاً واتساعاً من المكان، فهو أمكنة الرواية كلها، إضافة إلى علاقاتها بالزمن والحوادث ومنظور الشخصيات.

ولو تأملنا طبيعة المكان في السيرة الذاتية بمعزل عن أساليب تقديمه، لوصلنا إلى نتيجة تؤكد أنه ليس مجرد ديكور للحدث وحسب، أو حتى بُعداً كنائياً للحدث أو الشخصية أو البيئة ... الخ، على نحو ما كان سائداً في الروايات التقليدية، بل بوسعنا التأكيد أن المكان أصبح يشكل رموزه التي تعيد تشكيل أدبية النص والرؤية فيه، وهذه الرموز ستؤسس ولاشك بنى جمالية خاصة بجنس السيرة الذاتية، مما يجعل المكان في هذا الجنس الأدبي "رمزاً لحياة البشر، يجسد الغربة والملل والضيق والمفارقة والعبور المؤقت، ويؤثر على مفهوم الزمن، فيعكس اضطرابه بين الديمومة واليوم، بين السطحي والعميق، وبين الوهم والحقيقة"⁽²⁾.

الزمكانية عند كتاب السيرة الذاتية

الأحداث في السيرة الذاتية تقع بالضرورة في مكان ما وتدور في زمن معين، وأطلق عليه النقاد مصطلح "الزمكانية"، فالزمكانية هي العلاقة التلازمية التي لا تنفصل بين الزمان والمكان، وفي هذا المصطلح الثنائي، الزمان يلعب الدور الأساسي، فهو الحركة التي تُحيي المكان،

(¹) انظر: المكان في السيرة الذاتية - دراسة لعمر منيب إدلبي، [مقال نشر على الشبكة بعنوان: متديات ستار تايمز] واطلعت عليه في 18 ديسمبر 2018م، (<https://www.startimes.com/?t=21066943>)

(²) مقاربات تطبقية في الأدب المقارن للدكتور ماجدة حمود، ط، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م. ص 42.

والذي يمنح الخلفية التي تدور فيها الأحداث، والتي تمنح العمل الأدبي ثراءها ودلالاتها. ووظيفة الزمكانية تختلف في الأعمال الأدبية المختلفة من حيث الحجم والسعة والإحاطة⁽¹⁾.

وهذا لا يعني أن المكان - أقل أهمية من الزمان لدى كتاب السيرة الذاتية - فهو إضافة إلى أنه يُغذي الزمان بالدلالات المتنوعة. ويقوم بدور أساسي أيضاً في إضفاء الدلالات المتوصلة إليها من علاقته على الأحداث من جهة والشخصيات من جهة أخرى، فهو أحد العناصر الأساسية لهذا الفن النثري (السيرة الذاتية) يؤازر أقرانه من العناصر الأخرى.

دلالة الزمكانية وإحياءاتها في السير الذاتية المختارة

البيت

البيت هو عالم الإنسان الأول وملعب صباه، والمهد الذي يترعرع فيه، والنافذة الأولى التي يطل منها على الكون من حوله، ومهما كبر الإنسان وانتقل من حيٍّ إلى حيٍّ ومن بلد إلى آخر لا تستطيع ذاكرته الفكاك من تلك الأشياء البسيطة التي مر بها في منزله الأول كما قال أبو تمام:

نَقْلُ فُؤَادِكَ حَيْثُ شَتَّ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَيَّسِ الْأَوَّلِ⁽²⁾
كَمْ مَنَزَلٍ فِي الْأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَيْنُهُ أَبَدًا لِأَوَّلِ مَنَزَلٍ

وقد لاحظت لدى كتابنا في مستهل سرد حوادث وقعت قبل زمن ولادتهم، أنهم يشيرون إلى هذا المنزل الأول الذي فتحوا فيه أعينهم ودرجوا فيه في طفولتهم. ونجد لديهم الحنين إلى هذا

(1) انظر: القصة والرواية للدكتورة عزيزة مريدن، ط1، دار الفكر دمشق، 1980م، ص31، ورواية الأرض بين القيمة وعلاقة الرمان والمكان: لأميه رتييد، [مقال نشر في مجلة] فصول، المجلد 5، العدد 4، يوليو - سبتمبر 1985م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص: 206.

(2) ديوان أبي تمام الطائي، (فسر ألفاظه اللغوية ووقف على طبعه): محي الدين الحياط، (طبع بمناظرة والترام): نَجْد جمال، طبع مرخصاً من نظارة المعارف، ص457، (بدون ذكر اسم الدار والتاريخ).

المنزل الأول في مختلف مراحل حياتهم. فكل من: الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، والدكتور جلال أمين، والدكتور شوقي ضيف، بدأوا سيرهم الذاتية بذكر حوادث تمت بصلة قوية إلى هذا المنزل الأول. أما الدكتور حسن الشافعي فقد اختلف عن هؤلاء الآخرين في هذا الجانب فهو لم يبدأ سيرته بذكر المراحل العمرية التي تبدأ بالولادة، وتنتهي بمرحلة الشيخوخة الأخيرة. وإنما سلك مسلكاً أقام فيه سيرته على الأحداث والحكايات المهمة التي حدثت في حياته، ومن هنا كان لعنوان الكتاب (حياتي في حكاياتي) مغزى يأخذ بيد القارئ إلى هذه السمة التي انفرد فيها عن الكتاب الآخرين. ومن هنا ليس غريباً أن نجد ذكر المنزل الأول والقرية التي ترعرع فيها من حين لآخر بصور متناثرة في حكايات حياته.

بدأت بنت الشاطئ سيرتها الذاتية بذكر منزل جديها الذي يقع مطلاً على نهر النيل، وتذكر ما يجاور هذا البيت العتيق الشامخ على حافة النيل، ويمتد الأفق أمامه، من جهتي الغرب والشمال، فسيحاً رخباً إلى غير مدى ...⁽¹⁾.

وتلتقط لنا صورة من داخل البيت، فتقول: إن به "قاعة كبرى لاستقبال الضيوف والتجار المتنقلين ما بين مصر والشام، تعلوها طبقات ثلاث، بينها أدوار مكشوفة، يقيم فيها معتقو الجد"⁽²⁾. وهكذا قدمت لنا بنت الشاطئ صورة من خارج البيت وصورة من داخله، وبذلك تكتمل صورة "المنزل" الخارجية والداخلية لدى بنت الشاطئ، يضاف إلى ذلك أن بنت الشاطئ لم تكتف بالوصف الجغرافي للمنزل، بل قدمت ما يسدّ شغف القارئ من أن أدواره المكشوفة كانت مخصصة لعتقاء الجد.

(¹) انظر: على الجسر بين الحياة والموت، ص 19-20.

(²) المصدر السابق، ص 20.

ونرى الدكتور حسن الشافعي يحنّ في أكثر من حكاية في سيرته الذاتية إلى تلك الشقة الصغيرة التي تقع شمالي لندن وقد قضى فيها فترة قصيرة من حياته لما كان مسافرا إلى بريطانيا للدراسة. وكان هذه الشقة تركت أثرا قويا في نفسه فلم تستطع الأيام أن تمحوه من ذاكرته، "كنت بعد وصولي إلى لندن للدراسة، ومعى زوجتي، والتحاقى بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن، سكنت شمالي هذه المدينة بمنطقة هيري، غير بعيد من مركزها حيث توجد الجامعة، مع أسرة مسلمة من أصول باكستانية في شارع يحمل اسم السياسي البريطاني، الذي نُكِنَ له نحن العرب مشاعر الكراهية، لموقفه العدائي الظالم لنا في قضية فلسطين، إنه مستر بالفور (Balfour) صاحب الوعد المشؤم"⁽¹⁾. ومن الملاحظ في العبارة: أن الدكتور حسن الشافعي؛ دأب على سنة كُتاب السيرة الذاتية في وصف المكان الذي حل به في مدينة لندن مشيرا إلى بعض معالمه التي تجسد الشكل الجغرافي للمنطقة المحيطة به.

أراد الدكتور حسن الشافعي إنجاز القرآن بعد فترة الخطبة، وليس في جيبه المبلغ المطلوب كمقدم صداق ... وكان الدكتور علي عشري - وهو من أقرب أصدقاء الدكتور حسن الشافعي - قد استطاع أن يجد من يمكن أن يقترض منه المطلوب، وهو صديقه الدكتور محمود شرف الدين⁽²⁾ وكان قد عُيِّن معيدا بالجامعة الأمريكية، وذهب الدكتور حسن الشافعي إليه في ظهر ذلك اليوم بالجامعة ... وأعطاه الدكتور محمود شرف الدين مفتاح شقته، وأخبره بعنوانها، وقال له: "إن لدي واجبات هنا في الجامعة لا يسعني التخلف عنها، وخذ ... هذا مفتاح الشقة، رقم كذا بشارع يوسف الصديق بشبرا، وهذا مفتاح المكتب، اذهب وستجد في الدرج الثاني ما

(1) حياتي في حكاياتي، ص 37.

(2) الأستاذ الكبير والعالم الجليل، والعميد الأسبق؛ لكلية اللغة العربية بالجامعة الإسلامية العالمية، بإسلام آباد.

تريد، خذ المبلغ، ورُدَّ إليّ المفاتيح". وقد عبر الدكتور حسن عن ما حدث له في ذلك اليوم فقال: «وكنت خبيراً بشبرا؛ أحيائها وشوارعها وأزقتها منذ الخمسينيات، فذهبت إلى شارع يوسف الصديق، وصعدت سلم العمارة إلى الدور الثالث، إلى الشمال، فأخرجت مفتاح الشقة، كأني أحد السكان، ودخلت وأنا الغريب إلى ردهتها، ومنها ولجْتُ إلى غرفة المكتب، فأدخلت المفتاح في قفل الدرج فانفتح عن ... "رُزْم" من العملات النقدية المصرية، وبمختلف القيم، من الجنيه إلى العشرة إلى المائة ... كان المنظر غريباً بالنسبة لي ... ولكن ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾⁽¹⁾، وأخذت المائتي جنيه فقط، وأعدت الدرج مغلقاً كما كان، ووضعت المبلغ في جيبي، والمفاتيح في الجيب الآخر، وفي أقل من ساعتين، عدتُ إلى الدكتور محمود في الجامعة الأمريكية وأسلمته المفاتيح شاكراً، وتسلمها مبتسماً هادئاً داعياً لي بالتسام على خير»⁽²⁾.

فمن كلام الدكتور حسن نفهم الحكاية من خلال تقديمه لمنظر العمارة من أطرافها المختلفة والمنطقة التي تقع فيها، والعمارة من داخلها، وما حولها من أزقة، ثم يقدم لنا مشهد الشقة - التي يقطنها الأستاذ الدكتور محمود شرف الدين وإخوته - وردهتها وغرفة المكتب والمكتب وما فيه من منظر النقود بحزمها المتنوعة التي تزين للإنسان بفطرته الإنسانية الضعيفة أن يختلسها، ويجد لهذا الاختلاس تأويلات مشروعة أو غير مشروعة، إلا أن الله كان قد وهب الدكتور نفساً أبيّةً وضميراً حياً يقظاً أملّى عليه آية من سورة النجم؛ ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾، وهذه إحدى سمات الشافعي في سيرته الذاتية حيث يستشهد بالآيات القرآنية ليوظفها أثناء الحكايات العديدة من حياته. ومما لا يخفى على القارئ أن الشافعي جمع في العبارة السابقة

(1) سورة الحم: 17.

(2) حياتي في حكاياتي، ص 155.

بين ذكر المكان (الجامعة وحي شبرا والشقة والزقاق والردهة والسلم والعمارة والحجرة ودرج المكتب) والزمان (اليوم، الساعتين، الفترة) إلا أن وصفه للمكان بأنواعه الصغيرة والكبيرة فاق قرينه الزماني، وذلك راجع إلى طبيعة الحادثة التي تحدث عنها.

ويقدم لنا الدكتور شوقي ضيف صورة مدينة دمياط، "وكانت دمياط عالما جديدا للصبي بدكاينها وحوانيتها التي كانت تضاء في المساء بمصابيح الكهرباء، وكان منظر أضوائها يبهج نفسه ببهجة كبيرة، وسكنت أسرة الصبي في دار من بابها لم يسكن معهم فيها أحد، ولفته⁽¹⁾ فيها مصابيح الكهرباء المدلاة من السقوف كما لفته الماء ينزل من مواسيره صافيا خاليا من أي كُدرة، وكان الصبي ينام في غرفة منفردا وحده"⁽²⁾. وكأنه في هذه العبارة يعقد مقارنة بين القرى المصرية المترسخة في مخيلة الصبي وبين مدينة دمياط المتحضرة المضاء بمصابيحها، ولذا نراه يركز على ذكر معالم المدينة التي تنفرد فيها عن المعالم القروية فها هي ذي الدكاكين والحيوانات وها هي ذي الأنوار المبهجة في الليلة المظلمة وها هي ذي المواسير الناقلة للمياه الصافية، وكأنها معالم أخذت بمجامع قلب الصبي لينبهر بها ويراهها أمراً محدثاً لا يحدث مثله إلا في المدن والخواضر.

ويذكر الدكتور جلال أمين بيته حينما كان صغيراً، ويقوم بوصف بيته بعد ستين عاماً، عندما يستعيد في مخيلته ما كان عليه المنزل وهو مازال طفلاً صغيراً، يقول: "ليس فقط خلو المنزل من أي مسحة من الجمال، ولكن كيف أن أحداً منا، لا أبي ولا أمي ولا أنا ولا أحد من

(¹) كذا في الأصل، وراجعت الكلمة أكثر من مرة. (انظر: معي ص 49).

(²) المصدر نفسه.

إخوتي، كان يلاحظ وقتها هذا الافتقاد إلى الجمال، أو يعلق أهمية على ذلك لو كان قد لاحظته"⁽¹⁾. فيغضب الدكتور جلال أمين حينما يستعيد ذكريات طفولته، ويتتقد أباه بأنه رجل واسع الثقافة، بل هو كاتب وأديب يميز الجمال ويقدره في أشياء أخرى كثيرة. فلماذا لا يلاحظه في البيت وطريقة تأثيثه؟ ربما كان الأمر يحتاج إلى تقدير لنوع معين من الجمال الذي يتوافر للفنون التشكيلية إلى التدريب على إدراك الجمال في اتساق الألوان والخطوط، وهو ما لم يتلقه أبوه أو أمه قط لا من المدرسة ولا من خارجها"⁽²⁾.

ويُظهر إعجابه بالنموذج الشائع للبناء الذي يكون عادة ما في منزل من منازل الطبقة الوسطى في مصر، وهو صالة واسعة كانوا يسمونها "الفسحة" أو "الصالة"، التي كانت تخرج منها من كل ناحية أبواب تُؤدي إلى حجرة أو إلى مطبخ أو حمام. هذه الصالة أو الفسحة كانت تستخدم في الأساس لوضع مائدة الطعام التي كانت توضع عادة في الوسط بالضبط. ويصف المؤلف حالة هذه القاعة، قائلاً: "لم تكن نعرف شيئاً اسمه حجرة الطعام، بل حتى حجرة الجلوس أو الاستقبال، كانت في العادة حجرة مغلقة لا تفتح إلا في المناسبات، فلا عجب أنها كانت تسمى "حجرة المسافرين"، إذ إنها لم تكن في الأصل تفتح إلا لاستقبال الآتين من سفر طويل"⁽³⁾. فالدكتور جلال أمين في هذه العبارة يجمع بين ذكريات الثقافة القديمة وما آلت إليه الحال في الأزمنة الراهنة، ففي القديم كانت الثقافة المصرية تعتبر من جمال الهندسة في البيت أن تكون به غرفة مخصصة للضيوف والمسافرين، وكانت تسمى باسم "حجرة المسافرين"، ومن

(1) ماذا علمني الحياة، ص 41.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 42.

(3) المصدر السابق، ص 43.

العجيب أنها لم تكن تفتح إلا لهم، أو في مناسبة كبيرة للعائلة. وفي العصر الحديث نهجت الثقافة في الجمال الهندسي نهجا جديدا ينص على ترك الصالة الواسعة داخل البيت يجتمع فيها الأهل من حين لآخر في المناسبات وغيرها.

ويقول أيضًا: "كانت الملامح الأساسية لهذا البيت، الذي عشنا فيه طوال الثلاثينات ومعظم الأربعينات، تتكرر بحذافيرها في معظم بيوت أقاربي وأصدقائي ومعارفي، حجرات وشرفات واسعة، وأسقف مرتفعة في منزل يندر أن يزيد ارتفاعه على ثلاثة أدوار، لم يكن إذن هناك ما يحول دون وصول الهواء أو أشعة الشمس، كما كان هناك دائما متسع للأطفال للعب والجري، سواء داخل البيت أو في حديقة صغيرة حول البيت، أو في الشارع...."⁽¹⁾. وبهذه العبارة ينقل لنا صورة تكاد تكون موضع اتفاق بين أهل مصر كلها من أهل الطبقة الوسطى، وهي: أن تكون الحجرات والشرفات واسعة والأسقف مرتفعة، والأدوار ثلاثة أو دونها إضافة إلى منطقة مخصصة للأطفال وألعابهم، وهي عادة ما تكون مفتوحة من فوقها لتتقبل أشعة الشمس ونسيمات الرياح ورذاذ الأمطار وبذلك يرسم الدكتور جلال هندسة البيوت الداخلية لأهل مصر من الطبقة الوسطى.

ثم ينتقل الدكتور جلال إلى وصف "حجرة السرير" فيستغرب من تسميتها بهذا الاسم وينقل في وصفه أن هذه الحجرة كانت هي المسيطرة على الحجرات الأخرى في البيت أو محتوية على أسرة إضافية وكأنها الحجرة الرئيسية في البيت. ولذلك كانت مخصصة للأب ونومه. ومن ثم كانت تكتسب الهيبة والرغبة في كل ما يتعلق بها، وهنا يتساءل الدكتور جلال معترضاً؛ هل

(¹) ماذا علمتني الحياة، ص 41.

السبب هو أن حجرة أبيه كان بها أفخم سرير، أم هو أهم سرير؟ ويقول عن السرير ووصفه فيقول: "كنتُ إذا مددت يدي لألمس الملاءة المفروشة على هذا السرير شعرت بأنها من نوع مختلف تماما عن أي ملاءة أخرى بالمنزل: ناعمة الملمس كالحرير، وزيادة برودة منعشة في عز الصيف. لا أذكر أني رأيت أُمي قط على هذا السرير أو حتى بالقرب منه، وإنما كنت أعتبر أن سريرها هو نفس السرير الذي أنام عليه"⁽¹⁾. وهو تعبير كان معروفا عندئذ ومعناه: النوم في نفس السرير الذي ينام عليه شخص آخر ولكن في اتجاه معكوس، ومن ثم كان هناك دائما خطر يتعرض له كلا النائمين وهو أن يصطدم وجه أحدهما بقدمي الشخص النائم في الاتجاه الآخر. ثم يصف هيئة هذا السرير، ويقدم لنا صورة الحجرة، ويسميتها باسم "حجرتنا"، وكان هذا السرير ذو الاتجاهات المعددة⁽²⁾.

ويسترسل الدكتور جلال أمين فيحدث عن وصف بقعة اشتراها والده في المعادي وبنى عليها بيوتا فاخرة، فضل بناءها على جزء من الأرض على نحو لا يقلل من القيمة التجارية لبقية الأرض، ثم ملأ الفيلا بقطع الأثاث التي يمكن أن تزيد قيمتها مع الوقت، فأصبح بيته مخزنا هائلا للتحف الثمينة. لم تكن زيارته في هذا البيت مهمة سهلة، فباب الحديقة باب حديدي شديد الارتفاع مقيد بالسلاسل التي تحتاج لمن يأتي من داخل البيت لفكها، وتحرسه أربعة من الكلاب المخيفة التي تهب مستعدة لالتهامك بمجرد اقترابك من الباب، حتى يصيح فيها أحد الخدم لتهدئتها وليخفف من روعك. فإذا دخلت البيت راعك ظلامه الشديد حتى لو كانت الشمس ساطعة في الخارج، إذ وضعت ستائر ثقيلة على النوافذ لحماية الأثاث الثمين من الشمس. وفي

(1) ماذا علمتني الحياة، ص 43.

(2) انظر: المصدر السابق، ص 44.

طريقك إلى حجرة الجلوس يمكنك أن تلمح التحف الثمينة متراسة يمينا ويسارا، ولكن الخادمة تقودك إلى حجرة مفروشة فرشاً بسيطاً للغاية لا يحتوي من الأثاث إلا ما قلّ ثمنه بحيث لا يبالي أصحاب البيت بما يحدث له⁽¹⁾. ومن الملاحظ في هذه العبارة أن الدكتور جلال ينقل لنا صورة داخلية لهذه القطعة بهندستها التفصيلية إضافة إلى ذكر ما يحيط بها من المعالم الخارجية وما في داخلها من الأثاث والأغراض الثمينة التي تزيد قيمتها كلما تقدم عهد ومر زمان.

المدرسة: المدرسة هي مؤسسة تعليمية يتعلم فيها التلاميذ الدروس بمختلف العلوم، وتكون الدراسة بها عدة مراحل وهي الابتدائية والمتوسطة أو الإعدادية والثانوية وتسمى بالدراسة الأولية الإلزامية في كثير من الدول. وتنقسم المدارس إلى مدارس حكومية ومدارس خاصة ومدارس أهلية. تلتزم الكثير من المدارس حول العالم بزي موحد لمنع التفرقة الطبقية وللحفاظ على هيئة التلاميذ وحسن انضباطهم وتمييزهم عن طلاب المدارس الأخرى⁽²⁾.

تتحدث بنت الشاطئ عن التحاقها بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات بدمياط؛ "وأذكر الحجرة الدراسية التي دخلتها في نهاية الجناح الشرقي للمبنى الفخم. بل مازلت أتذكر كذلك المقعد الإضافي الذي جيء به فوضع لي أمام المقعد الأخير من الصف الأول، حيث جلست أؤدي امتحان النقل إلى السنة الثانية مع تلميذات السنة الأولى، ولم يكن قد مضى على دخولي المدرسة سوى الدقائق المعدودات التي استغرقها طريقي من مكتب حضرة الناظرة إلى حجرة السنة الأولى، عبر فناء المدرسة الرحب النظيف، والممر الممتد أمام الجناح الشرقي الذي يقع في

(1) انظر: ماذا علمني الحياة، ص 50-51.

(2) انظر: أصول الفكر التربوي في الإسلام للدكتور عاصم محبوب، دار ابن كثير - بيروت، (ب.ت) ص 273.

نهايته"⁽¹⁾. ومن الواضح في هذه الفقرة أن بنت الشاطئ كانت دقيقة في نقل التفاصيل الدقيقة بقضية ما أو مكان ما، ومن ثم اهتمت بإيراد اللحظات التفصيلية لالتحاقها بالمدرسة المذكورة. ومن ثم لم يكن من الغريب أن تتذكر الحجرة الدراسية بتفاصيل المحيطة بها والمقعد الإضافي وموضعه من الصف الأول وحساب الدقائق المعدودات مروراً بذكر فناء المدرسة وانتهاءً بالممر الممتد أمام الجناح الشرقي. ولعل هذا الاهتمام بذكر التفاصيل الدقيقة للأوصاف هو الذي هدى بها إلى أن تركز على التفاصيل الجزئية للأحداث والأماكن كما هو واضح من الفقرة التالية: "ما بين مقعدي في مدرسة اللوزي الأميرية للبنات بدمياط، بجوار النافذة الغربية، في نهاية الصف الأول من حجرة الدراسة للفرقة الثالثة، وبين مكان لي في الجامعة، كان حينذاك مطويا في مجهول الغيب"⁽²⁾. وأوردت بنت الشاطئ في سيرتها الذاتية حديثاً عن حجرة الدراسة ومقعدها الذي كانت تجلس عليه، فتقول: "غير أنني عندما أويت ليلتها إلى فراشي، رأيتني في المنام جالسة في مقعدي بحجرة الدراسة، وإذا بملاك مُجَنِّح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة لمكاني، ويعطيني لفافة خضراء ثم يحلق عالياً في السماء، ولما فتحت اللفافة، وجدت فيها مصحفاً شريفاً لم تكن عيني قد وقعت من قبل على مثله فخامة وبهاء"⁽³⁾.

وهذه الفقرة وإن لم تكن مخصصة للمدرسة إلا أن حديثها عن المدرسة هو المحور الأساسي الذي تدور حوله العبارات الأخرى. وذلك أنها اعتبرت حجرة الدراسة هي مهبط الملاك الذي يسلمها مصحفاً يتسم بالفخامة والبهاء، وكأنها بلسان حالها تقول للقراء إن حجرة

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 46.

(2) المصدر السابق، ص 49.

(3) المصدر السابق، ص 50.

الدراسة في المدرسة هي أول مكان مقدس ربطني بكتاب الله العزيز. ذلك الكتاب الذي خصصت له جزءا كبيرا من حياتها.

وهكذا ترتسم صورة الزمكانية في كتابات الدكتورة بنت الشاطي في معرض حديثها عن المدرسة ومبناها الشامخ حيث إنها تشير إلى عدد من معالم هذه المدرسة المكانية كما أنها لا تنسى أن تذكر عددا من صيغ الزمان وهي تحدثنا عن اللحظات التي قضتها في ربوع تلك المدرسة، فتقول: "كان مبنى المدرسة قصرا شامخا يقوم في أقصى الطرف الجنوبي لحلوان، وسط حديقة واسعة تفصل مبنى المدرسة عن الخلاء المُقفر الممتد وراءها إلى نهاية مد البصر... وقد طاب لي أن أسرح في الحديقة ساعات الصباح والمساء، متطلعة بوجداني إلى بلدي البعيدة وشاطيء المهجور، وأهلي النائين. وأنست إلى وحدتي، حيث كنت أقيم في جناح الداخلية، بعيدا عن الجناح المخصص للسيدة الناظرة ومعاوناتها من هيئة الإدارة والتدريس..."⁽¹⁾. ومن الواضح أنها تحاول أن تربط ذكرياتها الماضية داخل هذه المدرسة بالزمكانية المتمثلة في المعالم الزمانية والمكانية وذلك عن طريق سرد بعض الأحداث بضمير المتكلم (أسرح، بلدي، وجداني، أنست) وغيرها من الكلمات التي تحمل عددا من الأبعاد الدلالية الصادرة عن نفس علقت بذاكرتها عدة من ذكريات الأيام الخوالي.

المسجد

المسجد هو مكان العبادة الجماعية وصلاة الجماعة التي يحسن بالمسلم أن يحرص عليها، ويعتبر المسجد بيتا من بيوت الله سبحانه وتعالى على الأرض، لذلك جاءت الشريعة الإسلامية

(1) على الجسر بين الحياة والموت، ص 64.

لتولي المساجد اهتماماً خاصاً، كما ندب النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين إلى بناء بيوت الله بقوله: « وإني سمعت النبي ﷺ يقول: "من بنى مسجداً - قال بكير: حسبته أنه قال: يتغني به وجه الله - بنى الله له مثله في الجنة" ⁽¹⁾»، وقد كان أول عمل فعله النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة النبوية المشرفة أن يبني المسجد حتى يصلي فيه الناس، وهذا يدل على أهمية المساجد في الإسلام وأهمية الدور الذي تقوم به، يؤمر المسلم باحترام المساجد باعتبارها مكان عبادة فلا يرفث فيها ولا يفسق ولا يرفع صوته ولا ينشغل فيها باللهو، وينبغي على المسلمين تجنب مساجدهم مجانينهم وصغارهم ممن لا يعقلون أو لم يبلغوا الدرجة التي يعقلون بها حتى يبقى للمسجد احترامه وهيبته، كما نهى الإسلام عن المبالغة في زخرفة المساجد وتزيينها، وإن أهمية المساجد في الإسلام لا تقتصر على كونها أماكن عبادة وصلاة وإنما تتعدّد وظائف المسجد في الإسلام. فالمسجد في الإسلام من أهم الأسس التي تقوم عليها تربية الفرد وبناء المجتمع، ويمكننا أن نحدد المهام التربوية الوظيفية للمسجد من خلال القرآن والسنة ⁽²⁾.

ومن خلال القراءة في السير الذاتية للكتاب توصلت إلى أن الدكتور حسن الشافعي قد انفرد عن غيره من الكتاب بالحديث عن المسجد وذلك راجع إلى طبيعة حقبة زمنية عاشها إماماً وخطيباً بمسجد الفتح بعابدين، ذلك المسجد الذي يصف بأنه: "مبني على نمط مصغر لمسجد السلطان محمد الفاتح باستانبول" ⁽³⁾. ويطيب له أن ينقل لنا بعض حكاياته وتجاربه التي عاشها

(1) أخرج الإمام البخاري في صحيحه، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب الصلوة، باب من بنى مسجداً 97/1، رقم الحديث: 450، ط1، دار طوق النجاة، 1422هـ.

(2) أصول الفكر التربوي في الإسلام للدكتور عباس محمود، ص 261.

(3) حياتي في حكاياتي، ص 191.

خلال الإمامة بهذا المسجد، وذلك بعرض مجموعة من الفقرات والعبارات التي تشتمل على الزمكانية، مرة يصف الطرق والأزقة المؤدية إلى المسجد لينتهي إلى ذكر المعالم الخارجية لهذا المسجد، قائلا: "... وبعد أن خرجنا من باب المسجد بعد صلاة العشاء، لتتجه في شارع مسجد عابدين نحو شارع الشيخ ربحان، حيث يوجد باب في الركن الجنوبي الشرقي من القصر العتيد - أما الجانب الشمالي فهو المعروف لدى العامة بباب باريس، لأن فيه أحد أبواب القصر بُني على نمط الشانزلزية⁽¹⁾""⁽²⁾. ومرة أخرى يذكر المعالم الداخلية: "دخلنا من الباب، إلى حديقة قصر عابدين، فوجدنا فيها بين النور والظلام، الأستاذ "صلاح البنا" - الذي كان مسئولاً عن النشاط الرياضي بالمحافظة - ومعه عمال من بينهم من يقود محراثاً ينظف به أرض الحديقة من الحشائش"⁽³⁾. وما تربطه بها من الحكايات التي وقعت في ربوعها الداخلية وهو في كل ذلك لا ينسى أن يثني حديثه عن المكان تحديده عن الزمان وساعاته العديدة التي تحمل عددا من الحكايات الصغيرة الحاملة لعدد من التجارب الشخصية وعدد آخر من التجارب الاجتماعية التي يشاركه فيها المصلون والمقتدون والمحبون للدكتور حسن الشافعي.

(¹) شارع الشانزليرية في باريس، بتصدر قائمة أجمل السوارع في العالم، فهو الشريان الرئيسي لعاصمة المور باريس، يربط بين معلم قوس النصر الشهير وساحة كوكورد، وبالرغم من التغييرات التي طرأت عليه إلا أنه مازال يحفظ بخايبته وأصالته. يقع شارع الشانزليرية في الدائرة الثامنة في باريس، ويمتد بطول 1.9 كم شمال غرب مدينة باريس، وعرضه حوالي 70 متراً. (اطلع عليه تاريخ: 2018/02/22م، شانزلرية/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/شانزلرية>)

(²) حياي في حكاياتي، ص 191-192.

(³) المصدر السابق، ص 192.

في ميدان التحرير

ميدان التحرير أكبر ميادين القاهرة كان اسمه "ميدان الإسماعيلية" نسبة إلى الخديوي⁽¹⁾ إسماعيل⁽²⁾، والذي كان مغرماً بالعمارة والتخطيط الفرنسي للمدن، فبدأ بإنشائه على غرار "ميدان الشانزلزية" عام 1865 م. وتركز تخطيطه في أن يصبح ميدان الإسماعيلية المركز الثقافي والسياسي للمدينة. ثم تغيير الاسم إلى "ميدان التحرير" نسبة إلى التحرير من الاستعمار في ثورة 1919 م، ثم ترسخ الاسم رسمياً في 23 ثورة يوليو سنة 1952 م. وما يجاور هذا الميدان؛ المتحف المصري والجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومقر جامعة الدول العربية ومجمع المصالح الحكومية المعروف بـ "مجمع التحرير"، وأخذ الشهرة أكثر بعد أحداث ثورة 25 يناير 2011 م وتجمع الثائرين فيه⁽³⁾. ومن الأماكن تخلد ذكر في ذاكرة حسن الشافعي وميدان التحرير، وذلك لأن عدداً من حكاياته في حياته تربطه بهذا الميدان الذي يقول فيه: "وأمام قهوة (زد Z)، وفي مواجهة تمثال عمر

(1) خديوي أو خديو؛ كلمة فارسية، معناها: الملك والوزير، وهو لقب احتص به ولاية مصر العثمانية دون غيرهم من ولاية الدولة العثمانية منذ عام 1866 م حتى إعلان السلطنة المصرية في أعقاب فرض الحماية البريطانية على مصر عام 1914 م. (اطلع عليه بتاريخ 19 يناير 2019 م: <https://www.marefa.org/>)

(2) هو الخديوي إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي الكبير: ولد في القاهرة سنة 1830 م، وتعلم بما ثم في فرنسا وهو أول من أطلق عليه لقب "الخديوية" من رجال أسرته، كان مولعاً بالهندسة والرسم والتخطيط في طفولته، فأنجبه إلى تنظيم المدن وإنشائها، وفي أيامه أوصلت أسلاك البرق وسكك الحديد إلى بلاد السودان، وأقيمت المنارات في البحر الأحمر وبيت مدينة الإسماعيلية، وأسست المتحف المصري والمكتبة الخديوية، وتم حفر "ترعة السويس" وكان مسرفاً في الإنفاق على ملاده وعلى مشروعاته. فوصلت الديون الخارجية نحو مئة مليون جنيه. وأنشأ حكومة دستورية، وفصل عن العرش عندما طلبت حكومتا إنجلترا وفرنسا من حكومة الأسانة عزله، فعزل سنة 1879 م، وقضى بقية أيامه في أوروبا وتركها إلى أن توفي في الأسانة عام 1895 م. ونقل جثمانه إلى القاهرة. (تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863 إلى سنة 1879 م لإلياس الأيوبي، ط2، مكتبة مدبولي - القاهرة، 1996 م، 8/2 وما بعدها، والأعلام، 308/1)

(3) انظر: حياتي في حكاياتي، 192

مكرم، يوجد مبنى المتحف المصري، وعلى شملها شارع الشهداء، محمد محمود سابقا ومبنى الجامعة الأمريكية، وعلى اليمين شارعا التحرير وطلعت حرب، هو مكانٌ قادي إليه الشباب المنظمون، دون تفتيش لثيابي الفضفاضة الشفافة، بعمامتي البيضاء الأزهرية، وكانوا يفتشون الداخلين في لطف وأدب. وهو مكان تعودت أن أذهب إليه قديما - وأنا من سكان شارع الفلكي - لأجري اتصالا تليفونيا، حين لم أكن أملك جهاز التليفون، أو أشرب فنجانا من القهوة بعيدا عن قهوة بعيدا عن قهوة الناصية، التي تحتلها "البيتزا" الأمريكية الآن، وكانت حينذاك مكانا مشبوها، فانتقلت من مشبوه إلى مشبوه... والله عاقبة الأمور"⁽¹⁾.

وكأن الدكتور حسن في هذا الوصف يقترب من عالم الجغرافية المشغول بذكر الحدود الجغرافية للأماكن ومعالمها الواضحة وبيان ما لها من الأوصاف الجلية، وهنا تغلب صورة المكان على صورة الزمان فهي تأخذ حيزا كبيرا من اهتمام الدكتور حسن الشافعي مقارنة بقرينه الزماني. ولا ينسى الكاتب هنا كعادة كتاب السيرة عموما أن يربط حديثه عن نفسه المتسمة بعدد من السمات الظاهرية لهذا المكان وما تحدث فيه من الأحداث الساخنة، نتيجة الثورة العرمة من قبل الشعب ضد المعسكر وقادته.

وهذا النص كما هو واضح غلب عليه الوصف التفصيلي لهذا الميدان وما حوله من المعالم الرئيسية، إضافة إلى الوصف الدقيق لشخصيته ولحظات دخوله إلى هذا الميدان وما كانت تحدث

(1) حياتي في حكاياتي، 192.

فيه من الأحداث الساخنة آنذاك. منتهيا منها إلى تعليق تجاه المَعْلَم الآخر في هذا الميدان حيث يقول عنه: " ... فانتَقَلت من مشبوه إلى مشبوه ... والله عاقبة الأمور"^(١).

سطح البيت في الليلة القمرية

يصف الدكتور شوقي ضيف منظر السطح في الليلة القمرية، كانت أم شوقي ترتب السطح للنوم في الليل، كما كانت العادة في ذلك الزمان، فكل أسرة تنام على السطح، وتكون الجهة مخصصة للجدين والأخرى للأعمام ونسائهم وأولادهم، وكانت الأم تصعد بابنها إلى السطح للفرجة على أشعة القمر الفضية وهي تكسو البحيرة بأضوائها الساطعة، وتأخذ البحيرة أمام القرية شكل خليج واسع تستدير حوله الزروع وأشجار النخيل الشاخنة في زهو وخيلاء ... منظر لا ينسى المؤلف مدى روعته في نفسه، فأعجب به وما زال يذكره ولم ينقرض من ذاكرته طول حياته. وإن أخته كلما ترمق نحو البحيرة فترى بعض المراكب تتمايل مع الريح مصعدة أو منحدرة فتهلل، والأم هي الأخرى تحديق بعينها وهي صامته نحو هذا المنظر الرائع الذي تتناوب فيه السفن الحاملة لمجموعات الصيادين الحاملين بأيديهم شبكات مخصصة للصيد، وباختصار لا تضيع الأسرة لحظة من لحظات الاستمتاع برؤية المنظر للبحيرة من فوق السطح وقت الليل^(٢). وليس من المبالغة أن يقال: إن وصف شوقي للبحيرة بعدد من هذه العبارات وصفا يكتب له التفوق والسبق على كثير من أقرانه الذين كتبوا في هذا المجال الأدبي، وليس ذلك غريبا من مثله فقد رزقه ربه قلما سيالا وأسلوبا متدفقا بالعبارات الحاملة للمعاني المطلوبة.

(١) المصدر السابق، ص 257.

(٢) معي ص 21.

ساحة واسعة في الليلة الطويلة

كما يصف الليلة التي يحتفل فيها أهل دمياط مولدا لـ "سيدي أبي المعاطي"⁽¹⁾ في أكبر المواسم الذي يعقد في ساحة واسعة، وعادة تكون الليلة الكبيرة لهذا المولد ليلة الخامس عشر من شهر شعبان سنويا. ويقام له موكب ضخم يسير فيه أصحاب الطرق الصوفية، وكل طريقة من تلك الطرق يتميز أهلها من سواهم بألوان عمامتهم وبيارقهم ولكل طريقة "سرادق" تُصَف فيه كراسي ومقاعد على جوانبه، في الليل يضاء بالأنوار الكهربائية وتقام فيه حلقة ذكر يتقابل فيها صغان من الشيوخ والشباب يتمايلان يمينا وشمالا ذاكرين الله ذكرا كثيرا، بينما يقوم بين الصنفين منشد ينشر في الذاكرين بنشيدته حماسية قوية، ويُقبل على شيخ الطريقة حيثُذ مريدوه، ومن يريد الانضمام إلى طريقته يأخذ العهد عليهم والمواثيق. وتتحول ساحة هذا المولد طوال أيام انعقاده إلى سوق كبيرة، يقيم فيها التجار دكاكين تزخر بقفف مليئة بالحمص وحبّ العزيز والخسروب والتمر ويجاريهم أصحاب الحلوى والشراب من كل صنف، فالمنظر المذكور يكون محبوبا لدى الحاضرين والناظرين حينما يتفرجون⁽²⁾. ومن الواضح أن شوقي ضيف ينقل لنا من خلال هذه العبارات صورة من الصور الاجتماعية التي يتناولها أهل دمياط سنويا. وهو صورة المولد للشيخ "سيدي أبي المعاطي" فيقف أمامها فيعرض تفاصيل الاحتفال في هذه الساحة الكبيرة وما يتعلق به من عادات الصوفية التي تعودوا عليها إضافة إلى وصف المعالم التي تقوم ببيان هذا الاحتفال

(1) وهو شيخ مغربي صالح نزل دمياط قل قرون واسقر نما، ولأهل دمياط فيه اعتقاد جعلهم يسمون بضريحه ويرفعون فوقه قبة

كبيرة. (انظر: معي ص 69)

(2) انظر: معي ص 69-70.

في هذه الساحة الواسعة، غير ناس أن يذكر جانب التجارة المصغرة التي تتمثل في بيع وشراء الضرورات اليومية والاحتياجات المهمة خلال هذا الاحتفال داخل هذه الساحة. ومن خلال هذا الوصف يقدم الدكتور شوقي ضيف صورة بديعية لهذه الساحة وما فيه من احتفال الصوفية بمولد أحد الشيوخ المعتقد فيه اعتقادا كبيرا.

المستنقع

عندما بدأ الدكتور شوقي ضيف سيرته الذاتية، فاختار من جوار قريته مستنقعا واسعا، واشتغل به في أكثر من عشر صفحات، يصف فيها ما كان حول المستنقع من الأشجار والأزهار، ويُرى من المنظر كأن الأزهار والأشجار قائمة على سيقانها ليل نهار منتظرة موعدا مضروبا، مطلة برؤوسها وأعناقها فوق مياه غارقة فيها كأنها دموعها، ويسميتها أهل القرية والريف المصري باسم البشنين. ثم يصف ما فيه كمية من الأسماك والحيتان، ويذكر أن في المستنقع أسماكًا أكثر من مائتي فدان⁽¹⁾. ويقدم لنا صورة المكان - في محاولته الممتازة - في ظلمة الليل وفي زخرف/ خروج النهار، ويعرض لنا صورة كأنه قائم أمام المستنقع؛ "عندما تشرق الشمس فتفتح الأوراق والأزهار مع نسائم السحر، وأندائه المتألثة عن شعل ملتبهة متعددة الألوان"⁽²⁾. ثم يصف البحيرة ومياهها التي تقع في الجانب المقابل للقرية: "كأن سماء من البلور الناصع تمتد على سطحها المشرق الهادئ الساطع، والمراكب الشراعية تنهادى فيها مقبلة مدبرة، متمائلة مع الريح بأشرعتها البيضاء، المتفاوتة الأحجام، كأنها هي طيور سابحة بجناح واحد فريد"⁽³⁾، فنراه يختار المكان ويصفه

(1) كذا ذكره في المتن. (انظر: معي ص 9).

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر السابق، ص 9-10.

وصفا رائعا عند حدوثه ووقوعه، ثم يصف ما يتمتع به في البيت والقرية. وهذا المكان (المستنقع) تفرد الدكتور شوقي ضيف بذكره والحديث عنه، ويرجع الأمر في ذلك إلى الواقع الطبيعي الذي احتوى على هذا المستنقع الكبير. ومن الملاحظ في عبارات الدكتور شوقي والواصفة لهذا المستنقع أن تعبيره جاء في أسلوب أدبي أخذ بالألباب والقلوب لما فيه من ظرافة أدبية وتأثير نفسي يكمن في الصور التعبيرية للمكان وما حوله إضافة إلى وضع هذه الصور في عدد من القوالب الأدبية كالتشبيه والمجاز والكناية التي أضفت على كل هذه العبارات رونقا في الأداء وجمالا في التعبير وتأثيراً في النفوس.

الزمكانية في الرحلات والزيارات

لقد وظف ثلاثة كتابنا الزمكانية في عدد من رحلاتهم وزياراتهم إلى أماكن مختلفة، فهذا هو الدكتور شوقي ضيف يقدم تجربة زيارته لمدينة دمشق إحدى العواصم العربية الكبرى، في مهرجان الشعر الثاني الذي أقامه المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية، فيقول: "وكانت دمشق - منذ زمن الجاهلية - ملجأ للعروبة، وأخذت رعايتها لها تتضاعف في عصر بني أمية حين كانت عاصمة البلدان العربية جمعاء، وتحولت في العصر العباسي إلى ولاية تابعة لبغداد، ولكنها ظلت راعية للعروبة إلى اليوم". وهنا يلاحظ القارئ أن الدكتور شوقي ضيف يضيف على مدينة دمشق عددا من الأوصاف التاريخية التي تبوأ بها منزلة الصدارة بين المدن العربية في التاريخ القديم كما يلاحظ أنه يعتبرها موثلا للعرب ومجتمع ثقافتهم العريقة متتبعا في ذلك الأدوار التاريخية التي مرت بها هذه المدينة العربية.

فتراه يتكلم عن المكان وهو "مدينة دمشق" ومكانتها في التاريخ، واهتمام المسلمين لها، واختصاصهم لها عاصمة الخلافة الإسلامية، وملجأ العلم والأدب والفن والتاريخ، وأخذ يستخدم المكان في سرد حديثه ويعتني به اعتناء ملائماً^(١).

ويتناول الدكتور حسن الشافعي الحديث عن الرحلة التي قام بها إلى بيت الله الحرام؛ "إذا بقدام مهيب من جهة المسعى متوجهاً إلى الكعبة، في ملابس الإحرام، طويل القامة، رقيق الجسم، أبيض الوجه، خفيف اللحية، "منفرداً" وخلفه بخطوات كوكبة من المرافقين، فلما أمعنا النظر تبين لنا أنه "الملك فيصل بن عبد العزيز"، فيُخبرنا المؤلف بأنه كان: "حولي طائفة من الناس انطلقوا في حركة تلقائية يصفقون جميعاً له". وكان للملك فيصل موقف مختلف تماماً عما يجري أمامه. وهو توقف عن المسير ويقف معه المركب كله، "ويتوجه هو إلى جمهرة الحجاج المصفقين، قائلاً في صوت واضح رصين: "هذا لا يجوز... هذا لا يجوز. لقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾"^(٢). ثم أضاف: والمكاء الصغير، والتصديّة التصفيق. وكرر هذه العبارة ثلاث مرات. ثم مضى إلى الطواف"^(٣). وهنا يلاحظ القارئ أنه يحاول أن يقدم هذه التجربة بوصف ما رآه وشاهده محاولاً الدقة وذكر التفاصيل المتعلقة بما يتحدث عنه. فجاءت أوصافه مصورة تصويراً يقترب من المشاهدة، إذ قدم وصفاً شاملاً لشخصية الملك فيصل بملاحه الخارجية التفصيلية: "طويل

(١) انظر: معي ذكريات ومشاهدات 84/2

(٢) سورة الأنفال: 35.

(٣) حياتي في حكاياتي، ص 87-88.

القامة، رقيق الجسم، أبيض الوجه، خفيف اللحية منفرداً". ومن الملاحظ أيضاً أنه قدم وصفاً للجانب الآخر من الصورة وهو طائفة الحجيج المصفقين للملك فيصل لرؤيته واحتفالاً بلقائه المفاجئ، ومن جميل ما لدى الشافعي أن أوصافه لما رأى وشاهد كادت أن تنقل الصورة بسماها الحسية والمعنوية: "صوت واضح رصين: هذا لا يجوز... هذا لا يجوز"، وخلفه بخطوات كوكبة من المرافقين.

وهذا الوصف بصورة عامة تسجيل تاريخي يحفظ للملك فيصل مكائته المرموقة بين ولاية أمور المسلمين عامة والعرب منهم خاصة. وقد أخذت الزمكانية من اهتمام المؤلف في هذا النص جانباً كبيراً حيث ركز على رسم الأبعاد للأماكن والجهات التي تحدث عنها "باب الكعبة المشرفة فيما بينها وبين المسعى، بالقرب من بئر زمزم... إذا بقادم مهيب من جهة المسعى متوجهاً إلى الكعبة".

رحلة جلال أمين إلى رأس البر

أما الدكتور جلال أمين فيلاحظ أنه في مواضع متناثرة من سيرته الذاتية وظف الزمكانية في تجاربه المحكية ومن المناظر التي سجلها منظر رأس البر فيقول عن تجربته مع هذه المشاهدة: "كانت العشش قد حل محل معظمها بيوت قبيحة مبنية بالطوب والحديد والأسمنت، وكان اكتظاظ شاطئ البحر وشاطئ النيل بالناس شديداً لدرجة كان لابد أن تختفي معها أي مساحة من الجمال، بحثت عن الودع الجميل القديم الذي كان يزين الممرات المؤدية إلى كثير من المباني أو العشش الحكومية، كمبنى المحافظ أو الشرطة أو المطافي، فلم أجده له أثراً، ناهيك عن الشاي

الكومبليه في فندق رويال، إذ حل محل هذا الفندق آخر"^(١). فالمؤلف يتذكر صورة رأس البر القديمة والأيام التي قضى فيها والذكريات التي عاش لأجلها ورحل بعد مدة غير قصيرة، ويحن إليها ويتمنى أن يتمتع بارتشاف كوب من "الشاي الكومبليه"، ولكن كيف ذلك؟ لأن الجمال الذي كان يحظى به هذا المكان لم يعد يتراءى للناظرين. حيث استبدل المكان مواطن الجمال الوديعه بعدد من المعالم الأخرى التي لا تحمل ذلك الجمال القديم الوديع. وكان هذا المكان مما يسافر الدكتور جلال أمين مع أسرته إلى رأس البر في فترة الصيف خمس سنوات متتالية خلال الحرب، فلما انتهت الحرب عادوا إلى قضاء الصيف بالإسكندرية. ثم مرت سنوات كثيرة دون أن يحظى برؤية رأس البر مرة أخرى، إلى أن خطر بباله بعد مرور سنوات كثيرة. أن يذهب مع بعض الأصدقاء لقضاء بضعة أيام فيها تدفعه الرغبة في استعادة أيام هذا الماضي الجميل.

ومن الملاحظ في النص أنه تصوير دقيق لما في هذا المكان وحاضره حيث إن الدكتور جلال أمين ذكر من معالم الحاضر البيوت المبنية بالطوب والحديد والإسمنت، كما يذكر من الماضي الجميل مبنى المحافظ والشرطة والمطافي وفندق رويال حيث كان القادمون إليه يحتسون الشاي الكومبليه، فهو بهذا الأسلوب يجمع بين الحديث عن ماضي الزمان وحاضره ليقدم وصفا دقيقا للمكان المطلوب؛ "رأس البر". ومن الأماكن التي أستوقف الدكتور جلال واسترعت اهتمامه هو مبنى الجامعة حيث ينقل لنا ذكريات حياته الجامعية التي قضاها في كلية الحقوق بجامعة القاهرة، قبل عقود من الزمان، فشعر ببعض الحرمان من حياة جامعية مثل التي رآها في جامعات

(١) ماذا علمتني الحياة، ص 93

لندن ولوس إنجلوس والجامعة الأمريكية، و"المدهش أكثر من هذا أنه لم يكن يدور بخاطرننا حينئذ أننا نتعرض لأي حرمان بالمرّة، إذ لم نكن ندرى شيئاً عما كان يجب أو يمكن أن يكون"⁽¹⁾.

فسراه يعقد مقارنة بين جامعته في وطنه العربي وبين عدد من الجامعات الأوروبية فتأتي المقارنة قاسية، حيث إنه اعتبر فترته الجامعية في وطنه العربي فترة حرمان تعرض لها هو وكل من التحق بتلك الجامعات العربية وذلك لأنها لا تقدم الخدمات الموجودة في الجامعات الأوروبية، ثم يصف كلية الحقوق التي كانت في مبنى ضخم جميل لا يزال طرازه المعماري يلفت بجماله الناظرين كلما مروا عليه. ثم يسترسل في الحديث عن وصف المكان وذكر تفاصيله المتعلقة فيقول: فالمبنى يتكون من مدرجين بالغني الضخامة، يتسع كل منهما لنحو ألف طالب، وهناك بهو متسع بينهما، يحيط به في الدور الأرضي والعلوي مجموعة من حجرات الأساتذة وبعض الحجرات للإداريين، وحجرة العميد، وهذا هو كل ما يراه أي زائر. وكان كل المطلوب من الطلبة أن يدخلوا المدرج ويستمعوا إلى محاضرة بعد أخرى يلقيها أستاذ بعد آخر من خلال ميكروفون.

وهنا مرة أخرى يعقد مقارنة بين هذا المبنى وما فيه من المدرج والمنصة والبهو وبين ما في الجامعات الأوروبية من المباني المشيدة والمداخل المزركشة والمنصات المزينة، ناقلاً تجاربه وذكرياته في العهدين معاً: "... ولا أني تناولت مشروباً فيها أو طعاماً، فليس هناك مكان للطعام يمكن أن يجلس فيه التلاميذ قبل المحاضرة أو بعدها". ويشعر بعدم حجرة مخصصة لجمعية ثقافية أو موسيقية أو سياسية، لأن في الكلية ليست هناك جمعية على الإطلاق من هذا القبيل أو ذاك⁽²⁾.

(1) رحيق العمر، ص 235.

(2) المصدر السابق، ص 105.

ومن الملاحظ في هذه التجربة المنقولة بقلم الدكتور جلال: أنه يذكر تفاصيل المكان وجزئياته كلما تحدث عنه: المدرج والمنصة والبهو ينتهي إلى نتيجة تتمثل في افتقار مباني الجامعات والكليات العربية إلى عدد من الأمور المطلوبة والضرورية.

وأن الجامعات القريبة وخاصة الجامعة الأمريكية منها تحظى بعدد كبير من مستلزمات الحياة الدراسية، إضافة إلى النظافة والجمال اللذين تترأى آثارهما في ربوع الجامعة وفروعها الملحقة بها.

يصور لنا الدكتور جلال أمين صورة مكان عندما كان يرجع إلى مصر ومعه شهادة الدكتوراه والزوجة الإنجليزية التي تزوجها بعد حصوله على الدرجة المذكورة، وكانا قد ركبا الباخرة ووصلت بهما إلى ميناء الإسكندرية، وكانا يفرحان كثيرا، ويستمعان إلى أغاني مصرية حتى نزلا بالميناء، عندما يُعبر المؤلف عن وصوله إلى الإسكندرية، أرض مصر التي يحنّ إليها لرؤيتها فشعر بسعادة كما قال: "وكل منا في غاية السعادة والاستبشار ببدء حياة جديدة في مصر التي كنت أفقدها بشدة. كان سفرنا بالباخرة، وكانت باخرة مصرية اسمها «الجزائر» تسير بين ميناءي البندقية والإسكندرية ... كنتُ خلالها أكاد أطير فرحا وحامسا كلما سمعت أغاني مصرية"⁽¹⁾. فهو يصور هذا المنظر (الباخرة وميناء الإسكندرية) "كان راديو الباخرة يذيع علينا أغاني مصرية باستمرار فتصيني رعدة من الانفعال والحساس للأغاني العاطفية والوطنية على السواء، وكانت زوجتي ترى انفعالي وفرحي فتصيبها عدوى الحساس بدورها"⁽²⁾، ويجعل المؤلف

(¹) رحيق العمر ص 105.

(²) المصدر السابق، ص 211.

القارئ يفرح معه برؤية بعض المناظر الجميلة التي صورها وقدمها إلى الأمام مع أصل الصورة بعبارات البهجة والسرور، ويحزن إذا قدم مناظر كريمة، أو أحيانا يعرض بعض مناظر لها علاقة بأحداث الماضي فيستعيد المؤلف ذكرياته من زمن الماضي⁽¹⁾. ونراه يستخدم الدلالات المكانية بثناء وهي متمثلة في: (مصر، الباخرة، ميناء الإسكندرية، ميناء البندقية، أمام، مناظر مختلفة) كما أنه لا ينسى أن يوظف عنصر الزماني توظيفاً تفصيلياً تمثل (يستعاد - التجارب - الذكريات الماضية).

السجن

السجن هو ذلك المكان المغلق المنعزل عن المجتمع الذي يقيم فيه الشخص المذنب المحروم من ممارسته لحرية فيه لتنفيذ العقوبة التي أصدرتها المحكمة بقرار من القاضي لارتكابه انتهاكاً أو جريمة ما بحق مجتمعه بخروجه عن القواعد القانونية والاجتماعية، كما قد توجد به بعض المرافق الحيوية والترفيهية للمساجين التي تختلف من سجن لآخر وفق هيكلته ونظام الإدارة المتبعة فيه⁽²⁾.

كما يطلق السجن على المكان الذي تتم فيه سلب حرية الإنسان، وهو مكان معد ليكون صالحاً لحبس شخص أو أكثر ويكون إعدادة بوضع الأسوار والقضبان الحديدية وتعيين الحراسة

(1) انظر: المصدر السابق ، ص 181.

(2) إصلاح وتهذيب.. الفرق بين السجن المشدد والسجن والحبس وأنواع السجون بمصر وطبيعتها لعلاء رضوان، مقال نشره في الشبكة؛ اليوم السابع، واطلعت عليه: 12 ديسمبر 2017م.

اللازمة لمنع المسجون من الفرار. وبعبارة أخرى يتم وضع كل الوسائل الممكنة لمنع الشخص عن الخروج من المكان المحبوس فيه وتحت سيطرة كاملة لحراس السجن.

ويُذكر السجن في "حياتي في حكاياتي" كثيرا، لأن الدكتور حسن قضى في سجون مصر ومعتقلاتها حوالي عشر سنوات من أهم أيام شبابه، فخصص ثلاث حكايات تتعلق بهذا الشأن، يقدمه لنا المؤلف ويصفه من جوانبه ونواحيه المختلفة: «كنتُ قد قضيت نحو عامين أو يزيد في سجن "الواحات الخارجة"، جنوبي مدينة الخارجة في الوادي الجديد على طريق الأربعين بين مصر والسودان»⁽¹⁾.

ويصور الدكتور حسن بمرارة وحزن بعض هذه السجون المصرية المختلفة التي قضى فيها أعواما عديدة من عمره. ويذكر العذابات التي اكتوى بلهيبها هو وبعض نزلاء هذه السجون، يحكي عن تجربته الذاتية التي قضاها في الزنزانة المبنية في سجين قتل بسبب التعذيب الشديد في السجن الحربي.

ليلة مؤلة في السجن

أدخل الضباط الدكتور حسن الشافعي إلى غرفة كان حجمها 2x2 مترا. المسماة بـ "الشفابخانة" ويسمونها الدكتور حسن: "السلخانة"، ليكون اسما على مسمى بمعنى الكلمة، ووضعت القيود في كلتا يديه المكبلتين من وراء ظهره، وبقي على هذا الوضع قرابة شهرين مدة التحقيق. لم يكن يعرف في البداية كيف ينام - لكن النوم سلطان في داته يُسيطر على المرء متى يشاء -

(1) حياتي في حكاياتي، ص 61.

رغم الصراخ والعيول المتواصلين إلى سمعه، وكيف يتناول ما يرمى إليه الطعام من تحت الباب، وكيف يقضي حاجته حيث لا يسمح بذلك إلا مرة في الليل والنهار⁽¹⁾.

كما يحكي عن تجربة إخوانه المعذبين فيقول عن أحدهم: "ضُرب حتى تورم جسمه وتسمم لعدم العلاج"، عندما يعرض حسن الشافعي لنا صورة الحكاية فيقدم منظر السجن والزنازة التي فيها المظلوم ويُوحى وجوده معه من ذكر مكانه في السجن: "وكنْتُ حينئذ في الدور الأرضي بسجن رقم 4 بالسجن الحربي، في زنزانة الركن الجنوبي الشرقي"⁽²⁾، ويشير إلى الزمن الذي حدثت فيه الواقعة: "وفي صباح اليوم التالي سُدَّت الفتحات الصغيرة للأبواب بالقطن، لثلا نرى شيئاً، وحملتُ جثة شخص، الذي قضى نحبه أثناء الليل، إلى خارج أسوار السجن، حيث وريت التراب"⁽³⁾. ومن الملاحظ في عبارة الدكتور حسن الشافعي أنها اشتملت على العناصر الأساسية لفن السيرة الذاتية من ذكر الأماكن والأزمنة والساعات إضافة إلى الوصف العام الذي قام بدور التوضيح والتفصيل لهذه العناصر الفنية.

ومن الملاحظ أن الدكتور حسن دقيق في توظيف عنصري الزمان والمكان وتصوير معالمها الأساسية. فهي هو يذكر حجم الغرفة أنها 2x2 متراً. ويذكر مدة العذاب بصورة تقريبية فيقول: "قراءة شهرين" ويذكر زمناً آخر في هذا النص وهو أربع وعشرين ساعة حين تحدث عن العذابات التي رآها داخل الزنازة.

(¹) انظر: حاتي في حكاياتي، ص 57.

(²) المصدر السابق، ص 147-148.

(³) المصدر نفسه.

الغاية

□

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد!

لقد أنعم الله عليّ إذ وفقني لتكميل هذه الرسالة العلمية التي تحمل عنوان فن السيرة الذاتية في مصر في القرن الخامس عشر الهجري، وقد قسمت هذه الرسالة إلى التمهيد وثلاثة أبواب، تناولت في التمهيد؛ نشأة فن السيرة الذاتية في مصر وتطوره في العصر الحديث، مشتملا على ملامحه عبر العصور، وتطوره عبر القرون، وخصصت بعض الصفحات لمكانته في العصر الحديث ... أما الباب الأول فعنوانه؛ "التعريف بالسير الذاتية المختارة وبكتابتها"، ويشتمل على فصلين، الفصل الأول تناولت فيه التعريف بالسير الذاتية المختارة، والفصل الثاني: حياة الكتاب من خلال سيرهم، والباب الثاني كان بعنوان: دراسة موضوعية للسير الذاتية المختارة، ويشتمل على ثلاثة فصول: تناولت في الفصل الأول؛ عنصر الصراع والألم، وفي الفصل الثاني؛ عنصر الصدق والصراحة، وفي الفصل الثالث؛ عنصر الحقيقة والخيال. وأما الباب الثالث كان بعنوان: دراسة فنية للسير الذاتية المختارة، ويشتمل على ثلاثة فصول: تناولت في الفصل الأول؛ اللغة بين السرد والحوار الوصف، وفي الفصل الثاني؛ الأسلوب بين الجدل والسخرية، وفي الفصل الثالث؛ دلالات بين الزمان والمكان.

وقد وقفت في هذه الرسالة العلمية أن التراث العربي في فن السيرة الذاتية أقدم من التراث الغربي، حين شرع فن التراجم بالظهور في بريطانيا وفرنسا بصورة ساذجة كانت التراجم العربية الإسلامية قد بلغت حدا من الكثرة والتنوع وسعة الأفق في موضوعات التراجم بحيث لا يمكن أن يدانيها بداية غير منتظمة الخطى في الآداب الأوروبية، وكما ورد في الموسوعة

البريطانية من أن أقدم نموذج السيرة الذاتية إنما ظهر في الغرب في القرن الخامس عشر الميلادي.

أما النتائج التي توصلت إليها بعد هذه الرحلة العلمية الممتعة، فهي كما يلي:
1. تعرفت من خلال هذه الرحلة العلمية من كتابة البحث على فن السيرة الذاتية وأهم كتبها في الثلث الأول من القرن الخامس عشر الهجري.

2. تبينت مناهج كتاب السيرة الذاتية في العصر الحديث فكان لكل كاتب منهجه الخاص به في سيرته الذاتية فعلى سبيل المثال الدكتورة بنت الشاطي تناولت رحلة حياتها من البداية حتى آذن الدهر بالبين بينها وبين زوجها الأستاذ أمين الخولي، في حين الأستاذ حسن الشافعي تناول مواقف مختلفة من سيرته دون ترتيب وهكذا.

3. لاحظت أن بعضًا من كتاب السيرة الذاتية يتناولون الأحداث التي مرّوا بها بكل تفصيل ووضوح وصراحة كما فعل الدكتور جلال أمين في سيرته الذاتية، وكان البعض يلبس بعض هذه المواقف لباسًا من الحياء والتقوى، أو يذكرها باختصار يخفي كثيرًا من حقائقها لسبب أو آخر كما فعل الدكتور حسن الشافعي.

4. كما وصلت إلى أن كتاب السيرة الذاتية من كان صادقًا ومباشرًا في سرد حكايات حياته؛ واتضح ذلك جليًا في سيرة الدكتور شوقي ضيف، في حين كان البعض ينجح إلى الخيال في سرد هذه الحقائق بأجنحة الخيال الواسعة أثناء عرضها كما كان من أمر الدكتور حسن الشافعي في سيرته الذاتية.

التوصيات

أما التوصيات فأوصي إخواني وزملائي الدارسين في الدارسات العليا:

1. أن تخصص البحوث لدراسة فن السيرة في الأدب العربي القديم بشكل عام، لما فيه من قيمة أدبية ومنتعة فنية، تثرى الأدب العربي، وتزيد في نموه وازدهاره.

2. دراسة تطور فن السيرة في الأدب العربي على مدى العصور المختلفة، ومعرفة بعض الخصائص والمميزات الفنية التي امتازت بها كتب السيرة الذاتية والغيرية في كل عصر، وبخاصة فن السيرة في العصر الحديث، نظرا لازدهاره في هذا العصر.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت في دراسة هذا الموضوع وفق الخطة الموضوعية، ووصلت به الغاية المنشودة، وحققته به الهدف المراد.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

ملخص الرسالة

الحمد لله لقد تمت رسالة الدكتوراه في الأدب العربي بعنوان: "فن السيرة الذاتية في مصر في القرن الخامس عشر الهجري، دراسة موضوعية فنية من خلال نماذج مختارة". والتي تشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة، فتبدأ المقدمة بمحتوياتها المألوفة مثل أهمية الموضوع والأسباب وحدود البحث وأسئلة البحث والدراسات السابقة وخطة البحث.

وأما التمهيد فجعلته بعنوان: "نشأة فن السيرة الذاتية في مصر وتطوره في العصر الحديث"، وفصلت فيه جذور فن السيرة الذاتية وملاحمه في الأدب العربي والغربي، كما مررت على تاريخ السيرة الذاتية منذ زمن الفراعنة إلى عصرنا الراهن، وكذلك سجلت بعض الكتب التي خصصت لهذا الفن في القديم والحديث، وبعض السير الذاتية منذ أقدم عصورها إلى عصرنا الحاضر.

والباب الأول بعنوان: "التعريف بالسير الذاتية المختارة وبكتابتها"، خصصت هذا الباب للتعريف بالسير الذاتية المختارة للدراسة في هذه الرسالة وبكتابتها، وهو الباب جعلته لدراسة موضوعية الرسالة على الأكمل، يشتمل على فصلين؛ فالفصل الأول بعنوان: "التعريف بالسير الذاتية المختارة" يحتوي على أربعة مباحث؛ تناولت في المبحث الأول عرض كتاب: "على الجسر بين الحياة والموت"، وفي المبحث الثاني؛ عرضت كتابي الدكتور جلال: "ماذا علمتني الحياة" و"رحيق العمر"، وفي المبحث الثالث تحدثت عن كتابي الدكتور شوقي ضيف: "معي" و"معي ذكريات ومشاهدات"، وفي المبحث الرابع تناولت عرض كتاب: "حياتي في حكاياتي".

والفصل الثاني جعلته بعنوان: "حياة الكتاب من خلال سيرهم" يحتوي على أربعة مباحث أيضًا، فالمبحث الأول يتناول حياة الدكتورة عائشة عبد الرحمن، والمبحث الثاني عن

حياة الدكتور جلال أمين، والمبحث الثالث خصصته لحياة الدكتور شوقي ضيف والمبحث الرابع تحدث فيه عن حياة الدكتور حسن الشافعي.

والباب الثاني بعنوان: "دراسة موضوعية للسيرة الذاتية المختارة" يتضمن على ثلاثة فصول؛ فالفصل الأول جعلته بعنوان: "الصراع والألم" وذكرت فيه بعض النماذج وقمت بتحليلها الفني، والفصل الثاني بعنوان: "الصدق والصراحة" وخصصت فيه الكلام عن الصراحة لأنه لوحظ في الكلام، ويلمع في العبارات والحوادث، فلذلك تكلمت فيه وعقبت تحليلها الفني، والفصل الثالث أفردته في الحديث عن عنصر "الحقيقة والخيال"، وذكرت بعض النماذج وحاولت تحليلها.

والباب الثالث رتبته بعنوان: "دراسة فنية للسيرة الذاتية المختارة" يحتوي على ثلاثة فصول أيضًا؛ فالفصل الأول بعنوان: "اللغة بين السرد والحوار والوصف"، فتناولت فيه استخدام اللغة عند عناصر المذكورة، والفصل الثاني بعنوان: "أسلوب السخرية" خصصته لفنون السخرية، واستخدامها لدى كُتّابنا الأجلاء، والفصل الثالث والأخير عنوانه بـ: "دلالات الزمان والمكان"، كرّمته ليظهر في النصوص دلالات الزمكانية.

وأما الخاتمة فذكرت فيها إلى ما وصلت من النتائج والتوصيات.

وعقبتها الفهارس الفنية، فهناك فهرس الآيات والأحاديث والأعلام والأماكن والبلدان والمصادر والمراجع والمحتويات.

الفهارس الفنية

1. فهرس الآيات القرآنية
2. فهرس الأحاديث النبوية
3. فهرس الأعلام
4. قائمة المصادر والمراجع
5. المحتويات

فهرس الآيات القرآنية

الرقم	نص الآية	رقم الصفحة
1.	ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ	80
2.	إِنَّ اللَّهَ بِأَلْعِ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا	178
3.	إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ	46
4.	مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى	249
5.	مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا	34
6.	وَأَذْكُرَنَّ مَا يُنْثَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ	06
7.	وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا	235
8.	وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى	06
9.	وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً	260
10.	يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ	06

فهرس الأحاديث النبوية

الرقم	نص الحديث	رقم الصفحة
1.	مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيدُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافُوهُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مَا تُكَافِيُوهُ فَأَدْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَيْْتُمُوهُ.	2
2.	مَنْ بَنَى مَسْجِدًا - قال بكير: حسببت أنه قال: يبتغي به وجه الله - بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ	254
3.	مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ.	2
4.	وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالَمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ.	80-79
5.	خدمتُ النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ...	85
6.	قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك	12
7.	حديث الإفك،	7
8.	كل على خير، هؤلاء يقرءون القرآن ... إنما بُعثت معلماً.	72
9.	دَخَلَ أَعْرَابِي الْمَسْجِدَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَلِمُحَمَّدٍ وَلَا تَغْفِرْ لِأَخِي مَعْنَا، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «لَقَدْ اخْتَضَرْتَ وَاسِعًا»	93

فهرس الأعلام [الذين ترجمت لهم في هذا البحث]

الرقم	أسماء الأعلام	الصفحة
1.	إبراهيم بيومي مذكور، الأستاذ، الدكتور	158
2.	إبراهيم مصطفى	139
3.	أحمد (اس أحمد أمين)	30
4.	أحمد الدردير، العلامة، أبو الركات	168
5.	أحمد أمين، الدكتور	34
6.	أشهب القاصي	164
7.	الأمدي، سيف الدين	154
8.	أمين الخولي، الدكتور	17
9.	أتا ماري شمبل، الدكتورة	69
10.	الأنصاري، شيخ الإسلام، زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري	169
11.	جمال عبد الناصر، الرئيس	155
12.	حسن عبد الغني الصغير	164
13.	حسين حامد حسان، الدكتور	85
14.	الحاديوي إسماعيل باشا	256
15.	رولان بارت	198
16.	الزبيدي، محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيبي	167

17.	رينب (أم الدكتور حلال أمين)	34
18.	السكندري ، اس عطاء الله	167
19.	الشعراوي ، الشيخ محمد متولي	68
20.	الشيوازي ، ملا صدرا محمد بن إبراهيم القوامي	159
21.	طه حسين، الدكتور	17
22.	عبد الحلیم محمود، الدكتور	67
23.	عبد الرحمن أيوب، الدكتور	164
24.	عبد الوهاب عزام	139
25.	عبد العزيز عتيق	183
26.	علي الحندي ناصف، الشيخ	165
27.	علي حسب الله،	164
28.	علي عبد المنعم، الدكتور	164
29.	علي عشري زايد، الدكتور	69
30.	علي مختار، الدكتور	124
31.	عنتره من شداد	89
32.	العراي، الشيخ محمد	66
33.	فان إس الألماني	69
34.	مالكولم كير	128

166	نجد السوسي، الشيخ	35.
148	نجد الفاتح، السلطان	36.
168	نجد بن نجد بن أحمد بن عبد القادر بن عبد العزيز السبباوي الأهرري	37.
165	نجد علي أحمدين، الشيخ	38.
164	نجد فتحى عبد المنعم، الدكتور	39.
154	محمود قاسم، الدكتور	40.
165	مس لاميتون، الدكتورة	41.
141	مصطفى كمال أناتورك	42.
36	ميشيل عفلق، الأستاذ	43.

قائمة المصادر والمراجع

• القرآن الكريم

1. إبراهيم الكاتب لإبراهيم عبد القادر المازني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
2. أدب السيرة الذاتية: شرف عبد العزيز. الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، 1992م.
3. الأدب وفنونه، دراسة ونقد: للدكتور عز الدين إسماعيل، ط9، [مريدة ومنقحة]، دار الفكر العربي، القاهرة، 2013م.
4. أساس البلاغة، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط1، دار الكتب العلمية - بيروت، 1998م.
5. أساليب السخرية في البلاغة العربية (دراسة تحليلية تطبيقية) رسالة ماجستير: شعيب بن أحمد الغزالي، نوقشت في كلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، سنة 1414هـ.
6. إصلاح وتهذيب.. الفرق بين السجن المشدد والسجن الخفيف وأنواع السجون بمصر وطبيعتها لعلاء رصوان، [مقال نشره في الشبكة؛ اليوم السابع، واطلعت عليه: 12 ديسمبر 2017م.
7. أصول الفكر التربوي في الإسلام للدكتور عباس محجوب، دار ابن كثير - بيروت، (ب.ت)
8. الأعلام لخير الدين الزركلي، ط:3، دار العلم للملايين - بيروت 1984.
9. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، تحقيق وتعليق: الشيخ علي محمد معوض، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م.
10. بذل المجهود في إفحام اليهود: السموأل بن يحيى المغربي، تحقيق: عبد الوهاب طويلة، ط1، الدار الشامية، بيروت، 1410هـ.
11. البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف، ط:9، دار المعارف، القاهرة. (ب.ت)
12. بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ للدكتورة سيزا قاسم، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م.
13. بنت الشاطئ من قريب للدكتور حسن عبد الحميد حبر المالكي، ط1، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2001م.
14. البئر الأولى لجبرا إبراهيم جبرا، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1993م.

15. تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا من سنة 1863 إلى سنة 1879م لإلياس الأيوبي، ط2، مكتبة مدبولي - القاهرة، 1996م.
16. تجارب الأمم وتعاقب الهمم لأبي علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه (المتوفى 421هـ) المعروف بـ"مسكويه"، تحقيق: سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية بيروت، 2003م.
17. التراجم والسير لمحمد عبد الغني حسن، ط1، دار المعارف، القاهرة، (ب. ت).
18. الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث: يحيى إبراهيم عبد الدائم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، أكتوبر 1974م، (التاريخ مأخوذ من توقيع المؤلف على المقدمة).
19. الترجمة الشخصية للدكتور شوقي صيف، ط4، دار المعارف، القاهرة، (ب. ت).
20. ترجمة النفس، السيرة الذاتية في الأدب العربي: دؤيت رايبولدرز، ترجمة: سعيد الغامبي، ط1، هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، أبوظبي، 2009م.
21. الجامع المسد الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه: للإمام البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، ط1، دار طوق النجاة، بيروت، 1422هـ.
22. جماليات المكان لأحمد طاهر حسين، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1988م.
23. حريق القاهرة في الوثائق السرية البريطانية لمجدي نصيف، دار الهلال - القاهرة، 1996م.
24. حريق القاهرة للدكتور محمد أنيس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، 1972م.
25. حريق القاهرة: فرار اتهام جديد لجمال الشرفاوي، مكتبة الآداب - القاهرة، 1972م.
26. الحوار القصصي: تقنيات وعلاقات السردية لعبد السلام فاتح، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1991م.
27. الحي اللاتيني لسهيل إدريس، ط1، دار الآداب، بيروت، 1953م.
28. حياتي في حكاياتي للأستاذ الدكتور حسن التناغمي، ط1، دار الغرب الإسلامي - تونس، 2015م.
29. حياتي لأحمد أمين، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، (ب. ت).
30. ختم الأولياء: لأبي عبد الله محمد بن علي "المعروف" بالحكيم الترمذي، تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى، ط1، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، 1965م.
31. حزانة الأدب لاس حجة الحموي، ط2، دار صادر - بيروت، 2005م.

32. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، لعلي باشا مبارك، ط1، المطبعة الأميرية ببولاق مصر، 1306هـ.
33. دراسة في سيرة الأمير عبد الله من بلقين آخر ملوك بني زيري في غرناطة، رائد مصطفى عبد الرحيم، [مجلة] المنارة للبحوث والدراسات، مع10، عدد5، كانون الأول 2004م.
34. دراسة في مصادر الأدب للدكتور الطاهر أحمد مكى، ط8، دار الفكر العربي - القاهرة، 1999م.
35. ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، 1983م.
36. ديوان أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، [جمع وترتيب] عبد العزيز الكرم، ط1، (اسم الدار ليس مذكوراً) 1988م.
37. ديوان بنت الشاطئ الدكتورة عائشة عبد الرحمن جمع ودراسة نقدية، للدكتورة مديحة جابر السايح، كلية دار العلوم - جامعة القاهرة. [بسر في] مجلة الدراسات العربية، العدد: 37/8، الخريف - الربيع 2018م كلية دار العلوم - جامعة المنيا.
38. رائدات الأدب النسائي في مصر لأميرة حواسك، ط1، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1999م.
39. رحيق العمر للدكتور جلال أمين، ط1، دار الشروق، الرياض، 2010م.
40. رواية الأرض بين القيمة وعلاقة الزمان والمكان: لأمينه رشيد، [مقال نشر في مجلة] فصول، المجلد 5، العدد 4، يوليو- سبتمبر 1985م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
41. الرواية العراقية وقضية الريف، لناقر جواد الرجاسي، دار الرشيد للنشر - بغداد، 1980م.
42. السخرية في أدب المازني حامد عبده الموالي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م.
43. السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري نعمان نجاد أمين طه، ط1، دار التوفيقية، القاهرة، 1978م.
44. السخرية؛ لغتها، أشكالها، ودوافعها للدكتور أبي القاسم رادفر، جامعة آزاد الإسلامية جيفت. راجع راجع [الموقع على الشبكة العنكبوتية] ديوان العرب، منبر حر للثقافة والفكر والأدب. (س2017/02/22م، السخرية/لغتها/ <https://www.diwanalarab.com>)
45. سعد زغلول زعيم الثورة للأستاذ عباس محمود العقاد، دار هندواي، القاهرة، 2014م.

46. السلطان محمد الفاتح فاتح القسطنطينية وقاهر الروم لعبد السلام عبد العزيز فهمي، ط: 5، دار القلم، دمشق، 1993م.
47. سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي، (ب. ت).
48. سنن الترمذي للإمام الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر، 1395هـ - 1975م.
49. السنن الصغرى للإمام السائى، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط2، مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، 1406هـ - 1986م.
50. السيرة الذاتية في الأدب الإسلامى الحديث: لمريم حماد عليان الحسنات، رسالة الماجستير، [نوقشت في] قسم اللغة العربية - كلية الآداب، بالجامعة الإسلامية عرة، 2013م.
51. السيرة الذاتية في التراث العربى، أنواعها وتشكيلاتها الزمنية: لأسامة محمد البحري، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1439هـ.
52. السيرة الذاتية: لجورج ماي، ترجمة: محمد القاضي وعبد الله صولة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1999م.
53. سيرة الغائب، سيرة الآتي - السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطله حسنى لشكري المبخوت، دار الجنوب - تونس، ط1، 1992م.
54. السيرة تاريخ وفن: لعاهر حسن فهمي، مكتبة النهضة العربية، ط1، القاهرة، 1970م.
55. السيرة وأنواعها في الأدب العربى لرقية أحمد وهند حسين، بحث لنيل شهادة البكالوريوس، قسم اللغة العربية بكلية الآداب، جامعة القادسية بالعراق، 2018م.
56. شعر المقنع الكندي، جمع وتحقيق ودراسة: للدكتور سامي زكي منصور، [نشر في مجلة] حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، العدد: الحولية الثانية والثلاثون، كلية التربية - جامعة طنطا - مصر، 2011م.
57. الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، دار الحديث - القاهرة، 2003م.
58. شوقيات لأمير الشعراء أحمد شوقي، ط1، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.

59. صفوة الكتاب في اللغات والآداب: لمجموعة من الأساتذة بإشراف: الدكتورة فوزية عساسلة، ط1، كلية اللغات والآداب - الجزائر، 2017م.
60. ضوء القمر على سحبة الفكر لمحمد علي أحمدين، ط2، دار المعارف بمصر - 1958م.
61. العلماء الذين ترحموا لأنفسهم: لبكر بن عبد الله أبو زيد، ط1، دار مطابع الهلال، الرياض، 1405هـ.
62. على الجسر بين الحياة والموت، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2010م.
63. على الجسر بين الحياة والموت، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1986م.
64. عيون الأنبياء في طبقات الأطباء: لابن أبي أصيبعة، المطبعة الوهابية، القاهرة، 1299هـ.
65. فدوى طوقان - نقد الذات قراءة السيرة: ريم العيساوي، ط1، الدار المصرية اللبنانية، 1998م.
66. من السيرة الذاتية في الأدب الفلسطيني بين 1992-2002م: ندى محمود مصطفى الشيب، [نوقشت الرسالة ب] كلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية - نابلس، فلسطين، 2006م.
67. من السيرة للدكتور إحسان عباس، ط1، دار الشروق، عمان - الأردن، 1996م.
68. في سبيل البعث، الكتابات السياسية الكاملة [الجزء الثاني] معركة المصير الواحد: لميشيل عفلق، (بدون اسم الدار والمكان والتاريخ).
69. القاموس المحيط لفيروز آبادي، ط8، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، 2005م.
70. قصة الحضارة: ول وايريل ديورانت، ترجمة ركي نجيب محمود، ط1، دار الحيل، بيروت، (ب.ت).
71. القصص الإسلامية في عهد السيرة والخلفاء الراشدين للمحقق أحمد حافظ حكيمي، المطابع الأهلية، الرياض، 1976م.
72. كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة لأمير عبد الله بن بلقين، حرره: الدكتور علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، 2006م.
73. كتف الظنون عن أسامي الكتب والفضون لحاحي خليفة، ط، مؤسسة التاريخ العربي، 1941م.
74. اللامع العزيري شرح ديوان المتنبي لأبي العلاء المعري، تحقيق: محمد سعيد المولوي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، (ب.ت).

75. لسان العرب: للإمام محمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الإفريقي، دار صادر، ط1، بيروت، 1997م.
76. لوعة على شوقي لحمة بن فابع الفتحي، ط:1، (بدون اسم الدار والمكان)، 2005م.
77. ماذا علمتني الحياة للدكتور حلال أمين، دار الشروق الرياض، 2007م.
78. مجمع الأمثال لأبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري، الميداني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط1، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1955م.
79. المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هندواوي، ط1، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، 1421هـ/ 2000م.
80. مذكراتي لإسماعيل صدقي باشا، ط1، دار الهلال، القاهرة، 1950م.
81. المستدرك على تنمة الأعلام لمحمد خير رمضان يوسف، ط1، دار اس حزم، بيروت - لبنان، 2002م.
82. المسند الصحيح المختصر بقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت. (ب.ت)
83. معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م، لكامل سلمان الجبوري، ط:1، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، 2002م.
84. معجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة، ط3، (مزينة ومفحة) دار المنارة - جدة، 1988م.
85. معجم المصطلحات الأدبية: إبراهيم فتحي، المؤسسة العربية للناشرين المتحددين، تونس، 1986م.
86. معجم المؤلفين المعاصرين في آثارهم المخطوطة والمفقودة وما طبع منها أو حقق بعد وفاتهم لمحمد خير رمضان يوسف، ط:1، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2004م.
87. المعجم الوسيط: تحت الإشراف: الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م.
88. معي للدكتور شوقي صيف، [الجزء الأول] ط:1، مكتبة الأسرة، القاهرة - مصر، 2003م.
89. معي، ذكريات ومشاهدات للدكتور شوقي ضيف، [الجزء الثاني] دار المعارف، القاهرة - مصر، (ب.ت).

90. مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن للدكتور ماحدة حمود، ط، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2000م.
91. المكان في السيرة الذاتية - دراسة لعمر ميب إدلي، [مقال نشر على الشبكة بعنوان: متديات ستار تايمز] واطلعت عليه في 18 ديسمبر 2018م، (<https://www.startimes.com/?t=21066943>).
92. المنارة المفقودة: الدكتور عبد الله عزام، إعادة جمع وترتيب: أبو تميم المجدي، ط1، نشر وتوزيع، مركز شهيد عزام الإعلامي - بيشاور، 1987م.
93. المقذ من الضلال للإمام الغزالي، تحقيق سعد العقي، ط1، دار المنهاج، جدة، 2013م.
94. الموت والعبقريّة: عبدالرحمن ندوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1945م.
95. موسوعة 1000 مدينة إسلامية لعبد الحكيم العفيفي، ط1، أوراق شرقية للطباعة والنشر، بيروت، 2000م.
96. موسوعة أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، للدكتور خليل أحمد خليل، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، 2001م.
97. موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر المحجري في العالم العربي والإسلامي من 1301-1417هـ، لإبراهيم عبد الله الحارمي، ط1، دار الشريف للنشر والتوزيع الرياض، 1419هـ.
98. الموسوعة العربية الميسرة: لمجموعة من الأساتذة، إشراف: محمد شفيق غربال، دار نضلة بيروت، 1987م.
99. موسوعة المدن العربية والإسلامية : إعداد: الدكتور يحيى شامي، ط1، دار الفكر العربي، بيروت، 1993م.
100. نظرية المكان في فلسفة ابن سينا: حسن محمد العبيدي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.
101. النقد والحداثة، للدكتور عبد السلام المسدي، ط2، دار العهد الجديد، تونس، 1989م.
102. الوحي في سيرة الملك عبد العزيز خير الدين الزركلي، ط5، دار العلم للملايين - بيروت، 1988م.
103. الوصايا للصوفي المشهور الحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: عبدالقادر عطا، مطبعة صبيح، القاهرة، 1965م.
104. الوصف في تجربة إبراهيم نصر الله الروائية للدكتورة نداء أحمد مشعل، ط1، جرش مدينة الثقافة الأردنية، عمان - الأردن، 2015م.

دوريات

105. بنت الشاطئ من قريب الدكتور حسن عبدالحميد جبر المالكى، [مقال نشر في مجلة] الوعي الإسلامي - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة الكويت، العدد: 532، ديسمبر 2009م.

106. البنية السردية والخطاب السرد في الرواية: للدكتور سحر شبيب، [نشر في] مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها، فصلية محكمة، العدد: 14، صيف 2013م.
107. دراسة في سيرة الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بني زيري في غرناطة، رائد مصطفى عبد الرحيم، [مجلة] المنارة للبحوث والدراسات، مج10، عدد5، كانون الأول 2004م.
108. الدكتورة عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ" العالمة المتميزة لمحمد القاضي، [نشر المقال في مجلة] الوعي الإسلامي، الصادرة من وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، العدد: 405، جمادى الأولى 1420هـ/ أغسطس سبتمبر 1999م.
109. السيرة الذاتية وملاحظاتها في الأدب العربي المعاصر: سيد إبراهيم أرمس، مجلة "فصلية دراسات الأدب المعاصر" العدد 11، المجلد3، الخريف، جامعة آراد الإسلامية، جيرفت بظهران - إيران، 1432هـ.
110. السيرة الذاتية: مفهومها وتطورها للأستاذ أحمد طه أحمد، مجلة: آداب الراعيين - العدد: 59، تصدر من جامعة الموصل - العراق، سنة 1432هـ/2011م.
111. قراءات لصقر أبو فخر [مقال نشر في] مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد7، العدد25، شتاء 1996م، مؤسسة الدراسات الفلسطينية (www.palestine-studies.org).
112. لمحات في أدب السيرة الذاتية، الحد والمفهوم، أحمد علي آل مريع: نَجْد باوزير، جريدة الرياض، العدد 14519، يوم الثلاثاء 17 ربيع الأول 1429هـ/ 25 مارس 2008م.
113. مصادر السيرة الذاتية في الأدب العربي القديم: لصالح معيض العامدي، مجلة علامات، النادي الأدبي بجدة، مارس - 1993م.
114. المصري اليوم: لماهر حسن، مؤسسة المصري اليوم للصحافة والنشر، العدد: 1999، 3 ديسمبر عام 2009م.
115. ميخائيل نعيمة كما عرفته: للباحثة الدكتورة ماريا نيكولايففا، (Maria Nikolajeva)، [نشر المقال في] المركز التربوي للبحوث والإنماء، بيروت - لبنان، 2013م، (<https://www.crdp.org/mag-description?id=7736>).

المواقع المختلفة على الشبكة

1. <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
2. <http://shamela.ws/index.php/author/1573>
3. الموقع الرسمي لمجمع اللغة العربية بالقاهرة. (مجمع-اللة-العربة-بالقاهرة/ <https://ar.wikipedia.org/wiki/>)
4. مواقع الإنترنت [نجد/متولي/الشعراوي](https://ar.wikipedia.org/wiki/نجد/متولي/الشعراوي) <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
5. مدينة أوسلو <https://mawdoo3.com/>
6. ([درشلوة](https://ar.wikipedia.org/wiki/درشلوة)) <https://ar.wikipedia.org/wiki/>
7. موقع في الشبكة: (<https://pulpit.alwatanvoice.com/content/print/240048.html>)
8. موقع خاص بالدكتورة هدى قزع: <https://sites.google.com/site/hudaqazza>

المحتويات

الرقم	الموضوعات	رقم الصفحة
1.	الإهداء	ب
2.	كلمة الشكر	ث
3.	المقدمة	ج
4.	التمهيد: بشأة من السيرة الذاتية في مصر وتطوره في العصر الحديث	1
5.	الباب الأول: التعريف بالسيرة الذاتية المختارة وبكتابها	23
6.	الفصل الأول: التعريف بالسيرة الذاتية المختارة	24
7.	المبحث الأول: على الحمر بين الحياة والموت للدكتورة عائسة عبدالرحمن	25
8.	المبحث الثاني: ماذا علمتني الحياة، ورحيق العمر للدكتور حلال أمين	32
9.	المبحث الثالث: معي (تربيته) للدكتور شوقي صيف	55
10.	المبحث الرابع: حياتي في حكاياتي للدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي	66
11.	الفصل الثاني: حياة الكتاب من خلال سيرهم	97
12.	المبحث الأول: الدكتورة عائسة بنت عبد الرحمن	99
13.	المبحث الثاني: الدكتور حلال أمين؛	118
14.	المبحث الثالث: الدكتور شوقي صيف	130
15.	المبحث الرابع: الدكتور حسن الشافعي	152
16.	الباب الثاني: دراسة موضوعية للسيرة الذاتية المختارة:	170
17.	الفصل الأول: الصراع والألم	171

180	الفصل الثاني: الصدق والصراحة	18
191	الفصل الثالث: الحقيقة والخيال	19
196	الباب الثالث: دراسة فنية للسير الذاتية المختارة:	20
197	الفصل الأول: اللغة بين السرد والحوار والوصف	21
228	الفصل الثاني: أسلوب السحرية	22
241	الفصل الثالث: دلالات الرمان والمكان	23
270	الخاتمة	24
274	ملخص الرسالة	25
276	الفهارس الفنية	26
277	فهرس الآيات القرآنية	27
278	فهرس الأحاديث النبوية	28
280	فهرس الأعلام	29
282	قائمة المصادر والمراجع	30
291	المحتويات	31